برتراند رسل

آمال جديدة في عالم متغير

آفاق

ترجمة: عبد الكريم أحمد

مراجعة: علي أدهم

آمال جديدة
في عالم متغير

برتراند رسل

• Author : Bertrand Russell
• Title: New Hopes For A Changing World
• Translated by: Abd El-Kareem Ahmed
• Reviewed by: Ali Adham
• Afaq's first edition: 2018
• Cover Design by: Amr AlKafrawy
• Publishing Consultant: Sawsan Bashier
• General Manager: Mostafa Alsheikh

• المؤلف: برتراند رسل
• العنوان: آمال جديدة في عالم متغير
• ترجمة: عبد الكريم أحمد
• مراجعة: علي أدهم
• طبعة آفاق الأولى 2018
• تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
• مستشار النشر: سوسن بشير
• المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:
٢٠١٧/٢٧٤٠٢
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 098 - 4

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

برتراند رسل

آمال جديدة في عالم متغير

ترجمة

عبد الكريم أحمد

مراجعة

علي أدهم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

رسل، برتراند

آمال جديدة في عالم متغير. تأليف: برتراند رسل. ترجمة : عبد الكريم أحمد

ط1 القاهرة -آفاق للنشر والتوزيع - 2018

224 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 27402 / 2017

الترقيم الدولي 4 - 098 - 765 - 977 - 978

1 - الفلسفة

أ - العنوان

المحتويات

القسم الأول

الإنسان والطبيعة

الفصل الأول

محيرات شائعة

العصر الحاضر عصر يسوده شعور بالعجز والحيرة؛ فنحن نرى أنفسنا مسوقين إلى حرب لا يكاد يريدها أحد، وهي حرب -كما نعلم جميعًا- لا بد أن تجلب كارثةً للغالبية العظمى من البشر، ولكننا مثل أرنب سحرته أفعى تحدق في الخطر دون أن تدري ماذا تفعل لتجنبه، ويحكي بعضنا لبعض قصص أهوال القنابل الذرية والقنابل الهيدروجينية والمدن التي مُحيت من عالم الوجود والجحافل الروسية الزاحفة والمجاعة الوحشية في كل مكان. ولكن على الرغم من أن العقل ينصحنا أن نخشى هول مثل هذا المستقبل، فإن هناك جزءًا آخر من أنفسنا يجد فيه متعةً، ومن ثم ليست لدينا إرادة راسخة للعمل على تحقيقه؛ فهناك انقسام عميق في أرواحنا بين الجزء العاقل والجزء غير العاقل، وفي الأوقات الهادئة يستطيع الجزء غير العاقل أن يغفو طول النهار ولا يصحو إلا في الليل، ولكنه في أوقات مثل وقتنا الحاضر يغزو ساعات يقظتنا أيضًا؛ ويصبح كل تفكير عقلي شاحبًا منفصلًا عن الإرادة، وتصير حياتنا معلقة بخيط رقيق من الفروض- إذا كانت الحرب ستقع فإن طريقةً بذاتها من الحياة تكون معقولةً، وإلا فطريقة أخرى. وهذا الوجود المعلق على فروض مزعج بصورة لا تحتمل بالنسبة للغالبية العظمى من الجنس البشري، ومن ثم فهم من الناحية العملية يتبنون أحد الفرضين، ولكن بغير اقتناع كامل؛ فقد يقول شاب سئم الدراسة لنفسه: ولِمَ أهتم؟ سأموت في الحرب قبل مضي وقت طويل.

وقد تفكر امرأة شابة؛ لعلها كانت تستطيع أن تحيا حياة إنشائية؛ في أنه خير لها أن تلهو وتمتع نفسها ما بقي لديها وقت، حيث إن الجند الروس سيغتصبونها عن قريب وتبقى مغتصبةً حتى تموت، وتنتاب الآباء حيرة؛ هل تنشئة أبنائهم جديرة بما تتطلبه من تضحيات حيث يغلب أنها ستكون بلا جدوى. وأولئك الذين أسعدهم الحظ برأسمال قمينون بأن ينفقوه في حياة عابثة؛ حيث إنهم يتنبأون بانخفاض في العملة يودي بما يملكون، وبهذه الطريقة يقف عدم اليقين عقبةً في طريق كل نزعة تدفع إلى بذل مجهود متعب ويولد نغمةً من الشقاء العابث؛ يخطئه الناس فيحسبونه متعةً، وهو لا يلبث أن يتحول إلى الخارج، ويصبح كراهية لأولئك الذين يحس الإنسان أنهم سببه. وبطريق هذه الكراهية يعمل عدم اليقين هذا على تقريب الكارثة التي يخشاها يومًا بعد يوم، وتبدو الأمم كأنها وقعت في شباك مصير حزين؛ كما لو كانت شخصيات مسرحية إغريقية، أعشى إله غاضب أبصارهم فهم يسيرون نحو الهوة، وقد حيرهم ضباب ذهني، وهم يتصورون أنهم يبتعدون عنها.

ولا مندوحة من الاعتراف بأن المشكلات الفكرية البحتة التي يواجهنا بها عالم الحاضر بالغة الصعوبة؛ فالأمر لا يقتصر على المشكلة الكبرى: هل نستطيع أن ندافع عن عالمنا الغربي من دون حرب حقيقية؟ بل هناك أيضًا مشكلات في آسيا ومشكلات في أفريقيا ومشكلات في أمريكا الاستوائية لا سبيل إلى حلها داخل إطار الأفكار السياسية التقليدية؛ صحيح أن هناك من هم على تمام الثقة من أنهم يستطيعون حل هذه المشاكل بالأساليب العتيقة. فتأمل مثلًا؛ ماك آرثر ومؤيديه من الجمهوريين، لقد بلغ به ضيق العقل والخيال حدًّا جعله لا تساوره الحيرة مطلقًا لحظة واحدة؛ فكل ما علينا أن نفعله هو العودة إلى أيام حرب الأفيون، وبعد أن نقتل عددًا كافيًا من ملايين الصينيين سيدرك الباقون على قيد الحياة تفوقنا المعنوي، ويحبون في ماك آرثر منقذًا لهم. بيد أننا يجب ألا ننظر إلى المسائل من جانب واحد؛ فستالين في رأيي لا يقل غباءً في التفكير أو التجاء إلى الأساليب العتيقة التي لا مكان لها في العصر الحديث؛ إذ إنه أيضًا

يعتقد أنه إذا استطاعت جيوشه احتلال بريطانيا وخفض مستوانا الاقتصادي إلى مستوى الفلاحين الروسيين، وعاملنا سياسيًّا معاملة نزلاء السجون؛ فسنهتف له بوصفه مخلصًا عظيمًا، ونبارك اليوم الذي حررنا فيه من أغلال الديموقراطية.

إن أمرًا من الأمور المؤلمة التي يتسم بها وقتنا أن أولئك الذين يحسون اليقين أغبياء؛ وأولئك الذين عندهم شيء من الخيال والإدراك يملؤهم الشك والتردد، ولست أعتقد أن هذا ضروري؛ بل أعتقد أن هناك وجهة نظر في الإنسان ومصيره في المشاكل الحالية تستطيع أن تكفل يقينًا وأملًا معًا، إلى جانب فهم أكمل للحالات المزاجية وألوان اليأس والشكوك التي تدفع إلى الجنون مما يحيط بالناس في وقتنا الحاضر.

وأملي أن أعرض في الصفحات التالية مثل وجهة النظر هذه بطريقة مقنعة ومشجعة تمامًا؛ بطريقة تجعل في وسع الناس من ذوي النية الحسنة أن يعملوا بنفس تلك الهمة التي صارت مؤخرًا احتكارًا للمتعصبين القساة؛ وأن ننزع من عقليتنا الغريبة ما ترمي به من أنه ليس لدينا ما نقدمه مما يوحي نفس الإيمان الراسخ ونفس المجموعة المتماسكة من المعتقدات التي يعرضها أصحاب الكرملين. بيد أني أسبق الحوادث، ولا بد لي بعد هذا التوغل في الأمل أن أعود إلى أسباب نقيضه، وهي التي تحتل في تأملات المفكرين من الناس مكانًا أبعد أثرًا مما ينبغي «وإذا نسينا ماك آرثر وترهاته، فماذا لدينا من أفكار عن آسيا» من عهد «فاسكو دي جاما» حتى الحرب الروسية اليابانية لم يفكر العالم الغربي بصورة جدية في آسيا، ومما لا جدال فيه أنها قارة رائعة، وكنا في غمار خططنا التقدمية نجد متعةً في الحديث عن الشرق الذي لا يتغير. وجعل الفلاسفة في ازدراء مشفق، والمبشرون في حماسة المصلح، يدرسون ما كان يلذ لنا أن نسميه خرافاتهم.

وكان عدم كفايتهم الحربية وعدم قدرتهم على اقتضاء أجور مرتفعة مما يسرنا، وكنا لهذه الأسباب كلها أقرب إلى الميل إليهم. وكنا ندرك؛ بطبيعة الحال، أن سكان آسيا لا يكونون جميعًا مجتمعًا واحدًا؛ فقد كان هناك مسلمون، وهندوس وبوذيون، كان أملنا أن يستمروا على كراهية بعضهم بعضًا إلى الأبد، وعلى هذا الأساس كان الأكثر استنارةً

من غيرهم من إداريينا يستنكرون عمل المبشرين؛ خشية أن يؤدي إلى التخفيف من حدة الاعتقاد في الخرافات.

وكان أول بلد أسيوي يثير في نفوس الأوربيين إحساسًا بالقلق نحوه هو اليابان؛ ففي أول الأمر، عندما فتح «كومودري بري Perry» هذه البلاد استجابةً لحبنا للاستطلاع، أعجبتنا زهور الكرز وتقاليد البطولة وشمائل الفروسية في طبقة «الساموراي»، وأحببنا المعابد والفن، وتصور هواة الجمال عندنا أنهم واليابانيين أرواح متقاربة. بيد أن أحلامنا طرأ عليها تغيير شيئًا فشيئًا يمكن رؤيته في مؤلفات «لافكاديو هيرن»؛ فكان أول الأمر متحمسًا لليابانيين، ولكن آخر كتبه «اليابان: تفسير وتحليل» بدأ يدرك أشياء أكثر جديةً بعض الشيء من زهور الكرز؛ فقد رفض اليابانيون أن يقعدوا جامدين، وشرعوا يعملون على تقليد الغرب، وبقدر نجاحهم بثوا الكراهية في العقول الغربية.

وواجه اليابانيون -مؤقتًا- كارثةً؛ فقد أتقنوا وحشيتنا، ولكنهم لم يتقنوا مرونتنا، ولكنهم تركوا لبقية آسيا ميراثًا من التمرد المشبع بروح القتال ضد الوقاحة الغربية، ولا يسع الغربيين من أصحاب الآراء المتحررة إلا أن يعطفوا على رغبة آسيا في الاستقلال، ولكنه يكون أمرًا مؤسفًا لو أن هذا العطف حجب عن أفكار المفكر الغربي بعض أمور معينة على جانب كبير من الخطورة؛ فالعلم الغربي حقق -ليس بصورة كاملة ولكن إلى حد كبير- طريقةً في الحياة لها بعض الميزات التي تُعد جديدةً في التاريخ البشري، فقد استأصل شأفة الفقر تقريبًا، وقضى على المرض والموت إلى درجة كانت تعتبر من مائة عام غير متصورة، ونشر التعليم بين السكَّان، وحقق قدرًا جديدًا من الاتساق بسرعة.

وقد بدأنا -نحن الغربيين- نفكر لأول مرة -ونحن نعرف مدى الفقر الشنيع في جنوب شرق آسيا اقنعتنا بأن هذا الفقر سلاح دعاية في يد الروس- في أنه يجب العمل على رفع مستوى المعيشة في هذه المناطق.

بيد أن عاداتهم ومعتقداتنا تجعل هذه المهمة ميؤوسًا منها في الوقت الحاضر؛ فكل زيادة في الإنتاج؛ بدلًا من أن تؤدي إلى رفع مستوى المعيشة؛ تبتلعها بسرعة زيادة في

السكان؛ فالشعوب الشرقية لا تعرف كيف تمنع ذلك، والأشرار من الغربيين يحولون بين أولئك الذين يفهمون المشكلة وبين نشر المعلومات الضرورية في هذا الشأن، والأشياء السيئة في الغرب تنتشر بسهولة، قلقنا وروحنا الحربية، وتعصبنا، وإيماننا الذي لا يعرف رحمةً في الآلية (mechanism).

ولكن خير ما في الغرب -البحث الحر، وفهم شروط الرخاء العام، والتحرر من الخرافات- جميع هذه تعمل قوى شديدة في الغرب على منعها عن الشرق، وما دام ذلك مستمرًّا ستظل الشعوب الشرقية على حافة الإملاق، وبقدر ما تزيد قوتهم سيصيرون مدمرين بسبب الحسد، وستساعدهم روسيا في ذلك بطبيعة الحال، إلا إذا هزمت روسيا أو تحررت، ولهذه الأسباب؛ فإننا ما زلنا في حاجة إلى البحث عن سياسة حكيمة تجاه آسيا.

وتوجد نفس المشاكل في أفريقيا، وإن كانت أقل خطرًا في الوقت الحاضر؛ فكل ما يفعله الإداريون الأوربيون لتحسين حال الأفريقيين لا قيمة له في الوقت الحاضر مطلقًا، ولا جدوى منه ألبتة بسبب زيادة السكّان. ويعزو الأفريقيون إملاقهم إلى استغلال الرجل الأبيض لهم، وهو أمر لا غرابة فيه وإن كان غير صحيح الآن؛ فهم يحصلون على استقلالهم فجأةً قبل أن يتدربوا على الإدارة وعلى عادة المسئولية، وتلك المدنية التي حملها الرجال البيض ستختفي بسرعة، ولا جدوى للتحرريين المذهبيين من إنكار ذلك؛ فهناك دليل قائم في جزيرة هاييتي.

ويجب ألا نفترض أي استقرار جوهري في طريقة الحياة المتمدينة، ولنتأمل في المناطق التي اجتاحها الأتراك والفرق بين حالتها تحت الحكم التركي وحالتها في أيام الرومان، وحدوث مثل هذه الكوارث في مناطق واسعة من الأرض ليس مستحيلًا في المستقبل القريب، ومن الناحية الأخرى لا بد من الاعتراف بأن كل زيادة في الكفاية والأمانة والمهارة العلمية من جانب الإداريين الأوربيين لن يؤدي إلا إلى زيادة مجموع الشقاء البشري إلا إذا جعلنا ضبط النسل جزءًا من سياستنا الأفريقية.

ومشكلة السكّان هذه هي نفس المشكلة في أمريكا الوسطى والجنوبية، ولكن ليس لها هناك نفس الأهمية السياسية.

لقد تحدثت حتى الآن عن مسائل عامة تؤدي إلى البلبلة، ولكن هذه المسائل ليست هي وحدها التي تؤرق العقل الغربي؛ فنظم العقائد التقليدية للسلوك لم تعد لها سيطرتها السابقة، فالرجال والنساء كثيرًا ما يراودهم شك حقيقي فيما هو الصواب وما هو الخطأ؛ بل وفيما إذا كان الخطأ والصواب هما مجرد خرافات تقليدية أم لا، وعندما يحاولون القطع برأي لأنفسهم في هذه المسائل يجدونها صعبةً غاية الصعوبة؛ فهم لا يستطيعون اكتشاف أي هدف واضح ينبغي عليهم أن يسعوا إلى تحقيقه، أو أي مبدأ واضح ينبغي عليهم أن يسيروا على هديه.

والمجتمعات المستقرة قد تكون لها مبادئ تبدو للغريب عنها سخيفةً؛ بيد أنه ما دامت المجتمعات مستقرةً تكون مبادئها سليمةً من الوجهة الذاتية، أي أنها تُقبل من الجميع تقريبًا بلا مناقشة، وتجعل قواعد السلوك واضحةً ودقيقةً مثل رقصة دقيقة (Minuet) أو أبيات من الشعر الموزون، ولكن الحياة الحديثة في الغرب ليست مثل رقصة دقيقة أو شعر موزون؛ بل هي مثل شعر مرسل لا يميزه عن النثر إلا الشاعر، وهناك نظامان صارمان عظيمان في انتظار الرجل الحديث عندما تحس روحه الكلل؛ أعني نظام روما ونظام موسكو، ولا يتيح أي منهما مجالًا للعقل الحر، الذي هو بمثابة مجد الرجل الغربي ومصدر عذابه في نفس الوقت، وهو مصدر عذاب بسبب ما يؤدي إليه من زيادة في إحساس المرء بالألم؛ فالرجل الحر عندما يكتمل نموه، سيمتلئ بهجةً وحيويةً وصحةً عقليةً، ولكنه في نفس الوقت يُقاسي العذاب.

فالعالم في حاجة إلى طرق في التفكير والشعور، سواء في الحياة العامة أو الخاصة، تتلاءم مع ما نعرفه، وما نستطيع أن نصدقه، ونحس أنفسنا مرغمين على عدم تصديقه؛ إذ إن هناك في الشعور تقليدية، وتحظى بكل هيبة الماضي والسلطة التي لها زونها، ومع ذلك فهي لا تتلاءم مع العالم الذي نعيش فيه؛ حيث جعلت الأساليب الحديثة بعض

الفضائل الجديدة ضروريةً، وبعض الفضائل القديمة غير ضرورية؛ فالأنبياء العبريون وقد وجدوا أنفسهم محاطين بأمم معادية من كل جانب وصمموا على ألا تذوب شخصية شعبهم فيما حوله أنشأوا مذهبًا قاسيًا، المفهوم الأساسي فيه هو الخطيئة؛ فكل الأمم الأخرى خاطئة باستمرار وفي كل طرقهم؛ بيد أن اليهود أيضًا لسوء الحظ، معرضون للسقوط في هذه الخطيئة هم أنفسهم، وعندما كانوا يفعلون ذلك كانوا يتعرضون للهزيمة، ثم يبكون بجوار مياه بابل.

وهذا النمط هو مصدر الوحي للأخلاقيين منذ ذلك الحين، وصور الرجل الفاضل على أنه الرجل الذي تحيط به المغريات من كل جانب، ويحدوه اندفاع عاطفي نحو الخطيئة باستمرار ولكنه برغم ذلك ينجح، بإرادة تكاد تكون فوق طاقة البشر، في السير على الصراط المستقيم الضيق وهو ينظر في نفس الوقت بازدراء يمنةً ويسرةً إلى تلك المخلوقات الأدنى مقامًا التي تتلكأ لتلتقط الزهور في طريقها. والفضيلة في هذا المفهوم صعبة وسلبية ومجدبة؛ فهي متشددة وتقف من السعادة موقف الريبة، وهي مقتنعة بأن نزعاتنا الطبيعية شريرة، وأن لا سبيل إلى المحافظة على تماسك المجتمع إلا بالتحريمات القاسية، ولست أريد ادعاء أن المجتمع يمكن أن يظل متماسكًا إذا سرق الناس وقتلوا.

إن ما أريد قوله هو أن ذلك الضرب من الرجال الذي أود رؤيته في العالم هو ذلك الذي ليس لديه نزعة للقتل، والذي يمتنع عن القتل لا لأنه محرم، ولكن لأن أفكاره ومشاعره تحمله بعيدًا عن الدافع إلى التدمير، وقد انتهى مفهوم الخطيئة كله بوصفه هذا؛ على الأقل في حدود ما يتعلق بالفكر والشعور الواعيين، ولم يفكر معظم الناس في أي مذهب آخر للأخلاق، ولعلهم أيضًا لم ينبذوا المذهب القديم -نظريًا- بيد أنه فقد سيطرتهم عليهم؛ فهم لا يقتلون ولا يسرقون بوجه عام؛ لأن من مصلحتهم ألا يفعلوا، ولكن المرء لا يستطيع أن يقول نفس الشيء عن طاعتهم للوصية السابعة من الوصايا العشر؛ فليس لديهم في الواقع رغبة في الانصياع للنمط القديم؛ «فالجابي»[1] يحمد

---

(١) (Pnblicans) «الجباة» شيعة من اليهود الذين عرفوا بالمغالاة في التواضع وتحقير الذات واعتبروا أن ذلك غاية التدين، واللفظ أصلًا كان يطلق على فئة المزارعين من جباة الضرائب في روما القديمة.

الله تعالى على أنه ليس مثل هذا «الفاريسي»[1] وتصور أنه بذلك قد فهم لب الحكمة.

ولا يخطر بباله أن الشعور بالتفوق هو موضع الزجر، وأنه سواء كان (الجابي) أو (الفاريسي) هو الذي يشعر بالتفوق فإنه أمر لا أهمية له.

وإني لأود أن أقنع أولئك الذين أصبحت الأخلاق التقليدية لا تأثير له على نفوسهم، والذين ما برحوا مع ذلك يحسون بالحاجة إلى هدف جدي أسمى من المتعة المؤقتة وأجلّ، أن هناك طريقةً في التفكير والشعور ليست عسيرةً على أولئك الذين لم يتعودوا نقيضها، وهي أيضًا طريقة لا تقوم على كبح النفس وإلغاء الذات واتهامها؛ فالحياة الطيبة، كما أتصورها، هي الحياة السعيدة، ولست أعني أنك إذا كنت طيبًا فستكون سعيدًا؛ بل أعني أنك إذا كنت سعيدًا؛ فستكون طيبًا، والشقاء عميق الجذور في أرواح معظمنا؛ فكم من شخص نعرفه جميعًا يبدو في الظاهر مرحًا، وهو مع ذلك في سعي دائم وراء المسكرات، سواء من النوع ال[illegible] يرضي «باكوس» إله الخمر أو من نوع آخر. والرجل السعيد لا يحتاج إلى مسكر، ولا هو يحسد جاره، ومن ثم لا يحقد عليه، ويستطيع أن يحيا حياة النزعة مثل الطفل؛ لأن السعادة تجعل النزعات مفيدةً، وليست مدمرةً؛ بيد أن هناك كثيرًا من الرجال والنساء يتصورون أنفسهم قد تحرروا من أغلال القواعد العتيقة، ولكنهم في الواقع لم يتحرروا إلا في الطبقات العليا من عقولهم، ويكمن تحت هذه الطبقات الإحساس بالذنب، وأيضًا مثل وحش مفترس في انتظار لحظات الضعف أو عدم الانتباه، وتصدر منه زمجرة غضب مسموم تصعد إلى السطح في صور غريبة مشوهة، ويقاسي هؤلاء الناس أسوأ ما في العالمين.

فالإحساس بالذنب يجعل السعادة الحقيقية مستحيلةً بالنسبة لهم؛ ويجعلهم النبذ الواعي لقواعد السلوك القديمة يتصرفون دائمًا بطرق تزيد الوحش العتيق القابع في الطبقات الدنيا شراهةً، فأي طريقة في الحياة لا يُقدَّر لها النجاح ما دامت مجرد اقتناع

(١) (Phareesee) «الفاريسين» شيعة أخرى من اليهود، تتميز بتمسكها بمظاهر الدين دون اللباب، ومن ثم تطلق مجازًا على المرائي.

فكري؛ بل يجب أن يحس بها المرء بعمق ويؤمن بعمق وأن تسيطر عليه حتى في أحلامه، ولا أعتقد أن أفضل حياة في وقتنا الحاضر ممكنة بالنسبة لأولئك الذين ما برحوا يرزحون؛ فيما دون مستوى الوعي؛ تحت وطأة فكرة الخطيئة، وواضح أن هناك أشياء من الأفضل ألا يفعلها المرء؛ بيد أني لا أظن أن خير وسيلة لتجنب ارتكاب مثل هذه الأشياء هي وصفها بأنها خطيئة وتصويرها في إطار من الإغراء الذي يكاد لا يقاوم، ومن ثم فإني أود أن أقدم للعالم شيئًا لا يكاد المرء يستطيع أن يُسميه مذهبًا أخلاقيًا، على أي الأحوال ليس بالمعنى المفهوم قدمًا للمصطلح، ولكنه شيء مع ذلك سيوفر على الناس البلبلة الأخلاقية والندم واتهام الآخرين.

إن ما أود أن أستبدله بالنظام الأخلاقي بالمعنى القديم هو تشجيع جميع النزعات الخلاقة السخية وتهيئة الجو لها. وينبغي أن نفعل كل شيءٍ حتى يتحرر الناس من الخوف، لا من المخاوف الشعورية وحدها؛ بل كذلك من تلك المخاوف البدائية الحبيسة التي جلبناها معنا من الغابة، وينبغي أن نجعل واضحًا أننا لن نحقق سعادتنا على حساب شقاء الآخرين؛ بل إن السعادة والسبيل إلى السعادة يتوقفان على الوئام مع الآخرين، وأن نجعل ذلك واضحًا على أساس أنه شيء يؤمن به القلب تلقائيًا وليس بوصفه قضيةً تعتمد على التفكير، وعندما نفهم ذلك تمامًا ونحس به بعمق، سيكون من السهل أن نعيش بطريقة تحمل لنا وللآخرين السعادة بقدر متساوٍ.

فإذا استطاع الناس أن يفكروا ويشعروا بهذه الطريقة؛ فلن تذوب مشاكلهم الشخصية وحدها؛ بل ستذوب أيضًا مشاكل السياسة العالمية، حتى أكثرها تعقيدًا وصعوبةً؛ وفجأةً، كما يحدث عندما يتبدد الضباب من قمة الجبل؛ يصبح في وسعنا أن نرى ما أمامنا، ويصير الطريق جليًا واضحًا؛ إذ لا يتطلب الأمر منا إلا أن نفتح قلوبنا وعقولنا حتى تنطلق الشياطين هاربةً، ويتربع على عشرها جمال الدنيا.

الفصل الثاني

ثلاثة أنواع من الصراع

إن طبيعة الإنسان أن يكون في صراع مع شيء ما؛ صراع يخرج منه بعض الناس منتصرين، ويخرج بعضهم الآخر منهزمين، والمهزومون لا يتركون وراءهم عادةً سوى ذرية قليلة أو لا يتركون ذريةً مطلقًا، ويتبع ذلك أن السيكولوجية التي تنتقل بالوراثة يغلب أن تكون سيكولوجية المنتصرين، وأنه عندما تكون فرصة النصر مساويةً لفرصة الهزيمة يؤدي التفاؤل إلى المبالغة في تقدير فرصة النصر، ويُعد هذا من وجهة نظر من بقوا على قيد الحياة حسن طالع؛ أما وجهة نظر المهزوم فإنها تُنسى.

والصراع الذي يخوضه الإنسان على ثلاثة أنواع، هي:

١ - صراع الإنسان مع الطبيعة.

٢- صراع الإنسان ضد الإنسان.

٣ - صراع الإنسان مع نفسه.

وهذه الصراعات مختلفة تمامًا بعضها عن البعض في طابعها؛ كما تتغير أهميتها النسبية باستمرار مع تاريخ الإنسان؛ والأساليب التي تستعمل في هذه الصراعات مختلفة غاية الاختلاف؛ فالصراع مع الطبيعة تُستخدم فيه العلوم الطبيعية والمهارة الفنية. والصراع مع الإنسان تُتبع فيه السياسة والحرب. والصراع الداخلي الذي يشتعل

أواره في روح الفرد عُولج، حتى الآن، بالدين. وهناك الآن من يقولون إنهم يستطيعون علاجه علميًّا بواسطة أساليب التحليل النفساني، ولكني أشك في أن هذه الأساليب تستطيع أن تفي بالحاجة دون ما يكمل النقص الذي فيها.

ومن بين هذه الصراعات الثلاثة يُعد الصراع مع الطبيعة المادية، بمعنى ما أكثرها أهميةً؛ حيث إن الانتصار في هذا الصراع شرط ضروري للبقاء، وأولئك الذين يهلكون في عصر جليدي أو عندما تجف مناطق كانت خصبةً قبل ذلك أو عندما تبتلع الزلازل أوديةً بما فيها، هزموا في صراعهم مع الطبيعة المادية؛ وكذلك أولئك الذين يموتون في المجاعات والأوبئة، ويجعل كل نصر على الطبيعة المادية زيادة عدد الجنس البشري في حيز الإمكان، وقد استعمل عادةً في تحقيق هذا الغرض.

بيد أنه بقدر سيطرة الإنسان على بيئته، تزداد أهمية علاقاته بالآدميين من أمثاله؛ ويرجع بعض السبب في ذلك إلى أن أسلوب السيطرة على الطبيعة ينطوي على تكوين جماعات اجتماعية أكثر تماسكًا من معظم مجتمعات البدائيين، وبعضه إلى أنه بقدر زيادة سهولة الحصول على العيش يمكن توفير قدر أكبر من الطاقة لقتل الأعداء.

بيد أن هناك لحظات في التطور البشري يستطيع الناس فيها؛ بسبب نمو الأساليب الفنية؛ أن يصيروا أغنى عن طريق الاتفاق مع منافسين سابقين منهم عن طريق القضاء على أعدائهم؛ وعندما يصل تطور الإنسان إلى هذه المرحلة يتطلب، ما يُمكن أن نُطلق عليه مقتضيات الأساليب الفنية، وقف صراع الإنسان مع الإنسان أو على الأقل تخفيف حدته، وعندما يصل التطور إلى هذه المرحلة (وهي في الواقع المرحلة التي بلغها الإنسان في الوقت الحاضر) تصير أكثر الصراعات إلحاحًا في طلب الحل هي صراعات الإنسان مع نفسه؛ فالعصور الطويلة الزاخرة بالصراعين الآخرين شكلت الطبيعة البشرية في قالب كان فيما مضى ملائمًا، ولكنه الآن غير ذي موضوع من الناحية الفنية؛ إذ إن تلك العصور من القتال مع العناصر الخارجية انعكست في صورة حرب داخلية في الروح، وفي هذه الحرب الداخلية في الروح؛ أطلق جانب على الجانب الآخر

اسم «الخطيئة»، وصمم على هزيمته، بيد أن النصر لم يبلغ قط منتهاه كما في الصراعات الخارجية، وبعد كل هزيمة ترفع «الخطيئة» رأسها البشع مرةً أخرى.

وهذا القتال الداخلي الذي كان أصلًا انعكاسًا للقتال الخارجي، أصبح الآن على النقيض؛ مصدرًا للقتال الخارجي؛ «فالخطيئة ليست سوى جزء من طبيعتي، ولكنها كل طبيعة أعدائي»، وهذا على الأقل ما يعتقده الأخلاقيون من الطراز القديم، ومن ثم فإن الروح التي لا تنعم بالسلام مع نفسها لا تستطيع أن تعيش في سلام مع العالم؛ ولا بد من استمرار الحروب حتى تخفي عن أفراد الناس أن الحرب الحقيقية في داخلهم، ولهذه الأسباب كان صراع الإنسان مع نفسه هو الذي يبلغ ذروة الأهمية عند نهاية التطور البشري.

وكل حرب يجب أن تنتهي بوئام؛ فصراع الإنسان مع الطبيعة المادية يتحول إلى وئام بقدر ما يتعلم الإنسان أسرار الطبيعة، ومن ثم يصير في وسعه أن يتعاون معها، وصراع الإنسان مع الإنسان يحقق غرضًا بذاته؛ ما دام إمكان توفير قدر كاف من الطعام للمجتمع متعذرًا، ولكن عندما تتحقق إمكانية الغذاء للجميع عن طريق غزو الطبيعة، وعندما يجعل نمو الأساليب الفنية التعاون على نطاقٍ واسع مربحًا، يصبح صراع الإنسان مع الإنسان شيئًا ممتنع الحدوث، ويجب أن ينتهي إلى وحدة سياسية واقتصادية مثل تلك التي يسعى إلى تحقيقها دعاة الحكومة العالمية.

وبهذه الطريقة يمكن تحقيق وئام خارجي بين الإنسان والإنسان؛ بيد أنه لن يكون وئامًا مستقرًّا حتى يصل الناس إلى وئام حقيقي داخل أنفسهم، يكفوا عن اعتبار جانب من أنفسهم عدوًّا يجب القضاء عليه. وهذا؛ باختصار؛ هو تاريخ الإنسان في الماضي والحاضر و(أملي أن يكون) في المستقل، وسأحاول في الفصول التالية أن أملأ هذا الإطار.

الفصل الثالث

السيطرة على الطبيعة المادية

تعتبر مدة وجود الإنسان طويلةً في علاقاته بالتاريخ، ولكنها قصيرة في علاقته بالعصور الجيولوجية، والسائد أنه موجود حوالي مليون سنة، وهناك من يذهبون (كأينشتين مثلًا) إلى أن الغالب أن الإنسان قد قام بدوره، وأنه سينجح في القضاء على نفسه خلال سنوات قليلة نسبيًّا بمهارته العلمية الفائقة.

أما أنا، فإني من ناحيتي أجد عسيرًا أن أعتنق هذا الرأي المتطرف؛ بيد أننا إذا أردنا أن نتجنب هذه النهاية المظلمة لتاريخ جنسنا، فإنه يجدر بنا أن نتعلم أن نأخذ في الاعتبار مطالب الإنسان بوصفه إنسانًا بدلًا من مطالب هذه المجموعة أو تلك من الناس؛ لأن الإنسان بوصفه إنسانًا هو ما يتهدده الخطر بسبب عدم قدرته على التفكير في الجنس البشري كوحدة. فالإنسان بسيطرته على الطبيعة بلغ بالتدريج مدى من الحرية يبدو أنه ليس كفأً لها من ناحية نضجه. واعتقادي أن أفضل ما يؤدي إلى إقناعه بالامتناع عن الانتحار هو أن يتذكر المستقبل البرَّاق الذي كان يلوح في شبابه وفي تقدمه التدريجي، وهو مستقبل مهدد اليوم بأن ينتهي فجأةً.

والتاريخ القديم لأجدادنا البعيدين قائم على التخمين إلى حد ما؛ فهو لا يتضمن شخصًا مثل «هيرودتس» يتحرق شوقًا لمدنا بالمعلومات. وما نعرفه من هذا التاريخ، إنما نعرفه من بقايا قليلة اكتُشفت بالمصادفة، وفُسِرت بالتخمينات، ومن ثم فإن ما يقال فيه موضع شك؛ بيد أنه أمر مرهق أن تؤكد هذا الشك في كل لحظة، ومن ثم سأسمح

لنفسي بقدر محدد من حرية الخيال في التخمين بما كانت عليه حياة أجدادنا الآدميين الأُول وأسلافهم الأقربين.

ويبدو أن الإنسان انحدر من القرود الشجرية[1]، وكانت هذه القرود تحيا حياةً سعيدةً في الغابات الاستوائية؛ تأكل الجوز عندما تجوع، ويلقيه بعضها على البعض عندما تشبع، وكانت دائمًا أبدًا مشغولةً بالحركات الرياضية، واكتسبت خفةً في الحركة تعتبر بالنسبة لنا غريبةً حقًّا، ولكن بعد مرور بضعة ملايين من السنين في هذه الجنة الشجرية زاد أعدادها إلى حد لم يعد معه القدر المتوفر من الجوز كافيًا.

فظهرت مشكلة السكَّان، وعُولجت بطريقتين مختلفتين: فالقرود التي كانت تعيش في وسط الغابة تعلمت قذف الجوز بمهارة تستطيع معها أن تقضي على خصومها، وخفف موتها ضغط السكَّان، ولكن القرود التي كانت تعيش على حافة الغابة وجدت أسلوبًا آخر: فقد امتدت أبصارها إلى الحقول واكتشفت أن بها فواكهَ لذيذة الطعم مختلفة الأنواع لا تقل في طيب طعمها عن الجوز، ومن ثم بدأت تنزل من الأشجار شيئًا فشيئًا وتقضي وقتًا أكثر فأكثر على الأرض، وكان لذلك مزايا وعيوب: والميزة الواضحة أنه فتح لها أقاليم شاسعةً لم تكن ميسرةً لها من قبل، والميزة الأخرى التي ثبت مع طول الوقت أنها أكثر أهمية، أن هذه القرود أصبحت حرةً في استعمال أيديها وأذرعتها بوصفها أدوات؛ حيث إنها لم تعد في حاجة إليها لتسلق الأشجار.

وسرعان ما اكتشفت أنها إذا عاشت على الأرض يسهل عليها أن تلتقط أحجارًا، وهي قذائف أشد فعاليةً من الجوز؛ بل إنها عرفت مع الوقت أن الأحجار ذات الحافة الحادة أفضل من الأحجار الأكثر استدارةً؛ وهكذا عندما حاولت جيوش لاحقة من القرود الشجرية أن تقلد أجدادها من الروَّاد قُوبلت بعاصفة من قذائف الأحجار الحادة لم يكن لديها ما ترد به عليها، وأحرزت القرود الأرضية انتصارات كبرى بسبب تفوقها في الذخيرة، وقد حدث كل هذا من حوالي عشرة ملايين سنة، ولكنني لا أدعي معرفة

(١) Arboreal Apes.

التاريخ بالضبط.

واستمرت القرود الأرضية توسع إقليمها بالتدريج حوالي تسعة ملايين من السنين أو ما يقرب من ذلك؛ فبينما كانت القرود الشجرية تطلب السلامة عن طريق التفوق في خفة الحركة، أحرزت القرود الأرضية أكثر الانتصارات بالذكاء؛ فقد اكتشفت مثلًا أنها تستطيع أن تفتح المحار بحجر، وكانت النتيجة الشهية هي أول جائزة للتفوق الأكاديمي. وخلال ما يقرب من تسعة ملايين سنة زادت المقدرة العقلية لدى بعض هذه القرود بالتدريج إلى حد يسمح اليوم لعلماء السلالات البشرية باعتبارها آدميةً أو ما يقرب من ذلك جدًّا.

وكان أول أسلافنا من الآدميين جنسًا نادرًا جدًّا؛ فقد كانوا يعيشون في ظروف قاسية، معرضين لتقلبات الجو الخطرة ولعداء الحيوانات المتوحشة ولجميع أخطار المجاعة التي يسببها القحط، ولم تكن لديهم أسلحة، ولعلهم لم يكونوا قد تعلموا استعمال النار بعد، وإذا كانت لديهم أي لغة، فلا بد أنها كانت تتكون من بضع صيحات على الأكثر، وكان سلاحهم الوحيد في صراعهم من أجل البقاء هو الذكاء، وكان الذكاء في أول الأمر أبعد ما يكون عن ذلك السلاح القوي الذي صاره بعد ذلك.

وتتكون الفائدة البيولوجية للذكاء إلى حد كبير من إمكان نقل التجربة؛ فالحيوان قد يتعلم من حيوان آخر ما يراه بعينه فعلًا وهو يفعله، ولكنه لا يستطيع أن يتعلم عن طريق الرواية، بيد أن الإنسان عندما يعرف اللغة، يستطيع أن يتعلم عن طريق الرواية، ومن ثم فإن ذكاء كل فرد يمكن أن يصير ملكًا للقبيلة كلها، ويستطيع كل جيل أن يسلم إلى الجيل التالي مجموعةً متعددةً من المهارات لا يمكن لأي نوع حيواني أن يتناقلها، وصحيح أن الحيوانات تعلم صغارها إلى حد ما، وقد راقبت مرةً ذكرًا وأنثى من النورس يعلمان صغيرهما كيف يقفز في الماء، وقد أبدى النورس الصغير نفس نوع التهيب الوجل الذي يُبديه الطفل الآدمي في مثل هذا الموقف؛ بيد أن ما تستطيع الحيوانات أن تتعلمه بهذه الطريقة لا يخرج عن الأمور البسيطة تمامًا، بينما يستطيع الآدميون؛ بفضل

الكلام أن ينقلوا أي شيء يعرفونه هم أنفسهم.

وهكذا عندما بلغ أسلافنا نقطةً معينةً من نمو الذكاء، صار الذكاء بالنسبة للجيل بعد الجيل عاملًا متزايد الأهمية في البقاء، وصحيح أنه ظل أبدًا طويلًا غير كاف للغرض منه، وانقرضت أجناس عديدة من الآدميين، والاعتقاد السائد أن من بين الهياكل الآدمية التي اكتشفها علماء السلالات البشرية في الحفريات ليس هناك سوى أقلية ضئيلة كانت من أجدادنا. والباقون كانوا من ذوي القربى المساكين الذين فشلوا، وانقرضوا بالتدريج بسبب سوء الحظ أو عدم كفاية قدرتهم على التكييف؛ بيد أنه خلال السنوات الخمسمائة ألف التي انقضت منذ ظهر أول إنسان، جعل الانتخاب الطبيعي يعمل، وزاد حجم المخ البشري شيئًا فشيئًا، ويبدو أن الطبيعة قررت منذ خمسمائة ألف عام (تبعًا لما يقوله بعض الثقاة) أن هذه العملية قد استمرت بما فيه الكفاية، ومنذ ذلك الوقت لم تزد ذكاءً.

وصحيح أننا نتعلم أكثر، ونذهب إلى المدرسة، ونذهب إلى المصنع، كما نذهب إلى المكاتب الحكومية ونتعلم الإحصاء، ولكن يبدو (إذا صح قول هؤلاء الثقاة) أنه لو كان أحسن الرجال منذ خمسمائة ألف عام أُرسلوا في طفولتهم إلى المدرسة في بلد حديث، لنجحوا نجاح الطفل الحديث؛ فإن ما كان ينقصهم هو المكتسب وليس الخلقي.

وكان في حياة أولئك الرجال الأول مزايا ونقائص إذا قورنت بحياة المتمدنين من الناس في عصرنا الحاضر؛ فلم يكن هناك اكتظاظ بالسكّان، وكانوا يستطيعون أن يهيموا على وجوههم شهورًا دون أن يخشوا مقابلة غريب، واضطرتهم ضرورات الطبيعة إلى القيام بمجهود جسماني كاف، ولذلك كان يندر أن تخرج حياتهم عن نظامها المعهود؛ وكانوا يعيشون قبائل صغيرةً كل منها حوالي مائة فرد حيث يعرف كل منهم كل فرد آخر، وحيث كانت تسود بصفة عامة، علاقات الصداقة داخل القبيلة، ولا شك في أنهم كانوا بين الفينة والفينة يجدون أنفسهم في صراع مع قبيلة أخرى، وكان المهزوم يُقضى عليه والمنتصر يضم إقليمه، وهو يشعر بأن المعركة كانت متعةً جميلةً، بيد أنه من المحتمل

أن مثل هذه المعارك كانت في أول الأمر نادرة لأن المخلوقات الآدمية كانت قليلةً.

وكان شغلهم الشاغل هو الحصول على الطعام، ويقدر البعض أن ما كان يحتاجه كل فرد في ذلك الوقت من أجل القيام بأوده لا يقل عن ميلين مربعين، وحتى مع وجود ميلين مربعين تحت تصرفه فإنه كثيرًا ما كان يجوع، وأحيانا يموت لعدم وجود الغذاء.

بيد أن الإنسان خرج بالتدريج من هذه الظروف الخطرة، وربما كانت الخطوة الأولى اختراع أسلحة بدائية جعلت في وسعه أن يقتل الحيوانات من أجل الطعام، وليس هناك من يعرف في أي مرحلة عرف الإنسان استخدام النار؛ فربما جاءت معرفته متأخرةً وربما مبكرةً، ولكن لا بد أنها كانت نعمةً كبرى عندما جاءت؛ فقد جعلت في مكنته أن يبعد عنه الحيوانات المتوحشة، وجعلت في وسعه أن يحصل على الدفء في المساء، وأخيرًا اكتشفت -ولعل ذلك بالمصادفة- أنه يمكن استخدامها في طهي الطعام.

وأصل اللغة كذلك تمام الغموض، ومما لا ريب فيه أنها بدأت تدريجيًّا، والحيوانات لديها بضع صيحات تستخدمها بوصفها إشارات، ولكني حتى أعلى مراتب القردة وجد أنها -رغم أنها من الناحية التشريحية يجب أن يكون في استطاعتها الكلام- لا تستطيع نطق كلمات حتى مع بذلك أكبر الجهود وتدريبها بواسطة خبراء؛ إذ من الواضح أن الذهب البشري المتفوق ضروري للقدرة على الكلام، ولا بد لنا من افتراض أن الإنسان عندما صار على قدر كاف من الذكاء جعل يزيد شيئًا فشيئًا من الصيحات للأغراض المختلفة، وكان يومًا عظيمًا عندما اكتشف أن الكلام يمكن استخدامه في الرواية، وهناك من يعتقدون أن لغة الصور كانت أسبق في هذا المجال من لغة الكلام؛ فقد كان الإنسان يستطيع أن يرسم صورةً على جدار كهفه ليبين في أى اتجاه سار أو نوع الفريسة التي خرج أملًا في صيدها، ومن المحتمل أن لغة الصور ولغة الكلام نمتا جنبًا إلى جنب، وأني بصفة عامة أميل إلى الاعتقاد بأن اللغة كانت أهم عامل فرد في نمو الإنسان.

وجاءت مرحلتان مهمتان قبل فجر التاريخ بوقت ليس طويلًا، الأولى: كانت استئناس الحيوانات، وكانت الثانية: الزراعة، وقد كانت الزراعة التي بدأت في وادي

النيل وأرض ما بين النهرين، خطوةً في التقدم البشري لم يحدث بعدها ما يقارن بها حتى عصر الآلة الحاضر؛ إذ جعلت الزراعة من الممكن زيادة أعداد النوع البشري زيادةً هائلةً في المناطق التي أمكن ممارستها فيها بنجاح.

ولكن هذه المناطق كانت قليلة في بادئ الأمر؛ فقد كانت هذه المناطق في الواقع هي فقط المناطق التي تخصب الطبيعة فيها الأرض بعد كل حصاد؛ وقُوبلت الزراعة بمقاوم عنيفة، تماثل مقاومة رجالنا من أمثال رسكين، وصموئيل بتلر للآلة؛ إذ اعتبر البدو الرعاة أنفسهم أسمى مرتبةً بكثير من الناس المسالمين الذين بقوا في مكان واحد واستعبدتهم الأرض، ولكن على الرغم من أن البدو أحرزوا انتصارات عسكريةً متكررةً؛ فإن الراحة المادية التي استمدتها الطبقات العليا من رقيق الزراعة كانت تسود في نهاية الأمر دائمًا، وزادت رقعة منطقة الزراعة بالتدريج، وما زالت هذه العملية مستمرةً لم تنته بعد حتى الآن؛ بيد أن ما بقي أمامها أن تحققه لم يعد من الأهمية بمكان كبير.

وكان التقدم الفني الوحيد الآخر، مما له أهمية أساسية هو الذي حدث قبل ظهور الإنسان في التاريخ المكتوب هو اختراع الكتابة، وقد نمت الكتابة مثلها في ذلك مثل لغة الكلام بالتدريج، وقد انبعثت من الصور، ولكن بمجرد أن بلغت مرحلةً معينةً جعلت في الإمكان الاحتفاظ بالسجلات ونقل المعلومات إلى ناس لم يكونوا حاضرين عندما ذكرت هذه المعلومات.

وقد جعلت هذه الاختراعات والاكتشافات المتعاقبة -النار والكلام والسلاح والحيوانات المستأنسة والزراعة والكتابة- قيام المجتمعات المتمدينة ممكنًا؛ فقد هيأت للإنسان الجهاز الأساسي كله الذي عاش عليه الرجل المتمدين أمدًا طويلًا جدًّا؛ فمنذ حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد حتى أقل من مائتي عام مضت لم يحدث أي تقدم فني يقارن بها، وكان لدى الإنسان الوقت الكافي طوال هذه الفترة ليألف هذا الوضع ولينمي المعتقدات والتنظيمات السياسية الملائمة له، وبطبيعة الحال كان هناك امتداد هائل لمناطق الحياة المتمدينة؛ إذ كانت في مبدأ الأمر مقتصرةً على النيل ودجلة

والفرات ونهر أندس، ولكن عند نهاية الفترة المشار إليها كانت قد عمت معظم أنحاء الأجزاء المسكونة من الكرة الأرضية، ولا أقصد أنه لم يحدث أي تقدم في خلال هذا الزمن الطويل؛ فقد حدث فيه تقدم - بل لقد تم فيه اختراعان من الأهمية بمكان عظيم هما البارود والبوصلة البحرية، ولكن لا يمكن مقارنة أي منهما في تأثيره الثوري بأشياء مثل الكلام والكتابة والزراعة.

وقرابة نهاية القرن الثامن عشر دخل الإنسان مرحلةً جديدةً تنطوي على تغيير جوهري مثل ذلك الذي انطوت عليه الزراعة؛ وأعني طبعًا الإنتاج الآلي وتطبيق العلم على الصناعة، ولنا أن نقول: إن العلوم الطبيعية وجدت كعنصر قوي في الحضارة منذ حوالي ثلاثمائة وخمسين عامًا، ووجد الإنتاج الآلي حوالي نصف هذا الزمن، وقد أثبت خلال المدة التي انقضت منذ اختراعه أنه قوة ثورية بعيدة الأثر بصورة مذهلة، وقد اقتصر أثره كله تقريبًا حتى الآن على علاقة الإنسان بالطبيعة،ولكنه بإحداثه ثورةً في علاقة الإنسان بالناس الآخرين وفي علاقته بنفسه، وما زال الأمر يتطلب حدوث الثورات التي يقتضيها اختراع الإنتاج الآلي في هذين المجالين، وهذه الحقيقة من الحاجة إلى الثورة في علاقة الإنسان بالناس الآخرين وبنفسه هي السبب في المشاكل الحالية في العالم.

فألوان النشاط البشري التي تُميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى تعتمد كلها على الإقلال من القيود التي تربطه بالطبيعة المادية؛ فعندما كان مضطرًّا إلى قضاء وقته كله في البحث عن الطعام لم يكن في استطاعته أن يكرس جزءًا كبيرًا من وقته في الحرب أو السياسة أو الدين أو العلم؛ إذ إن هذه الأشياء نتاج مصاحب لإنتاجية العمل؛ فهي تعتمد على زيادة إنتاج الإنسان عما يستهلكه في الطعام، وكلما صارت هذه الزيادة أكبر، أصبح في وسع الإنسان أن يكرس نفسه أكثر للسياسة والحرب والثقافة ومثل هذه الكماليات.

ويمكن استعمال الزيادة في إنتاجية الزراعة بطريقتين؛ فيمكن استخدامها في زيادة نصيب كل واحد، أو يمكن استخدامها في زيادة عدد الذين يشتركون في استهلاكها، وقد كرست الزيادة في إنتاجية العمل بصفة عامة، باستثناء الدول الغربية في السنوات

الأخيرة، لزيادة العدد؛ وإذ حكمنا على رغبات الإنسان من أفعاله؛ كما يذهب، السلوكيون، لكان الرأي الذي ينبغي أن ننتهي إليه هو أن أكثر ما يرغب فيه الإنسان هو زيادة عدد سكَّان العالم، وفي الأزمنة الأولى كما رأينا كان أكثر ما تستطيع الأرض إعالته هو شخص واحد لكل ميلين مربعين، هذا إذا كانت الأرض متوفرة الخصوبة الطبيعية، واليوم تعول إنجلترا مجموعة من السكَّان بنسبة (٧٥٠) نسمة لكل ميل مربع أي ألف وخمسمائة، مثل ما كانت تستطيعه قبل اختراع المهارات البشرية، ويعتمد هذا أساسًا بطبيعة الحال على الصناعة وليس على الزراعة.

بيد أننا إذا أخذنا الهند وباكستان اللتين تسودهما الزراعة إلى حد كبير نجد نسبة السكَّان (٢٧٤) للميل المربع، والغالبية الساحقة من سكان الهند وباكستان -كما نعرف- يعيشون في مستوى قريب جدًّا من أدنى حد للبقاء؛ أي أنهم اختاروا استعمال الأساليب الفنية في المدينة لشيء واحد تقريبًا هو زيادة عدد السكَّان، وعزفوا عن استعمالها في زيادة السعادة والثقافة، وعلى الرغم من أن هذا كان هو القاعدة العامة في جميع أنحاء العالم حتى عهد قريب جدًّا؛ فقد حدثت زيادة بسيطة في بعض أنواع التقدم الأخرى؛ فقد أمكن، قبل نمو الإنتاج الآلي، تخصيص نسبة معينة من السكَّان لأغراض أخرى غير إنتاج الطعام؛ فكانت هناك أرستقراطيات وكهنة، وكانت هناك أساطيل وجيوش، وكان هناك فلاسفة وفنانون، ولو أنهم كانوا أقل عددًا من أن يظهروا في جداول الإحصاء ففرعون، وبختنصر، وسقراط، وأفلاطون، وبوذا، ومحمد، وليوناردوا، وباخ، أمكن وجودهم جميعًا لسبب واحد هو أن منتجي الطعام استطاعوا إنتاج أكثر مما يأكلون.

بيد أننا عندما نفحص مجتمعًا مثل الولايات المتحدة في الوقت الحاضر نجد ظاهرةً جديدةً، هي أن الغالبية العظمى من السكَّان تتمتع بأشياء جد كثيرة أكثر وأسمى من مجرد ضروريات الحياة، ومع ذلك فهناك أجزاء كبيرة من السكَّان لا يقومون بأي إنتاج سواء كان زراعيًّا أو صناعيًّا؛ فهناك جميع الشبان الذين ما زالوا يتعلمون بعد أن صاروا قادرين من الناحية الجسمانية، وهناك القوات المسلحة، وهناك رجال الصحافة وكل

أولئك الذين يعملون في إنتاج مادة القراءة، وهناك معلمون ورجال دين وسياسيون وموظفون، وجميع هؤلاء يعتبرون من وجهة الرجل البدائي كماليات، ولكن المجتمع الحديث يكون مستحيلًا من دون بعضهم على الأقل.

وقد هيأ التحرر من قيود الطبيعة للناس، نظريًّا، فرصة اختيار أهدافهم إلى درجة كانت مستحيلةً تمامًا في الأزمان السابقة. وأقول، نظريًّا؛ لأن هناك نزعات اندمجت في الطبيعة البشرية بواسطة عصور طويلة من التدريب والانتخاب الطبيعي، وظلت باقيةً تحدد التصرف البشري بصرف النظر عن الحاجات المادية الحالية.

فإن ما تستطيع أمة ما أن توفره مما تبذله في زيادة عددها، لا تكرس سوى جزء منه لرفاهيتها؛ بل هي تكرس جهودها إلى حد كبير جدًّا لقتل الناس الآخرين، أو للاستعداد لقتلهم، أو لمكافأة أولئك الذين ساعدوها في قتلهم في الماضي؛ ففي الولايات المتحدة يذهب خمس مجموع الإنتاج إلى التسليح، ومن ثم فإن التحرر من قيود الطبيعة ليس كله نعمةً بأي حال من الأحوال؛ فهو مفيد في حددو ما تؤدي الحرية الناجمة عنه إلى زيادة ألوان النشاط التي تنفع الجنس البشري في مجموعه، ولكن بقدر ما يطلق نزعات القتال من عقالها منه مطلقًا؛ بل إنه يكون نقيض ذلك تمامًا، وهناك بعض الناس يتحدثون عما سنجنيه من وراء استخدام الطاقة الذرية في الصناعة، ومن وراء الاقتصاديات التي ستترتب عليها. بيد أن مثل هذه الاقتصاديات لن تؤدي؛ إذ ظل العالم على حاله سياسيًّا؛ إلا إلى الضرر، حيث إنها ستحرر جزءًا أكبر من الطاقة البشرية لاستخدامه في التدبير المتبادل، ويصور لنا هذا المثال الطريقة التي تجلب بواسطتها سيطرتنا الجديدة على الطبيعة مسئوليات وواجبات جديدة؛ فإذا ظهر أن الإنسان غير قادر على هذا التكيف؛ فإن حركة العلم وحركة الأساليب الفنية العلمية كلتيهما تكونان من سوء الطالع؛ ولعلهما ستقودان الإنسان إلى هوة لا مخرج منها.

وعندما كنا عبيدًا للطبيعة كان في استطاعتنا أن نعيش بعقلية العبيد، ونترك للطبيعة أن تتخذ قرارات يجب الآن أن نتخذها نحن، وهذا أمر عسير، حيث إن قسمًا كبيرًا من

الدين والأخلاق التقليديين منشأ وحيه من ارتباط الإنسان بالطبيعة، ومن العسير التغلب على طرق التفكير والشعور التي نكتسبها من حضارتنا ومن تربيتنا المبكرة حتى عندما تقتضي الظروف وجهة نظر أخرى، وأنا لا أدعي أن الإنسان قادر على كل شيء، بل إن الأمر على النقيض من ذلك، وسأخصص الفصل التالي لحدود أقل ضيقًا بكثير عند الرجل العلمي الحديث مما كانت لدى أجدادنا، وأنه ليس هناك منطلق محدد بدقة ترتد عنده هذه الحدود؛ فعدد لا يُحصى له من حقائق الطبيعة التي كانت فيما مضى حقائق مقفلةً صارت الآن فرصًا متاحةً؛ فالجهود تُبذل للتغلب على الصحراء، والأنهار في استراليا أمكن تحويل مجاريها التي كانت من الغرب إلى المشرق؛ فصارت تجري من الشرق إلى الغرب؛ وسيكون في وسعنا قريبًا هدم تلك الأجزاء التي تعترض سبيلنا من المناطق الجبلية، وأعتقد أن ثلج القطب سيذاب بواسطة النشاط الإشعاعي، ولن يمر وقت طويل حتى يكون في وسعنا السفر إلى القمر، ونحن نعرف الآن كيف نقضي على كثير من أنواع الأمراض، ولنا أن نأمل في القضاء على أنواع أخرى قبل مضي زمن طويل.

وقد لاحظ أجدادنا من الرُّحَّل، وهم يرعون قطعانهم مساءً، الكواكب في مجاريها التي لا تتحول، واعتقدوا أنهم هم أنفسهم خاضعون لتأثير أجرام سماوية، كانت الريح والعواصف والجفاف والحر والشهب والمذنبات والأوبئة تملأ نفوسهم رهبةً، وراودهم الأمل في الهرب منها بالضراعة، والرجل الحديث لا يصارع الأوبئة بالضراعة؛ فقد اكتشف أن صراعها يكون عن طريق المعرفة العلمية، والمعرفة العلمية في الواقع توفر الوسيلة (عندما تكون هناك وسيلة) لصراع أي عدو غير آدمي، ولكنها لا توفر الوسيلة لصراع العدو الآدمي الخارجي، أو ذلك الجزء من روح الفرد الذي يدفعه نحو الموت بدلًا من أن يأخذ بيده في طريق الحياة؛ فيمكن حل مشاكل صراع الإنسان مع الطبيعة (في حدود كونها قابلةً للحل) بواسطة العلوم الطبيعية؛ بيد أنها ليست المشاكل الوحيدة التي يواجهها الإنسان، ومشاكله الأخرى تتطلب بالضرورة الالتجاء إلى أساليب أخرى.

الفصل الرابع

حدود القدرة البشرية

لم يعد ذلك التذلل القديم من جانب الرعاة الذين أحسوا أنفسهم خاضعين لنفوذ الكواكب يناسب العالم العلمي؛ بيد أن هناك خطرًا من أن يحل محله ضرب من العجرفة تجاه الطبيعية قد يؤدي إلى كوارث كبرى؛ فالإنسان؛ مهما كان علميًّا، ليس قادرًا على كل شيء.

فهو محاط بالحدود الطبيعية، وهو يستطيع بواسطة معرفته وأساليبه الفنية أن يقلل من ضيق هذه الحدود، ولكنه لن يستطيع أن يمحوها تمامًا؛ ويحاول بعض الفلكيين أن يرفعوا روحنا المعنوية في لحظات الضيق بأن يؤكدوا لنا أن الشمس ستنفجر يومًا ما، وفي غمضة عين نتحول جميعًا إلى غاز، ولست أدري هل سيحدث ذلك حقيقةً؟ أو متى يحدث إن كان سيحدث؟ ولكني أعتقد أننا نستطيع أن نقول مطمئنين إنه إذا حدث فسيكون ذلك أمرًا خارجًا عن سيطرة البشر، حتى خير الفلكيين لن يستطيعوا منعه، وهذا مثال متطرف، والتفكير فيه عديم الجدوى لأنه ليست هناك طريقة يمكن بها تكييف السلوك البشرى بما يتفق معه.

بيد أنه أيًّا كان الأمر، فإنه يحقق فائدةً بذاتها؛ هي أنه يذكرنا بأننا لسنا آلهةً، وقد تقول في حنق «ولكني لم أفكر قط أننا كذلك»، ولا ريب يا سيدي القارئ العزيز؛ أنك واحدًا من أولئك الذين يعانون من الأوهام الأكثر تطرفًا في عصرنا الحاضر؛ لأنك لو كنت

منهم لما كنت واحدًا من قرائي؛ بيد أنك لو فكرت في «المكتب السياسي» في روسيا أو في سادة الأساليب الفنية الأمريكيين[1] لرأيت أن هناك من يتجنبون الإلحاد بأن يتصوروا أنفسهم، في غير تقوى، على عرش الله سبحانه وتعالى. وينسى هؤلاء الناس أننا وإن كنا نستطيع الاحتيال على الطبيعة المادية، ونحملها على الاستجابة لبعض رغباتنا فإننا لا نستطيع أن نمارس سيطرةً عليها، أو أن نجعلها تحيد عن طريقها قيد أنملة؛ ويبدو أن الحكومة الروسية تعتقد أن القرارات السوفيتية تستطيع تغيير قوانين الوراثة؛ كما أنه من الواضح أن الفاتيكان يعتقد أن القرارات الكنيسة تستطيع توفير الغذاء لنا جميعًا؛ حتى عندما ما لا يكون هناك موطئ لقدم على وجه البسيطة، ومثل هذه الآراء في نظري، تمثل صورةً من صور الشعور بالعظمة الذي يبلغ حد الجنون، ولا صلة لها عن قرب أو عن بُعد بالروح العلمية.

وهناك عنصران مختلفان تمام الاختلاف في العلم: المعرفة العلمية والأساليب الفنية العلمية، وأولئك الذين أطلق عليهم «سادة الأساليب الفنية»، لا يهمهم سوى الأساليب الفنية العلمية، وينكران المتطرفون منهم أن هناك أي معرفة علمية أو أي نوع آخر من المعرفة، والمستغلون بالنظريات العلمية، من الناحية الأخرى، يهتمون باكتشاف القوانين الطبيعية ويتركون للآخرين أمر اكتشاف الطرق التي يمكن بواسطتها الاستفادة بها من مثل هذه القوانين، وبالاختصار يريد المشتغلون بالأساليب الفنية أن يغيروا الطبيعة؛ بينما يريد المشتغلون بالنظريات أن يفهموها، ولم يعد في العالم الآن أحد تقريبًا يعتقد أن وجهة نظر المشتغل بالنظريات وحدها كافية، ولكن هناك الكثيرون ممن يعتقدون أن وجهة نظر المشتغل بالأساليب الفنية وحدها تكفي؛ وإذ أحسوا أحيانًا بأنهم تتسم بشيء من الجدب؛ فهم لا يلجأون إلى أي من ضروب ذلك الشك الذي يساور الباحث العلمي، ولكنهم يدعمونها بنوع من العجرفة غير العلمية، أي الاعتقاد بأننا نستطيع، دون الصبر ودون الخضوع اللذين تنطوي عليهما ملاحظة الطبيعة، أن

---

(1) Teehnocrats.

تصل بواسطة صورة من صور تأكيد الذات إلى أنواع من المعرفة لا يستطيع العلم أن يوصلنا إليها، وهذا أيضًا ضرب من جنون العظمة؛ فالإنسان ليس عاجزًا ولا هو قادر على كل شيء؛ بل لديه قدرات معينة وهي قدرات عظيمة بدرجة مذهلة، بيد أنها ليست لا نهائيةً، وليست عظيمةً بالدرجة التي يريدها.

ودعنا ننتهي من هذه العموميات؛ فليست العموميات هي ما يهمني؛ بل التطبيق العملي؛ كم من الوقت سيمضي قبل أن نكون قد استهلكنا كل ما نستطيع الحصول عليه مما في العالم من نفط؟ وهل تتحول جميع الأراضي الصالحة للزراعة إلى حفر من التراب كما حدث في أجزاء كبيرة من الولايات المتحدة؟ وهل يزيد عدد السكّان إلى حد لا يعود لدى الناس فيه مرةً أخرى -كما كان الحال مع أجدادها الأول- وقت فراغ للتفكير في أي شيء آخر غير الحصول على الطعام؟ ومثل هذه الأسئلة لا يبت فيها عن طريق التأمل الفلسفي العام. ويعتقد الشيوعيون أنه سيكون هناك نفط متوافر إذا لم يعد هناك رأسماليون، وبعض رجال الدين يعتقدون أنه سيكون هناك غذاء متوافر إذا وضعنا ثقتنا في العناية الإلهية، ومثل هذه الأفكار سطحية حتى عندما توصف بأنها علمية كما يفعل الشيوعيون.

وتعتمد الصناعة الحديثة على المواد الأولية التي توجد عند سطح الأرض أو قريبًا منه، وهذه المواد الأولية نتاج عصور جيولوجية ماضية، ولم يعد معظمها ينتج من جديد بواسطة أي عملية طبيعية؛ فقد تكونت العناصر منذ أمد بعيد بواسطة علمية بدأنا من وقت جد قريب في تفهمها، ومتى فهمت هذه العملية ستجعل في مكنة مجموعة من الرجال المهرة أن يضعوا حدًّا للجنس البشري؛ فالعملية التي تم بواسطتها تكوين العناصر تطلبت حرارةً هائلةً من نوع الحرارة التي تكمن في داخل الشمس؛ إذ إن الطبيعة استطاعت أن تصل؛ مبتدئةً بالأيدروجين، إلى عدد من العناصر بواسطة عدة مراحل، وكأنها تعمل داخل معمل طبيعي عظيم، وكان المفروض أن عدد العناصر اثنان وتسعون، ولكنه الآن غير محدود، وامتزجت العناصر، وقد صارت في درجات حرارة

أقل بكثير من تلك التي تكونت فيها؛ مكونةً مركباتٍ كيميائيةً جديدةً، وفي مرحلة معينة كانت الأرض في درجة حرارة مناسبة بصورة فريدة لتكوين مركبات كيميائية معقدة، وأخيرًا تكونت مركبات ذات خصائص تميزت بها المادة الحية، وتتسم المادة الحية بخاصية غريبة أطلقت عليها «الإمبريالية الكيميائية»، وبفضل هذه الخاصية تتحول كتلة من المادة الميتة إلى كتلة من المادة الحية، عندما توجد في البيئة الملائمة، وهذه الخاصية هي التي جعلت التطور العضوي في حيز الإمكان.

وهذه العملية التي درسناها عمليات تركيب؛ فهي تبدأ بالأبسط وتتقدم نحو الأكثر تعقيدًا، وعملية الصناعة الحديثة تفعل العكس تمامًا؛ فهي تستعمل مادةً أوليةً معقدةً وتبسطها، وفي معظم الأحوال لم تستطع الأساليب العلمية حتى الآن؛ قلب عملية التبسيط هذه وإعادة الشيء إلى أصله، وقد يحدث ذلك في المستقبل؛ فهناك الآن أمل فعلًا في تحويل ذرة الأيدروجين إلى ذرة هليوم، وهذه هي العملية التي ستمطر علينا، عندما تكتمل، بركان القنبلة الهيدروجينية[1]، بيد أن كل هذه العمليات تنطوي، في حدود ما يستطيع العلم السيطرة عليها، على فاقد يضيع هباءً؛ فإن ما يُبنى في جهة ما إنما يتم بناؤه بواسطة التحلل في جهة أخرى.

وإذا كنا نستطيع بواسطة استخدام حرارة هائلة أن نحيل قدرًا ضئيلًا من الأيدروجين إلى هليوم؛ فإننا نكون قد حولنا قدرًا أكبر بكثير جدًّا من المادة إلى حرارة مشعة لا يمكن استخدامها مرةً أخرى، وكثير من عمليات الطبيعة لا يمكن قلبها، وهذه العمليات جوهرية في أي صورة يمكن تصورها الآن من صور الصناعة العلمية، وقد كان الفحم يوجد، في عهد إدوارد الثالث، على سطح الأرض، كان الناس يلتقطونه ويستعملونه في منازلهم، وظهر أن الدخان شيء مزعج، فتقرر اعتبار حرق الفحم جريمة، ولستُ أعرف هل ألغي هذا القانون الذي يحرم الشرك بالله، وأيًّا كان الأمر فإن الحصول على الفحم الآن لم يعد سهلًا كما كان في القرن الرابع عشر، وهناك كل الأسباب التي

(١) ألقيت هذه المحاضرات قبل سنة (١٩٥١م)، ولم تكن القنبلة الأيدروجينية قد فجرت بعد «المترجم».

تدعو إلى افتراض أن الحصول على كمية بذاتها من الفحم سيتطلب زيادة كمية العمل البشري أكثر فأكثر؛ فمنذ عصور عديدة تحولت الطاقة التي توفرها حرارة الشمس إلى نباتات كثيفة، وظلت الطاقة حبيسة في طبقات من النباتات الاستوائية المتحجرة حتى جاء رجال الصناعة بلا شفقة فوضعوا أيديهم وحولوها مرةً أخرى إلى حرارة؛ بيد أن الحرارة، التي نولدها عندنا نحرق الفحم ليست محددة النطاق مثل حرارة الشمس؛ كما أنها ليست مما يتجدد باستمرار بواسطة علميات ذرية؛ بل هي تذهب في الجو وتصير عديمة الفائدة إلى الأبد؛ فليست هناك في الطبيعة أي عملية يمكن بواسطتها إعادة تكوين الحرارة بعد إشعاعها؛ أو الإفادة منها في أي غرض آدمي بعد الإشعاع؛ كما لا توجد مثل هذه العلمية في حدود ما تستطيع المهارة البشرية أن تتصوره.

جميع ما تعتمد عليه الصناعة من مصادر الطاقة تضيع عند استعمالها؛ وتستخدم الصناعة هذه المصادر بمعدل يتزايد باستمرار، وقد استبدل بالفحم فعلًا النفط إلى حد كبير، ويستهلك النفط الآن بسرعة جعلت كل من الشرق والغرب على السواء يتصور أن رخاءه يستلزم تدمير صناعة الآخر، وما يصدق على النفط يصدق أيضًا على مصادر الطبيعة الأخرى؛ فكل يوم تحول أميال مربعة عديدة من الغابات إلى جرائد، وليس هناك وسيلة معروفة تحول بها الجرائد إلى غابات، وستقول إنه لا داعي للقلق لأن الراديو سرعان ما سيحل محل الصحف، ولكن الراديو يحتاج إلى كهرباء، والكهرباء تحتاج إلى قوة، وتعمد القوة على المواد الخام.

والواقع أن الصناعة الحديثة نوع من الاغتصاب؛ فكل العصور الجيولوجية والفلكية التي تكونت خلالها المواد التي نجدها نافعةً تتحول إلى لمحة من الضوء اللامع ولحظة من فيض غزير مسرف،، ولكن ماذا سيكون مآل الرجل الصناعي بعد أن تخلص ألعابه النارية؟

ولا يظهر كل هذا في المجال العملي بطبيعة الحال بصورة المأساة والكارثة التي أصورها؛ فما نعرفه هو أن ثمن الفحم يرتفع، ولكننا لا نربط بسهولة بين هذه الحقيقة

والقانون الثاني من قوانين القوة الحرارية، وإذا بحثت عن هذا القانون في كتاب من كتب المناهج، ستجد أنه قد ذكر أن عامل الحد Entropy يزداد باستمرار، وإذا لم تكن من المشتغلين بالعلوم الطبيعية فلن تفهم من ذلك شيئًا.

بيد أنه من الممكن ذكر هذا القانون بصورة أبسط، وهو مذكور بصورة أبسط في حكمة مثالية؛ إنك لن تستطيع إعادة البيض المقلي الذي اختلط صفاره ببياضه إلى أصله بعد أن تقليه، وهو قانون ينصب على جميع العمليات التي لا يمكن قلبها في الطبيعة؛ فهناك بعض العمليات مما يمكن قلبه؛ فإنك إذا سافرت من لندن إلى أدنبرة تستطيع أيضًا العودة من أدنبرة إلى لندن، ولكن إذا استعمل الفحم في تسيير قطارك فليس هناك وسيلة يمكن جمع الحرارة بواسطتها وإعادتها فحمًا؛ وإذا خلطت مجموعةً من ورق اللعب فإنك تستطيع، بشيء من العناية، أن تعيدها إلى ترتيبها الأصلي مرةً أخرى، ولكنك إذا ألقيت قطرةً من الحبر في ماء فسينتشر الحبر بالتدريج في الماء، وليست هناك طريقة لجمعه مرةً أخرى في قطرة، وكل الصناعة تعتمد على مثل هذه العلميات التي لا يمكن قلبها، فكلها يستهلك رأسمال الأرض؛ إن الصناعة الحديثة في الواقع مثل شخص متلاف، ولا بد إن عاجلًا أو آجلًا أن تلقى عقوبة الإسراف.

وأنا أعرف أن جميع الناس يقابلون مثل هذه الاعتبارات بتفاؤل سهل، فهم يقولون: «لا شك أن رجال العلم سيبتكرون اختراعًا ما. وحتى إذا لم يجدوا شيئًا؛ فلن يحدث شيء مما يقولون إبان حياتي، فهم يشعرون مثل الإيرلندي الذي يضرب به المثل إذ قال: لماذا يجب عليَّ أن أفعل شيئًا من أجل الأجيال المقبلة، إنها لم تفعل شيئًا من أجلي؛ بيد أن ما يشغلني في هذا الكتاب هو الإنسان بوصفه مخلوقًا واحدًا ذا تاريخ حياة واحد، ولا أستطيع الرضا بلحظة قصيرة من الحياة اللاهية يعقبها إملاق وبؤس، ومهما بلغ العلماء من المهارة؛ فهناك أشياء لا يمكن أن يتوقع منهم تحقيقها؛ فبعد استهلاك مصادر الطاقة التي في متناول أيدينا بسهولة والتي بعثرتها الطبيعة في غير اهتمام فوق سطح كوكبنا سنضطر إلى الالتجاء إلى عمليات تطلب جهودًا أكثر: وستؤدي هذه

العمليات إلى تخفيض تدريجي في مستوى الصناعة؛ فرجال الصناعة الحديثون مثل أشخاص وقعوا لأول مرة على أرض خصبة بكر، ويستطيعون العيش فترة محدودة في راحة عظيم بأقل مجهود، وليس من الأمور المعقولة أن يتصور المرء أن الازدهار الحالي للصناعة لن ينمو إلى ما فوق مستواه الحالي بكثير، ولكن قدرتها على إشباع الحاجات البشرية ستقل، إن آجلًا أو عاجلًا، بسبب استنفاد المادة الأولية، وسيتم ذلك تدريجيًّا وليس فجأةً، ويمكن، بطبيعة الحال، الحيلولة دون ذلك إذا مارس الناس ضبط النفس أوبعد النظر؛ فيما يتعلق باستغلالهم الحالي المحموم لهذه المصادر، وقد يتعلمون ذلك قبل أن يفوت الأوان؛ بيد أن هذا الموضوع يتعلق بالسياسة، ولست أريد بحث الجانب السياسي لمشكلتنا الآن.

وقد كنت أتناول حتى الآن المواد الأولية في الصناعة، ولكن الأمر فيما يتعلق بالتربة، وهي المادة الأولية للغذاء، يعد أكثر خطورة بكثير، فمنذ بدأت الزراعة كانت تتم بصورة فيها الكثير من التبذير في معظم أنحاء العالم، وحيثما تسود الأساليب البدائية تمامًا، يكتفي الزراع بالانتقال من قطعة الأرض التي يكونون قد استنفدوا خصب تربتها، ويتطلب هذا بطبيعة الحال قدرًا كبيرًا من الأرض الممكن الحصول عليها، وحتى إذا توفر هذا القدر؛ فإن ذلك لن يكون حلًّا دائمًا إلا إذا كان ما أصاب التربة من ضرر بواسطة الزراعة مؤقتًا وليس دائمًا.

وليس مما يدعو إلى العجب أن الناس عبدوا آلهة الخصوبة؛ أو أنه تكوَّن لديهم اعتقاد في القدرة السحرية للقربان البشرى؛ بيد أن هذه المشكلة لم تكن في الأزمان الماضية، عندما كان سكان العالم قليلين، من الأهمية بالمكان الخطير الذي تحتله في وقتنا الحاضر، وقد عُولجت هذه المشكلة بصورة كاملة تمامًا كتابين: «كوكبنا الذي نُهب» تأليف: فيرفيلد أو سبورن، و«السبيل إلي البقاء» تأليف: وليم فوت، وإني لأود أن أرى أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بالتفاؤل السهل، وخاصةً أولئك الذين يعتقدون أن المشروع الخاص، ودافع الربح سيحلان كل المشكلات، يدرسون هذين الكتابين

بعناية، فسيعرفون من هذين المؤلفين حقائق مؤسسيةً كثيرةً عن سفوح تلال «كافث» فيما مضى خصبة وتحولت الآن إلى صخور مجدبة، وعن أودية كانت تُروى وأصبحت الآن صحاري، وعن مدنيات كانت مزدهرةً دُفنت تحت الرمال، وسيعرفون أن العملية التي اجتاحت غرب آسيا وشمال أفريقيا فدمرتهما منذ قرون طويلة، تعمل الآن بكل قوتها في أجزاء كثيرة من نصف الكرة الغربي بما فيه الولايات المتحدة، وسيعرفون أن الطلب الشديد على الطعام، الناجم عن زيادة السكّان ونمو الصناعة قد صارت الاستجابة إليه تزداد صعوبةً سنةً بعد سنة، ونحن جميعًا نعلم أن سعر الطعام يرتفع؛ بيد أن معظمنا يعزو ذلك إلى سوء نية الحكومة؛ فنحن إذا عشانا في ظل حكم تقدمي رجعنا رجعيين، وإذا عشنا في ظل حكم رجعي تحولنا إلى الاشتراكيين، وكل من ردي الفعل هذين سطحي وتافه؛ فجميع الحكومات مهما فعلت، وأيًّا كان لونها السياسي في الوقت الحاضر في قبضة قوي طبيعية لا سبيل إلى مواجهتها إلا بقدر معين من الذكاء، لم يَبْدُ حتى الآن أن الجنس البشري يملكه.

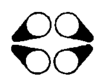
وقد تناولت في هذا الفصل حتى الآن موضوع ما يمكن أن نتوقعه على أساس معرفتنا العلمية الحالية؛ بيد أنه لا بد من الاعتراف بأن هناك إمكانيات مواتيةً قد تغير الوضع كله، على الأقل مؤقتًا؛ فهناك أولئك الذين يقولون لنا إن استخدام التربة في تنمية النباتات قد صار أسلوبًا باليًا، وإنه يمكن تنميتها بالدرجة نفسها من دون حاجة إلى تربة، وذلك بواسطة توفير المواد الكيميائية الملائمة بالنسب الملائمة، وإني ليراودني الشك في أن طعمها يكون طيبًا إذا أنتجت بهذه العملية، ولكني أعتقد أنه سيظل في الإمكان إنتاج كميات صغيرة من الطعام بالأساليب القديمة لمصلحة ملوك الصناعة وأعضاء المكتب السياسي، أما فيما يتعلق ببقية السكّان فسيكون عليهم أن يتعلموا أني صيروا عليمين في أذواقهم، وأن يكتفوا بما يقرر الخبراء أنه صالح لهم من وحدات حرارية (Calories) وفيتامينات.

وإذا تركنا موضع الطعام جانبًا؛ فهناك موضوع الطاقة، ويبدو من الواضح أنه، إذا

كان الأمر مجزيًا من الناحية المالية، يمكن اكتشاف أساليب اقتصادية إلى حد لا بأس به؛ يمكن بواسطتها استخدام الطاقة المستمدة من الشمس أكثر مما يحدث الآن؛ كما أنه من الناحية النظرية، لا يوجد حد حسابي لما يمكن استخلاصه من الطاقة النووية؛ فعندما يكتشف الناس كيف يحولون الأيدروجين إلى هليوم سيكون ماء البحر هو مادتهم الأولية، وسيمضي وقت طويل قبل أن يُستنفد هذا المصدر.

وإذا انتقلنا إلى الإمكانية الأكثر عمومية؛ فسنجد أن الإنسان وُجد منذ حوالي مليون سنة على أكثر تقدير، وبالنظر إلى ما حققته هذه الأساليب حتى الآن، يكون من الشطط في التهور أن نضع أي حدود لما يمكن أن تحققه في المستقبل؛ بيد أن المعرفة العلمية مثل جرعة مسكرة، وقد تكون جرعةً لا قِبَلَ للإنسان بها؛ فقد ينتهي الأمر بأن أولئك الذين يتتبعون أسرار الذرة سيلقون، مثل الرجال الذين بنوا برج بابل ليصلوا إلى السماء؛ عقاب كفرهم بأن يخلقوا عرضًا الوسيلة التي ستقضي على النوع البشري؛ بل ربما على كل حياة في هذا الكوكب. وقد لا تكون مثل هذه النهاية مما يدعو إلى الأسف الشديد من بعض أوجه النظر؛ بيد أن هذه لا يمكن أن تكون وجهة نظرنا فيما أعتقد.

ولعل هناك في مكان آخر، في سديم بعيد، يوجد نجم غير ذي أهمية يدور في فلكه كوكب عديم الأهمية به مخلوقات مفكرة، وربما بعد مليون سنة أخرى تنبئهم آلاتهم عن مصيرنا، ومن ثم تدفعهم إلى الاتفاق حول جدول أعمال لمؤتمر لوزراء الخارجية؛ فإذا حدث هذا؛ فلن تكون حياة الإنسان قد ذهبت هباءً.



الفصل الخامس

السكّان

يمكننا أن ننظر إلى حياة الإنسان من أوجه نظر عدة؛ فهناك من يفكرون فيه أولًا على أساس ثقافي بوصفه قادرًا على إنتاج الفن الرفيع وتقديره، وعى التأمل السامي واكتشاف أسرار الطبيعة الخفية. وهناك من يفكرون فيه بوصفه أحد أنواع الحيوانات التي لديها قدرة على تنظيم الحكم، وإن كان النمل والنحل قد بزّاه تمامًا في هذا المجال.

وهناك من يفكرون فيه بوصفه سيد الحروب، ومن أولئك الرجال الذين بيدهم أمر تجميل الساحات العامة في جميع البلاد؛ حيث تقوم قاعدة لاخلاف فيها، تطيعها جميع السلطات العامة التي تحسن التفكير؛ هي أن أجمل منظر يشاهده المارة هو تمثال لرجل على حصان تخلد ذكراه؛ لمهارته في القتل. ولكن إلى جانب كل وجهات النظر هذه في الإنسان؛ التي نشيد فيها بأمور يتميز فيها الإنسان عن كثير من الحيوانات الأخرى؛ يمكن النظر إليه أيضًا بوصفه نوعًا من أنواع الحيوانات يهتم، مثل الأنواع الأخرى، بالتنافس أو التعاون مع الأنواع الأخرى ومع الأعضاء الآخرين من نوعه، ونحن عندما نفكر في نوع ما على أساس بيولوجي، نفكر فيه كما لو كانت لديه رغبة في زيادة عدده إلى أقصى حد، ولست أعني أننا نعزو إليه حقيقة هذه الرغبة؛ فليس هناك من يفترض أن «المحار» مثلًا، يعلق أهمية على مضاعفة عدد نوعه؛ بيد أنه على الرغم من عدم وجود نوع من الحيوانات لديه هذه الرغبة؛ فإن معظم أنواع الحيوانات تعمل كما لو كانت

لديها هذه الرغبة، وينطبق هذا أيضًا على معظم المخلوقات الآدمية في معظم الأوقات؛ فمعظم الآدميين في معظم الأوقات تصرفوا كما لو كانوا يعتقدون أن أهم ما يمكنهم أن يحققوه هو أن يتركوا وراءهم ذريةً غفيرةً.

وقد أشار «مالتس» كما يعرف كل إنسان، إلى أن السعي الجاد في تحقيق هذا الهدف يغلب أن تكون له نتائج معينة غير سارة، وتعتمد النتائج غير السارة التي تنبأ بها على قانون الغلة المتناقصة أنه بعد بذل قدر معين من المجهود ورأس المال في قطعة أرض بذاتها، لا تنتج الزيادة في المجهود ورأس المال المبذولين فيها غلةً تتناسب مع هذه الزيادة، ويعني هذا أنه إذا فرض أنك تحصل من فدان على عدد معين من كيلات الحب بواسطة قدر معين من العمل ورأس المال؛ فإنك إذا ضاعفت مقدار العمل ورأس المال المستغلين في هذا الفدان لن تحصل على ضعف عدد كيلات الحب الذي حصلت عليه من قبل.

ويتبع ذلك أنك إذا كنت تملك قطعةً من الأرض لا تكفل إلا ما يكفي إعالتك أنت وزوجتك براحة، فإنك لا تملك ما يكفي إعالتك أنت وزوجتك وعشرة أولاد قادرين براحة.

ويتبع ذلك بدوره (ما زلت أناقش الموضوع في صورة مجردة بحتة؛ متجاهلًا كل الحدود الضرورية) إن أي زيادة في السكّان في منطقة بذاتها بعد حد معين تترتب عليها زيادة في الفقر، وتبلغ في النهاية حدًّا أقصى لا يمكن بعده أي زيادة؛ لأن كل زيادة تسبب الموت جوعًا، وقد طبق «مالتس»، وهو ينعم بخيرات منصبه الديني، هذا المذهب على الفقراء العالمين، وبذلك أعفى نفسه من أي ضرورة لمحاول التخفيف من آلامهم التي أثبت؛ بما فيه رضاؤه، أنها حسابيًا لا يمكن تجنبها، وقد وسع «داروين»، كما يعرف كل إنسان أيضًا، نطاق مذهب «مالتس» بحيث يشمل مملكتي الحيوان والنبات بأكملهما، وبذلك أضفى على اقتصاديات «مدرسة مانشستر» أهميةً كونيةً، وقد صارت اقتصاديات «مدرسة مانشستر» الآن عتيقةً، وذلك يجعل الناس يفترضون أن آراء «مالتس» لا بد

خاطئة، ولا شك في أنها كانت جزئيًا خطأ؛ بيد أني أعتقد أنه يجب أن نعترف أيضًا بأنها كانت جزئيًّا صحيحةً، ومن الأهمية بمكان أن نفرق بين الأجزاء الخطأ والصواب في تعاليم «مالتس».

ولنبدأ بقانون الغلة المتناقصة: إنه يكون صحيحًا؛ فيما يتعلق بالزراعة، عند نقطة معينة؛ فإنك إذا تركت إنسانًا مفردًا يعمل في قطعة من الأرض البكر لا يمكنه أن ينتج المقدار الذي يستطيع إنتاجه لو أن لديه من يساعده، ويتوقف عدد المساعدين الذين يحتاجهم حتى يبلغ الحد الأقصى للإنتاج على الأسلوب الفني؛ فالرجل البدائي الذي يعيش على مجرد جمع الطعام قد لا يجني شيئًا بالتعاون، أو يكون ما يجنيه تافهًا جدًّا؛ بينما يحتاج الزراع الحديث، الذي تم تصنيع حقله، إلى العديد من المساعدين حتى يبلغ الحد الأقصى من الكفاية الفنية، وهو يحتاج إلى آلات كثيرة الكلفة لا تدر ربحًا إلا إذا استعملت في مساحات كبير، وبمساعدة عدد من الرجال، وهو في حاجة إلى سكك حديدية لنقل منتجاته، ويحتاج إلى تليفون؛ كما يحتاج إلى مخصبات قد يتطلب الأمر نقلها من أماكن بعيدة، وقد يحتاج أيضًا إلى سوق أجنبية.

ونتيجة ذلك كله أن الأمر يتطلب عددًا كبيرًا جدًّا من السكَّان لبلوغ أقصى حد من الإنتاج بالنسبة للفرد، ويخضع الإنتاج، إلى أن يبلغ هذا الحد لقانون الغلة المتزايدة، وتُعتبر العائلة الكبيرة في «العهد القديم» نعمةً، وقد كانت كذلك في الظروف التي عاش فيها البطاركة الأُول، وكان رأي «المورمون»، الذين عاشوا في ظروف مشابهة؛ مماثلًا لهذا الرأي فيما يتعلق بزيادة السكَّان؛ بيد أن أنه يوجد...... وضع بذاته للتقدم الفني حد أفضل (Optimum) في الزراعة لاستخدام العمل ورأس المال في قطعة معينة من الأرض، وينتج هذا الحد الأفضل أكبر قدر من الغلة مقابل العمل ورأس المال؛ وإذا زاد مقدار العمل أو رأس المال أو قل تكون الغلة الناتجة أقل بالنسبة لكل وحدة.

ويتبع ذلك أن زيادة السكَّان في ظل أي وضع بذاته للتقدم الفني؛ وتؤدي إلى انخفاض في مستوى المعيشة إذا تجاوزت حدًّا معينًا، ويتوقف على ما إذا كان هذا الانخفاض

سيعم الجميع، أم يقتصر على العمَّال وعائلاتهم فقط، على النظام الاجتماعي؛ بيد أنه أمر حتمي أن زيادة السكَّان إذا تجاوزت حدًّا معينًا، سيعم انخفاض مستوى المعيشة عند الغالبية العظمى من السكَّان.

ويتبع ذلك شيئان؛ الأول: أن زيادة السكَّان في منطقة قليلة السكَّان قد تؤدي في ظل أي وضع بذاته، من التقدم الفني، إلى زيادة الرخاء. والثاني: أن نمو الأساليب الفينة العلمية، يعمل على زيادة الحد الأفضل لكثافة السكَّان، وأوضح مثال على ذلك هو الولايات المتحدة، وليس من الواضح بأي حال من الأحوال أن مقدار الثروة بالنسبة لكل فرد من السكَّان سيكون أكبر إذا قل السكَّان، ولكن ذلك يتوقف على وجود أساليب فنية محكمة للغاية.

وما كان في الإمكان زيادة عدد السكَّان من الهنود الحمر، قبل استيطان البيض، زيادة كبيرة دون أن يودي ذلك إلى تدمير المصادر التي كان هؤلاء السكَّان يعتمدون عليها، ومن ثم يجلب فقرًا ينتهي بكوارث.

بيد أنه وإن كان من الممكن دفع حد «مالتس» إلى الوراء باستمرار، بتحسين الأساليب الفنية؛ فإن هناك دائمًا حدود لا يمكن تجاوزها في دفعه، ولنأخذ فرضًا مُغالًى فيه، من الواضح أنه يكون مستحيلًا على الجنس البشري الحصول على قدر كاف من الطعام، إذا زاد عدد الناس؛ بحيث أصبح ما يخص كل فرد من البشر لا يتجاوز القدر الذي يسمح له بالوقوف.

ودون الالتجاء إلى تصور مثل هذا الفرض المغالى فيه؛ هناك احتمال كبير في أي مجتمع بذاته، وفي أي وقت من أن يتجاوز معدل الزيادة في السكَّان معدل التحسين في الأساليب الفنية، ومن ثم ينجم عن ذلك انخفاض عام في مستوى المعيشة.

وهذا هو ما يحدث في الواقع حاليًا في إنحاء مناطق كبيرة من العالم.

فيبدو مثلًا؛ أنه ليس هناك شك كبير، في أن سكَّان وادي الأندلس كانوا أكثر رخاءً،

وبصفة عامة أسعد؛ منذ ثلاثة آلاف عام منهم في الوقت الحاضر.

وقد حدث في الهند بصفة عامة زيادة في الفقر بين الفلاحين في الأوقات الأخيرة، وما ينطبق على الهند، ينطبق أيضًا على جنوب شرقي آسيا بصفة عامة، وعلى معظم أجزاء أفريقيا، وفي الأجزاء الاستوائية هبوطًا في معدل الوفيات، ولكن ليس في معدل المواليد، وهكذا أسهم الدواء الحديث في الشقاء البشري.

وكان الرجل الأول لا يستطيع العيش إلا في الأجواء الدافئة، وكان كل فرد يحتاج كما أشرت من قبل إلى حوالي ميلين مربعين لتمده بالطعام، بيد أن محاولاته للتقدم في حل مشكلة الحصول على طعام تميزت بمراحل مختلفة؛ فقد جاءت أولًا الأسلحة البسيطة التي مكنته من الصيد، ثم جاء استئناس الحيوانات النافعة، ثم جاءت الزراعة، وأخيرًا (حتى الآن) جاءت الثورة الصناعية.

والمفروض أن الزراعة بدأت حوالي (٨٠٠٠) سنة قبل الميلاد، ويقدر «جوليان هكسلي»[١] أن سكان الكرة الأرضية من البشر كان عددهم حوالي عشرة ملايين.

ويضيف التقديرات التالية:

٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد................................ ٢٠ مليون نسمة.

٤٠٠ ميلادية................................ ٢٠٠ مليون نسمة.

١٦٥٠ ميلادية .... ٥٤٠ مليون نسمة.

١٩٥٠ ميلادية .... ٢٢٠٠ مليون نسمة.

والمعدل الحالي في زيادة السكَّان (الذي استمر بانتظام طوال فترتي الحربين العالميتين) هو حوالي ١,١٦ في المائة سنويًّا؛ فكل يوم يزداد عدد سكان العالم ٧٠,٠٠٠ نسمة عن اليوم السابق عليه؛ وكل عام يزيد عددهم ٢٥ مليون نسمة، وبالمعدل الحالي سيكون في العالم بعد مائة عام ٥,٤٠٠ مليون نسمة، وبعد مائتي

(١) «السكَّان ومصير الإنسان»، «وورلد ريفيو»، يناير سنة ١٩٥٠م، والتقديرات التالية مستمدة من هذه المقالة.

عام سيكون هناك ١٤,٥٠٠ مليون نسمة، وبعد ثلاثمائة عام سيكون هناك ٤٥,٠٠٠ مليون نسمة.

وهناك طريقتان في إيقاف زيادة عدد السكَّان: إحداهما: بزيادة معدل الوفيات، والأخرى يخفض معدل المواليد، ويقول لنا الأخلاقيون من الطراز القديم إن الطريقة الأولى فاضلة، والثانية: شريرة؛ فصحيح أن الأولى تنطوي على معاناة شديدة واسعة النطاق؛ بينما الثانية: لا تنطوي على معاناة مطلقًا؛ ولكن أيهمُّ ذلك؟ ينبغي علينا أن نفكر في العالم الآخر لا في هذا العالم؛ إن أولئك الذين يؤمنون بأن الخالق الكريم يصر على أن يتعرض الناس إما للشقاء في هذه الحياة أو للعذاب الأبدي في الآخرة، أحرار فيما يذهبون إليه؛ ولكني لا أرى أن معتقدهم ممَّا ينبغي أن يوجه السياسة العملية، وقد كان «مالتس» يعتقد أنه ليس هناك مما ينبغي أن يوجه السياسة العملية، وقد كان «مالتس» يعتقد أنه ليس هناك سوى ثلاثة ضوابط لنمو السكَّان: الوازع الأخلاقي، والرذيلة، والشقاء.

وكان أمله في الوازع الأخلاقي ضعيفًا؛ وبوصفه رجل دين كان يندد بالرذيلة؛ ومن ثم دعا إلى الشقاء - للطبقات الدنيا وحدها طبعًا - وأملي أن يكون العالم قد تجاوز هذه النظرة في تقدمه خلال المائة والخمسين عامًا التي انقضت منذ كتب «مالتس».

إذا آمل أن يكون أولئك الذين يسيطرون على سياسة العالم مستعدين للتسليم بأن ما تتطلبه وقاية الجنس البشري من الشقاء ليس من الضروري أن نُطلق عليه «رذيلة».

وما دمنا بصدد التفكير في الجنس البشري في مجموعه بوصفه نوعًا بيولوجيًّا يعمل على تكييف نفسه لبيئته؛ فإن ما ينبغي عمله لمواجهة مشكلة السكَّان واضح.

يجب أن يتلقى الناس في كل مكان إرشادات فيما يتعلق بضبط النسل مع عقوبات توقع على من ينجبون أطفالًا أكثر مما ينبغي، وبهذه الوسيلة تستطيع الحكومات، إذا شاءت، أن توقف زيادة السكَّان، في مدى جيل واحد بسهولة.

ولكن الجنس البشري لسوء الحظ، مقسم إلى أمم، والمصالح الظاهرة لكل أمة على حدة، ليست بأي حال من الأحوال مما يتفق دائمًا مع مصالح الجنس البشري، ومن ثم يجب علينا الآن أن نفكر في مشكلة السكّان، لا في العالم كوحدة، ولكن في مختلف المناطق والأمم العديدة، على ألا ننسى صلتها الخبيثة بسياسة القوة.

ينقسم العالم في الوقت الحاضر من ناحية إحصائيات السكّان إلى مجموعتين على طرفي نقيض تقريبًا؛ فهناك أمم ينخفض فيها معدل المواليد والوفيات على السواء، وأخرى يرتفع فيها المعدلان، وتلك التي ينخفض فيها المعدلان هي أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية والسكّان البيض في الممتلكات البريطانية، وتلك التي يرتفع فيها المعدلان هي الاتحاد السوفيتي وآسيا وأفريقيا، «باستثناء البيض»، وأمريكا الوسطى والجنوبية.

وقد ارتفع عدد سكّان أوروبا وأمريكا الشمالية فيما بين سنتي ١٧٥٠ و١٩٠٠م من ١٤١ مليون إلى ٤٨٢ مليون نسمة، وهذه الزيادة قد توقفت الآن تقريبًا، والمحتمل أنها ستتوقف تمامًا في القريب العاجل، فيما عدا شرق أوروبا، والواقع أنه من المتوقع أن يصبح عدد السكّان البيض في العالم؛ باستثناء الاتحاد السوفيتي وتوابعه ثابتًا تقريبًا.

ونجد في أماكن أخرى من العالم حالةً مختلفةً تمامًا؛ فليس هناك ما يشير إلى انخفاض في معدل المواليد، ولكن كان هناك هبوط سريع في معدل الوفيات حينما سيطر الرجال البيض، ومن ثم فإن السكّان خارج ما أُسميه المنطقة الغربية يزيدون بنفس السرعة التي زاد بها سكان إنجلترا في القرن التاسع عشر.

وسأبدأ بمجموعة جديرة تمامًا بالملاحظة، من الأرقام عن اليابان نشرتها «التايمز» اللندني في ٨ مارس سنة ١٩٥٠م، وسيوضح ذلك تأثير الإدارة الأمريكية.

إن عدد سكان اليابان تضاعف في السنوات السابقة على سنة ١٩٤٥م، وقد زاد عدد السكّان خلال الحرب العالمية الثانية، رغم القنابل الذرية وضرب المدن الكبرى بالقنابل الحارقة، حوالي خمسة ملايين نسمة، وفي السنوات الثلاثة من سنة ١٩٤٦م

إلى ١٩٤٩م، زاد حوالي ستة ملايين نسمة، وكان معدل الوفيات في سنة ١٩٤٦م هو ١٨ ,١٥ في المائة، وفي سنة ١٩٤٨م، كان ٩٦ ,١١ في المائة- ويعد هذا الهبوط السريع خارقًا في فترة قصيرة لا تتجاوز السنتين، ويمكن الإشارة إلى أسباب هذا الهبوط بواسطة حقيقية واحدة؛ كان عدد حالات الجدري في سنة ١٩٤٦م، ٨٠٠ ,١٧ حالة وفي سنة ١٩٤٨م كان ٢٩ حالة.

وعدد سكَّان اليابان الآن ٨٢ مليونًا، وزيادة عدد المواليد علي عدد الوفيات تبلغ ٠٠٠ ,٦٠٠ ,١ نسمة في السنة.

ومساحة اليابان ليست كبيرةً، وكل زيادة في السكَّان في الظروف الحاضرة تعني زيادة في الفقر، ويسبب هذا الموقف قلقًا عميقًا لكل من السلطات الأمريكية واليابانية.

وكان سكان الهند بما فيها باكستان يتزايدون بسرعة كبيرة بمعدل مرتفع في المواليد والوفيات؛ بيد أن معدل الوفيات انخفض بسرعة أكثر من معدل المواليد، والزيادة في عدد سكان الهند في عشر سنوات أكثر من مجموع سكّان بريطانيا كلها، وعدد السكَّان هناك حوالي ٤٠٠ مليون نسمة، وقد ظل يزيد بمعدل ١٥ في المائة كل عشر سنوات، وهبط معدل الوفيات من ٩ ,٣٥ في المائة في سنة ١٩٢٢م، إلى ٢ ,٢٣ في المائة في سنة ١٩٣٩م، وكان معدل المواليد في سنة ١٩٣٩م، ٦ ,٣٣ في المائة في مقابل ٣ ,١٥ في إنجلترا.

ومشكلة السكَّان في الهند تعتبر حادةً، وتقول جريدة «مانشستر جارديان»، في ٢٦ من أبريل ١٩٥١م:

«نشرت حكومة الهند الأرقام المؤقتة للتعداد الذي أجرته أخيرًا، وقد جاء فيه جاء فيه أن عدد السكَّان (من دون جامو وكشمير) يبلغ ٣٥٧ مليونًا، وقد زاد بنسبة ٤ ,١٣ في المائة منذ سنة ١٩٤١م، رغم مجاعة البنجال الكبرى، وقد كان معدل النمو في السنوات العشر الأخيرة ثلاثة أمثال ما كان عليه في مطلع القرن، وتزداد حاجة الهند إلى الطعام بمعدل نصف مليون طن من الحبوب كل سنة، وكثافة السكَّان في البلاد

كلها هي ثلاثمائة نسمة لكل ميل مربع؛ وهي كثافة تبلغ ستة أمثال الكثافة الرئيسة في جنوب آسيا؛ فهو يدفع البلاد قسرًا نحو فقر قد ينتهي بثورة، وهو أحد الأسباب الرئيسة للمجاعة التي تهددها الآن.

ويجب أن يكون هناك دائمًا على منضدة كل مهتم بالشئون الآسيوية مذكرة بهذه الحقائق ومعها نسخة من مقال «مالتس»، وحتى لو نفذ مشروع كولومبو؛ فإن الإنتاج يكون في سباق خاسر مع السكَّان، ويقول »مستر نهرو»، إن حكومة الهند تدرس الآن احتمالات ضبط النسل؛ بيد أن الصعوبات كبيرة في بلد شعبه غير متعلم وفقير، ولكن هل هناك من سبيل آخر لإنقاذ الهند؟ فالرخاء والتعليم معًا قد يؤديان مع الوقت، في الهند كما في أي مكان آخر، إلى انخفاض معدل المواليد، ولكن معدل الوفيات سينخفض أيضًا، وإلى أن يحدث شيء من الهبوط في عدد الأفواه الجديدة التي تبتلع كل زيادة في الدخل القومي، سيظل الرخاء مفهومًا خاويًا مضحكًا.

وكل إنسان عاقل لا بد أن يسر عندما يجد أن «مستر نهرو» يدرك الحاجة إلى ضبط النسل في الهند، وتقول الطبعة الدولية لجريدة «نيويورك تايمز» في ٢٠ من أبريل سنة ١٩٥١م، عن هذا الموضوع ماي لي:

«قال رئيس الوزراء جواهر لال نهرو... اليوم في مقابلة له إن الحكومة بصدد دراسة ضبط النسل والوسائل الأخرى للحد من الزيادة السريعة في السكَّان في الهند».

وقد ذكر مستر «نهرو» أنه يؤيد ضبط النَسل بوصفه خطةً بعيدة المدى لخفض الزيادة السنوية في عدد سكَّان البلاد التي تبلغ أربعة ملايين نسمة، وكذلك بصوفه أحد الإجراءات التي يتطلبها الموقف لحل أمة الغذاء.

وبينما لا يحرم الدينان الإسلامي والهندوكي، وهما السائدان في القارة الهندية، ممارسة ضبطَ النسل، يعارضه كثير من الشعب البالغ ٣٦٠ مليون نسمة، بسبب الخرافات أو الاعتقاد بأنه ضد قوانين الطبيعة.

وقال «مستر نهرو»: إن الهند تعد مزدحمةً بالسكّان أكثر مما ينبغي على أساس المعايير الأمريكية، ولكن ليس على أساس المعايير الأوروبية، وإنها لما كانت بلادًا كبيرةً فإنها ينبغي أن تعول شعبًا كبيرًا.

ومتوسط كثافة السكَّان في الهند يبلغ حوالي ٣٠٠ شخص لكل ميل مربع، وهو ستة أمثال المتوسط في الولايات المتحدة، بينما الأوروبيون مزدحمون أكثر من ذلك، والمتوسط هي ٧٥٠ شخصًا للميل المربع في بلجيكا، و٥٣٠ في بريطانيا و٤٠٠ تقريبًا في إيطاليا.

تضم الهند، كما تضم الولايات المتحدة نصيبها من المتعصبين القساة الذين يفضلون الفقر والمجاعة والحرب على ضبط النسل، ولا بد للمرء أن يأمل في أن يكون نفوذ «البانديت نهرو» كفأً للقضاء على هذه الخرافة الشريرة.

ويبلغ عدد سكَّان الاتحاد السوفيتي حوالي ٢٠٠ مليون نسمة، والمفهوم أنه يزداد بسرعة.

وتضم روسيا والهند والصين واليابان نصف سكَّان الكرة الأرضية تقريبًا، وإذا لم يحدث تغيير في الإحصاءات الحيوية، فإنها ستضم أكثر من النصف بكثير في القريب العاجل، ومن الناحية الأخرى تضم ما يمكن أن نُطلق عليه المجموعة «الغربية»، هذا مع التوسع في تفسيرها، أقل من ربع مجموع سكَّان العالم، والغالب أنها ستكون أقل كثيرًا من الربع قريبًا.

وأنتقل الآن إلى جزء آخر من العالم، هو أفريقيا، وسآخذ هنا مستعمرة كينيا بوصفها نموذجًا للأجزاء التي يسكنها الزنوج من القارة، فقد تقدم فرع كينيا «للاتحاد الطبي البريطاني» في ديسمبر سنة ١٩٤٧م، بمذكرة إلى «الهيئة الداخلية لشئون الصحة والسكَّان في الممتلكات التابعة للتاج في أفريقية» وسأعتمد على هذه المذكرة فيما يلي.

فقدت التربة خلال السنوات الخمسة والعشرين السابقة على سنة ١٩٤٧م، ٥٠ في

المائة من خصوبتها، وفي نفس الوقت كان عدد السكّان يزيد بمعدل ١,٥ في المائة سنويًّا، وقد زاد إلى ٢ في المائة تقريبًا، وكما هو متوقع في هذه الظروف يزداد الفقر المدقع، وإذا لم تتخذ خطوات حاسمة فسيتطلب الأمر في مدى عشرين عامًا استيراد كميات ضخمة من الطعام للحيلولة دون تكرار المجاعات الكبرى، وحتى إذا اتخذت كل الإجراءات الممكنة في سبيل زيادة ضبط النسل، وإلا فإن مستوى المعيشة، وهو منخفض فعلًا بصورة مؤلمة، سيهبط أكثر من ذلك.

وهذه الظروف في جوهرها واحدة في جميع أنحاء أفريقيا الزنجية.

وهناك ارتباط وثيق بين الإحصاءات الحيوية ومستويات المعيشة؛ فهناك من ناحية، أمم ذات معدل مواليد منخفض ومعدل وفيات منخفض وعدد السكّان فيها ثابت تقريبًا، ومستوى المعيشة في هذه البلاد مرتفع وهو يتحسن، وهناك في الناحية الأخرى أمم ذات معدل وفيات مرتفع ومعدل مواليد مرتفع، وعدد السكّان فيها يتزايد بسرعة، ومستوى المعيشة في هذه البلاد منخفض، وهو يتدهور، زد على ذلك أن الأمم الفقيرة الكثيرة النسل ضعف الأمم الغنية القليلة النسل في العدد تقريبًا.

والموقف ينطوي على خطر، لا بالنسبة للأمم الغنية وحدها، ولكن بالنسبة للجنس البشري، ومن المفارقات أن الخطر أشد ما يكون حينما يحكم الرجال البيض سكّانًا من غير البيض؛ كما هو الحال في أفريقيا، والهند سابقًا واليابان الآن؛ ففي مثل هذه البلاد يخفض الرجال البيض، بواسطة العلوم الطبية، معدل الوفيات، ولكنهم لا يخفضون معدل المواليد، وهكذا يعجلون بالسير نحو الشقاء وما يصحبه من ثورة جامحة، وما دام التحيز الديني يمنع الرجال البيض من تعليم ضبط النسل؛ فإنهم لا بد بالضرورة أن يزيدوا من مجموع الشقاء والانحطاط في الأقاليم غير البيضاء التي يحكمونها مهما كانت نياتهم إنسانيةً.

ورغم أن أهمية مشكلة السكّان واضحة لدى جميع المشتغلين بإدارة البلاد ذات المعدل المرتفع في المواليد؛ فإن كل المنشورات الرسمية تقريبًا تقلل من أهميتها

خشية إزعاج أولئك الذين يعتقدون أن عمل ما هو ضروري لتخفيف الشقاء البشري أمر شرير، ولنا أن نأمل في أن يعدل أولئك الذين يعتنقون وجهة النظر هذه في الوقت الحاضر رأيهم تدريجيًّا؛ كما تعدلت في الماضي كثير من المذاهب القاسية الأخرى التي كان يعتنقها رجال الدين؛ إذ إنه من العسير على القلوب الرحيمة أن تستمر إلى الأبد في تصديق أي شيء ينطوي على شقاء واسع النطاق، سواء في هذه الحياة أو في الحياة الأخرى، وأملي أن أولئك الذين ما زالوا يصرون على اعتناق المذاهب التي لها هذا الأثر سيكفون عن اعتناقها عندما تصير نتائجها بالنسبة للجنس البشري واضحةً لهم، وإني أود أن أستشهد في هذا المجال بخطاب من «البروفسور جوليان هكسلي» نشر في جريدة «للتايمز» في ١٣ من مارس سنة ١٩٥١م، يقول فيه:

يسرني أن أرى «مستر براندر» يؤكد في عدد ١٧ من مارس من جريدتكم الحاجة إلى سياسة عالمية للسكَّان، وقد حثثت عندما كنت مديرًا عامًّا «لليونسكو»، «المجلس الاقتصادي والاجتماعي لهيئة الأمم» على متابعة «مؤتمر مصادر الثروة في العالم» و«اليونسكو» و«منظمة التغذية الزراعية» ووكالات متخصصة أخرى، وذلك بتنظيم مؤتمر مماثل للسكَّان الذين يستهلكون هذه المصادر، وسيؤدي ذلك على الأقل إلى طرح المشكلة بصورة رسمية على الصعيد الدولي، وما زلت آمل أن يعقد مثل هذا المؤتمر في المستقبل غير البعيد جدًّا.

هذا وتزداد المشكلة حدةً باستمرار؛ فالزيادة الصافية في سكَّان العالم تبلغ الآن ٦٠,٠٠٠ نسمة يوميًّا تقريبًا، في مقابل نصف هذا العدد في الوقت الذي ولدت فيه، وما زالت هذه الزيادة آخذةً في الارتفاع بانتظام، والأمر الذي يدعو إلى التخوف أكثر من ذلك هو أن معدل الزيادة في سكان العالم (وهو مثل سعر الفائدة المركبة) يرتفع باستمرار رغم هبوطه في مناطق مثل غرب أوروبا.

وقد كانت هناك خلال الشهرين الماضيين إشارات على صفحات جريدتكم إلى مصاعب ناجمة عن ازدحام السكَّان في كينيا واليابان وهندوراس البريطانية وإيطاليا

وبروتوريكو وأجزاء من شمال أفريقيا وقبرص وجزر الهند الغربية البريطانية ومحميات جنوب أفريقيا ومصر وهاييتي؛ وحتى في الأماكن التي لا يبدو فيها ازدحام السكّان واضحًا قد يكون هناك معدل سريع في الزيادة بصورة تدعو إلى القلق؛ كما هو الحال في فرموزا وأجزاء كثيرة من أمريكا اللاتينية وفي كندا الفرنسية وفي أجزاء من غرب وسط أفريقيا... إلخ.

وتبرز من كل هذه الأمثلة التفصيلية نقطتان عامتان؛ الأولى: أن مجرد الزيادة الكمية في العدد تخلق موقفًا من نوع جديد للنوع البشري؛ والثانية: أن كل الإجراءات الملطفة التي تهدف إلى زيادة الإنتاج هي؛ كما أكد «مستر بداندر» بحق؛ مجرد ملطفات فحسب، وإذا نظرنا إليها على ضوء التاريخ بدت قصيرة الأمد إلى أقصى حد؛ ففي جيلين أو ثلاثة سيلحق بها تتضاعف السكّان ويعود العالم إلي ما كان فيه من قبل؛ بل سيكون أسوأ حالًا بعض الشيء؛ لأن بعض مساحاته الخالية ومصادره التي لم تستعمل ستكون قد استهلكت.

ويتطلب الأمر ضرورة تكوين سياسة سكّانية قائمة على العقل للعالم كله كوحدة، والعمل على ابتكار وسائل تطبيقها (مما في ذلك وسائل للتغلب على الاعتراضات والميول السائدة فيما يتعلق بهذا الأمر)، وما زلت أرى أن الخطوة الأولى في هذا الاتجاه يجب أن تقوم بها الأمم المتحدة.

وليست هناك صعوبة كبيرة في نشر ممارسة ضبط النسل في أنحاء المناطق التي تهددها زيادة السكّان في الوقت الحاضر أكثر من غيرها؛ فكل ما يتطلب الأمر هو نشر المعرفة المطلوبة، وبعد ذلك يمكننا الاعتماد على المصلحة الذاتية في أن تقوم بباقي المهمة، ومما لا ريب فيه أن ذلك ينطوي على قدر كبير من نشر التعليم، بيد أن هذا مرغوب فيه على أي الأحوال، وهناك من يعتقدون أن التصنيع وحده يؤدي إلى هبوط في معدل المواليد، ولكني لا أظن أن الوقائع تؤيد ذلك؛ فعندما تم تصنيع إنجلترا، لم يهبط معدل المواليد في أول الأمر، صارت الزيادة في السكّان أسرع بكثير عن ذي قبل،

إن مثابرة «برادلو» و«مسز بيزانت» في الدعوة لضبط النسل في سنة ١٨٧٨م، هي التي بدأت الهبوط في مستوى المواليد، وقد بدأ الهبوط في فرنسا، التي كانت زراعية في الغالب قبل ذلك، ولست أعتقد أن الهبوط المرغوب فيه في معدل المواليد كان سيتم إلا بزيادة التعليم مصحوبةً بفرص لتأكيد أساليب ضبط النسل.

وهناك حقيقة غريبة هي أن أولئك الذين أدت بهم دراستهم لنظريات «مالتس» إلى الدعوة إلى ضبط النسل رجعوا، رغم أنه يطلق عليهم المالتسيون الحديثون، إلى نظرية سبقت «مالتس» وأوحت إليه بنظرياته، فمبدأ السكّان لم يكتشفه في الحقيقية «مالتس» ولكن «كوندورسيه» الذي تجنب النتائج المتشائمة، التي كانت تمنح «مالتس» قدرًا كبيرًا من اللذة؛ بأن دعم المبدأ بالعدوة إلى ضبط النسل؛ بيد أن «مالتس» اعتقد، بوصفه رجل دين، أن ضبط النسل عمل شرير؛ وبوصفه اقتصاديًّا من «المدرسة المانشسترية» كان يجد متعةً في «القانون الحديدي للأجور» الذي افترض أن الأجراء سيظلون غزيري النسل رغم فقرهم، وإنه لأمر مؤسف أن هذه النظريات هي التي حظيت بدعاية واسعة وليست نظريات «كوندورسيه».

وجاء اعتناق أمم كبيرة مزدهرة لضبط النسل، فأنار السبيل لاحتمال جديد من الرخاء العام في العالم كله؛ فالنزعات الطبيعية دفعت الحيوانات والناس إلى التوالد بشكل أسرع مما تستطيع الطبيعة إعالته، وكانت النتيجة أن الكثيرين ماتوا قبل أن يكتمل نموهم، وأولئك الذين وصلوا إلى مرحلة البلوغ كثيرًا جدًّا ما تعرضوا للهلاك جوعًا، وكانت هذه هي آلية التطور - وهي آلية تنطوي على قدر كبير من المعاناة في جميع أنحاء المملكة الحيوانية، وما زالت نفس الآلية تعمل حتى الوقت الحاضر في أجزاء كبيرة من العالم، في الصين والهند وأفريقيا وأمريكا الاستوائية وغيرها، وأولئك الذين يذهبون إلى أنه يمكن، بواسطة التقدم في الأساليب الفنية، الإبقاء إلى ما لا نهاية على رخاء سكّان ينمو عددهم باستمرار، من الواضح أنهم غير قادرين على تقدير خواص المتوالية الهندسية، أي أن جماعة من السكّان تتزايد باستمرار لا بد في النهاية، مهما كان

تزايدها بطيئًا، أن تتجاوز أي حد معين، وهذا مستحيل استحالةً طبيعيةً، حيث إن هناك حدًّا لما تستطيع الأرض إنتاجه؛ وكلما زاد السكَّان بعد نقطة معينة لا بد أن يقل إنتاج الأرض، حيث إن قدرًا كبيرًا من سطح الأرض لا بد أن يصبح غير قابل للزراعة، بيد أنه إذا أريد ألا يزيد السكَّان بلاد حدود فلا بد من حدوث أحد شيئين: إما أن يكون معدل المواليد منخفضًا، أو يكون معدل الوفيات مرتفعًا، ولا بد لأولئك الذين يعارضون ضبط النسل، إذا كانت لديهم القدرة على القيام بعملية حسابية بسيطة، من الاعتراف بأن معارضتهم يعني استمرار حدوث وفيات أكثر ما هو ضروري؛ ففي الماضي، وفي الأجزاء الأشد فقرًا من العالم حتى الآن، ماتت الغالبية العظمى من الأطفال الذين يولدون قبل أن يكتمل نموهم، وكل هذا الضياع والحزن والآلام التي تنطوي عليها هذه الوفيات ليست ضروريةً؛ والآن وقد عرفنا أنها غير ضرورية، لا يمكن أن نحل أولئك الذين يصرون على الإبقاء على أنظمة تؤدي إليها من مسئولية كل تلك المعاناة التي تتطلبها شدة تمسكهم بعقائدهم.

وليس هناك من يؤيد مثل هذا النظام؛ الذي يؤدي إلى كل ذلك الضياع، في إنتاج أي شيء سوى في المخلوقات الآدمية، ولنفرض أن الخبازين ظلوا عصورًا ينتجون خبزًا بأساليب تؤدي إلى جعل نصف ما ينتجون من خبز غير قابل للأكل، ثم جاء شخص واكتشف أسلوبًا جديدًا يمكن بواسطته جعل كل الخبز تقريبًا قابلًا للأكل؛ هل يبدو معقولًا الإصرار على أن الأسلوب الجديد شرير وأن الضياع يتسم بطابع من الفضيلة؟ هذا إلى أن الخبز التالف لا يعاني ألمًا، بينما الأطفال الذين يضيعون يموتون ببطء بعد سنوات من الشقاء. إن أي شخص يسير في قرية صينية ويرى الأطفال وقد تمددت معداتهم من أكل التراب لأنهم لم يجدوا شيئًا آخر يأكلوه ومع ذلك لا يحس بأنه يجب بذل مجهود لمنع هذا الشر، لا يمكن إلا نصفه بتحجر القلب؛ لأنه لو لم يكن متحجر القلب لوجد أن فرط تعلقه بمذهبه القاسي غير محتمل التصديق.

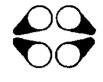
وقارن بين هذا الشقاء وبين السكَّان المزدهرة أحوالهم في الولايات المتحدة

وكندا وأستراليا ونيوزيلاندا؛ ففي هذه البلاد قُضي على شرور قديمة معينة أصابت جميع المخلوقات الشاعرة منذ فجر الحياة؛ فليس هناك خوف من الموت جوعًا، وتعيش غالبية الأطفال حتى يكتمل نموهم؛ ويتمتع معظم الناس بأشياء أكثر كثيرًا من الضروريات، وهناك فائض يجعل من الممكن تهيئة فرصة التعليم للجميع؛ إن الصراع القديم من أجل الحياة قد قُضي عليه في أكثر جوانبه وحشية، ويمكن القضاء عليه كليةً لو أن الناس تخلصوا من المعتقدات العتيقة التي لم تعد تتفق مع ظروفهم، وليس هناك سبب واحد وجيه يحول دون وجود ظروف مشابهة من الرفاهية في جميع أنحاء العالم. إن هناك أمورًا بذاتها ضرورية لتحقيق هذا الهدف؛ يجب خفض معدل المواليد، ويجب إصلاح نظام الأرض، ويجب أن يتم قدر من التصنيع، ويجب أن يكون هناك تعليم، ولكن إذا لم ينخفض معدل المواليد، وحتى ينخفض هذا المعدل، ليس هناك أي إجراء يوفر لنا الأمل في أكثر من تحسين مؤقت قصير الأمد.

فمن الممكن تمامًا أن يجعل العالم كله في حدود خمسين عامًا يتمتع برخاء مثل ما تمتع به الولايات المتحدة الآن، ومن الممكن أن نرفع عن كاهل الحياة البشرية ذلك العبء العتيق من العمل المضني والحزن؛ بيد أننا إذا أردنا أن نحقق ذلك، علينا أن نعترف بأن سيطرتنا على الطبيعة لها حدودها؛ إننا نستطيع أن نوفر من دون عمل مضن طعامًا يكفي عددًا معينًا من السكَّان وليس أكثر من ذلك، ومن المحتمل أن يؤدي التحسن في الأساليب الفنية إلى زيادة عدد السكَّان الذين يمكن أن نوفر لهم قدرًا معقولًا من الرخاء؛ بيد أنه يجب أن يكون هناك دائمًا حدًّا، وعندما يكون معدل المواليد أكثر مما يجب، سيضغط السكَّان على هذا الحد ولن يحال بينهم وبين تجاوزه إلا بواسطة شقاء على نطاق واسع لا ضرورة له، إن المشتغلين بالدعاية تكونت لديهم عادة الحديث عن «القيم الغربية»، ولا بد من الاعتراف بأن قسمًا كبيرًا ممَّا يقولونه لغو.

وإني لأميل إلى الاعتقاد بأن أهم القيم الغربية هي عادة انخفاض معدل المواليد، وإذا أمكن نشر هذه العادة في جميع أنحاء العالم فإن الباقي مما هو طيب في الحياة الغربية

يمكن أيضًا أن ينتشر، وبذلك لا يكون هناك رخاء فحسب؛ بل سلام أيضًا؛ بيد أنه إذا استمر الغرب في احتكار مزايا انخفاض معدل المواليد؛ فلا بد أن تستمر الحروب والأوبئة والمجاعات؛ ولا بد أن يبتلع طوفان جديد من الجهل والفقر والحرب تلك الفترة القصيرة التي تخلصنا فيها من هذه الشرور العتيقة.



القسم الثاني
الإنسان والإنسان

الفصل السادس

وحدات اجتماعية

يميز الإنسان أحيانًا بأنه حيوان اجتماعي؛ بيد أنه لا يشبه تمامًا من الناحية السيكولوجية الحيوانات الأخرى الاجتماعية، فروح القطيع لديه، بعد أن تتجاوز درجةً محدودةً جدًّا؛ نتاج المصلحة الذاتية أكثر منها نتاج الغريزة؛ فالنمل والنحل تخدم أغراض جماعاتها بصورة غريزية؛ وهي لا تحتاج إلى قواعد أخلاقية أو وصايا عشر، ومن الواضح أنها لا تحس مطلقًا بنزعة نحو الخطيئة، وبينما لا يسيطر القطيع تمامًا على الثدييات التي تحدوها روح القطيع كما يسيطر على النمل والنحل؛ فإن الثدييات أقل جنوحًا إلى الفردية من المخلوقات الآدمية.

وفي المخلوقات الآدمية يدور صراع مستمر بين الفرد والقطيع، وهو صراع بصفة عامة ذاتي ويدور في عقل الفرد؛ بيد أنه ينفجر من وقت لآخر في صورة خلاف علني؛ فكل إنسان يحس نفسه فردًا وعضوًا في جماعته في وقت واحد؛ ولأن كلا هذين الإحساسين متأصل بعمق في طبيعته وجد من الضروري أن يُكوِّن نظمًا من القواعد الأخلاقية والمحرمات ويصطنع جهازًا للتحبيذ واللوم، وكل ما تتعرض له العلاقات بين الإنسان والإنسان من خلل تقريبًا إنما يرجع سببه إلى أن نزعات الذات رجحت كفتها على نزعات القطيع في حالات تتطلب فيها المصلحة الذاتية، أو على أي الأحوال الذاتية للقطيع؛ عكس ذلك، وتتوقف الصور التي يأخذها هذا الصراع بطبيعة الحال

على حجم القطيع وطابعه، والجماعة الاجتماعية الوحيدة التي لها أساس غريزي عميق حقيقي هي الأُسرة؛ فالعطف الجنسي والعطف الأبوي جزء من مكونات الرجل البدائي؛ إذ يحتاج الأطفال الصغار إلى عناية الأم؛ كما تحتاج الأم وهي ترعى الأطفال إلى رعاية الأب، ومن ثم فإن العائلة ضرورة بيولوجية للرجل البدائي، وما كان الرجل البدائي؛ لمجرد كونه بدائيًّا؛ ليتصرف تبعًا لما تتطلبه الضرورة البيولوجية لو أنه لم يكن عنده نزعات تلقائية للتصرف بهذه الطريقة، ويبدو أن الناس وسعوا؛ لأسباب مختلفة؛ الجماعة الاجتماعية لتشمل عدة أسر بدلًا من أُسرة واحدة منذ وقت مبكر جدًّا، ولست أدري لماذا اتخذوا هذه الخطوة؛ لعلها كانت بدافع الدفاع المتبادل؛ أو لعلها كانت للحصول على مزايا الأساليب التعاونية في الصيد؛ أو أنها نبتت لمجرد عادة احتساب الأقارب الأبعدين إلى حد ما أعضاء في الأُسرة، وأيًّا كان الأمر فإنه يبدو أن الإنسان انتقل منذ مرحلة مبكرة جدًّا من الأُسرة إلى القبيلة بوصفها الوحدة الاجتماعية؛ كما يبدو أن حجم القبيلة أخذ يزداد بالتدريج مع تقدم الناس.

وأيًّا كانت الوحدة الاجتماعية المسيطرة في أي مرحلة بذاتها من مراحل التطور الاجتماعي؛ فإنه كان هناك دائمًا نمطان من السلوك أحدهما تجاه أعضاء القبيلة نفسها والآخر تجاه الأغراب، وكانت القاعدة داخل القبيلة هي التعاون؛ فكان المتوقع بين أعضاء القبيلة هو الشعور الطيب، وهذا هو ما كان يحدث فعلًا عادةً؛ بيد أن ذلك كان يخضع لحدود؛ خاصةً بسبب التنافس الجنسي (Sexual)؛ فإذا حدث في أي وقت أن كان عدد الإناث أقل من عدد الذكور؛ كان يتوقع حدوث نزال عنيف بين ذكور القبيلة الواحدة، وقد يحدث مثل هذا النضال حتى عندما يتساوى عدد النساء والرجال إذا كان تعدد الزوجات مسموحًا به؛ وبمجرد أن أصبح للقبائل رؤساء كان من المتوقع أن يسمح الرؤساء لأنفسهم بعدة زوجات، وكانت هذه حالةً من الحالات التي تطلب فيها الوئام داخل القبيلة دعامةً من العرف والقوانين الأخلاقية، وقد تم تحقيق هذه النتيجة داخل العائلة منذ تاريخ مبكرًا جدًّا بواسطة تحريم الزواج بالمحرمات (Tabn)، ولا بد أن

القواعد المعقدة المختلفة الخاصة بزواج الأباعد (Exogamy)، التي تنتشر بين القبائل البدائية؛ إنما قُصد بها توسيع القاعدة القانونية نفسها؛ التي تتمثل في تحريم الزواج بالمحرمات؛ إلى خارج نطاق العائلة؛ وقانون التحريم أو عدم الزواج بالمحرمات هو أفضل مثل معروف لانتصار العرف على الغريزة؛ فالغالبية العظمى من الجنس البشري في الوقت الحاضر تمر في الحياة دون أن تشعر في أي لحظة من اللحظات بأي نزعة واعية نحو الاتصال الجنسي بالمحرمات، وصحيح أن هناك قبائل بدائية ما زالت فيها مقاومة هذه النزعة أمرًا عسيرًا، ويبذل فيها الإخوة البالغون والأخوات البالغات مجهودًا حتى لا يتقابلوا، بيد أن التحريم في هذا المجال ثبت بصفة عامة أنه فعال؛ لا في الخارج فحسب بل كذلك في الداخل، والمفروض أن ذلك راجع إلى أنه تحريم قديم ومطلق ولا يتطلب أي شيء فوق طاقة البشر، وهو من الأهمية بمكان عند المشتغلين بعلم النفس الاجتماعي؛ حيث إنه يبين مدى ما يستطيع العرف تحقيقه.

وعلى الرغم من أن التنافس داخل الجماعة لا بد أن يحدث؛ فإنه أمر يُنظر إليه بوصفه شيئًا غير مرغوب فيه، وعلى أنه ينطوي على سلوك يستحق النقد، ولكن الأمر يختلف تمامًا فيما يتعلق بالتنافس بين القبائل المختلفة؛ فالموقف تجاه المخلوقات الآدمية خارج القبيلة موقف تنافس إذا لم يكن مجرد موقف تباعد، وما دام هناك مجال متسع فإن القبائل المختلفة تستطيع أن تتجنب بعضها؛ ولكن عندما كانت قبيلتان ترغبان في الحصول على نفس الإقليم؛ بسبب نقص الطعام؛ كانت النتيجة الحتمية باستمرار تقريبًا هي الحرب، وكانت القبيلة الأكبر هي التي تنتصر عادةً في الحرب، ولا بد أن ذلك أدى إلى زيادة مستمرة في حجم القبائل، وبطبيعة الحال يمكن أن يقوم التنافس داخل القطيع حول الطعام في الأوقات العسيرة. وفي المجاعات قد يأكل الناس حتى أولادهم؛ بيد أن الانفعالات التي يحسون بها عندما يتصرفون بها وهم يتصرفون بهذه الطريقة تختلف تمام الاختلاف عن تلك التي تثيرها الحرب؛ فإنك إذا كنت من آكلي لحوم البشر تأكل عدوك الذي قتلته في الحرب تحدوك مشاعر الزهو والانتصار، ولكنك إذا كنت فلاحًا

على وشك الموت جوعًا؛ دفعك الجوع إلى أكل أبنائك؛ فإنك تفعل ذلك وأنت تشعر بفظاعته والنفور منه، ولا تفعله إلا تحت ضغط الحاجة القصوى،وقد كتب «جوزيف كونراد» قصة اسمها (فولك)، تصور هذا الضرب من الحالة النفسية السيكولوجية.

وكان (فولك) بحارًا على سفينة انحسرت عنها المياه في بقعة مهجورة، ونفدت مئونتها من الطعام، وكان هو واحد آخر من البحارة فقط يملكان أسلحةً ناريةً.

وبعد أن تربص كل منهما بزميله عدة أيام، نجح (فولك) في قتل غريمه، وبعد ذلك قتل البحارة الواحد بعد الآخر، وعندما انتهى من آخر قطعة من اللحم آخر بحار جاءته النجدة.

وعندما يروي قصته يذكر أنها كانت من سوء حظه الشديد، وأنه ظل منذ ذلك الوقت يتعرض للأحلام المزعجة، وصار نباتيًّا، وهذا الموقف يختلف تمامًا عن موقف آكل لحم البشر عندما ينتصر في الحرب.

وكلما زاد حجم الوحدة الاجتماعية؛ تخف بالتدريج الآلية السيكلوجية التي تستمد منها دعامتها؛ فالولاء للعائلة عاطفة طبيعية.

وكلنا يعرف أن أعضاء الأُسرة الواحدة يتحدون فورًا، وهم في خضم نزاع عائلي؛ ضد أي عدو أجنبي، ويمكن أن يمتد جزء كبير من هذا الشعور بالتضامن إلى القبيلة؛ كما يمكن أن يظل باقيًا حتى في مستوى من المدنية مرتفع إلى حد ما؛ كما كان الحال في العشائر الأسكتلندية قبل سنة ١٧٤٥م، أو في اليابان بقبل سنة ١٨٦٨م، ولكن عندما تتوحد القبائل في أمم يصير الشعور بالولاء للأمة بصفة عامة؛ على الأقل في مبدأ الأمر؛ أقل حيويةً وأثرًا بكثير من الشعور بالولاء للقبيلة؛ فولاء المرء نحو أمته لا يصير، كقاعدة عامة؛ شعورًا قويًّا حقيقةً حتى يهاجم أعداء خارجيون هذه الأمة، أو على الأقل يتهددونها بالهجوم. وأكثر من ذلك صعوبةً أن يشعر الإنسان بولاء نحو حلف مكون من أمم مختلفة؛ فمثل هذا الولاء؛ عندما يوجد؛ لا يقوم على أساس غريزي مطلقًا تقريبًا، ويكاد يعتمد تمامًا على اعتبارات المصلحة الذاتية، وهذا هو السبب في أن الحلفاء

يكرهون بعضهم البعض دائمًا تقريبًا.

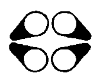
وينعكس أي تنظيم سياسي؛ إذا ظل قائمًا مدةً كافيةً؛ في مشاعر أعضائه؛ فتكيف الآلية القديمة؛ من صداقة في الداخل وعداء في الخارج؛ نفسها مع النظام السياسي المتوسع بشيء من التعثر؛ فقد كانت إنجلترا وأسكتلندا تكره كل منهما الأخرى؛ حتى ارتقى (جيمس الأول) العرش؛ وكانتا تتبادلان الكراهية مرةً أخرى في عهد (كرومويل)، ولكن عندما تعاون أهل أسكتلندا مع الإنجليز في هزيمة أتباع (جيمس الثاني)؛ كفوا عن كراهية إنجلترا، وما دمنا أمام عدو خارجي مشترك يبقى العداء بين إنجلترا وأسكتلندا محدودًا؛ بيد أن أحداث مثل حادثة (حجرسكون) تبين إلى أي مدى يمكن أن يندلع هذا العداء بسهولة.

ويعمل كل تنظيم اجتماعي جديد على إضعاف سيطرة التنظيمات الأقدم عهدًا، ويبدو ذلك بوضوح في حالة الأُسرة بصفة خاصة، ويعتبر الكتاب المقدس الأرامل واليتامى سيئي الحظ لأنهم بفقدهم عائلهم معرضون للظلم. بيد أن موقف الأرامل والأطفال في العصر الحديث مختلف؛ حيث إن الدولة ترعاهم بطريقة، وإن لم تكن دائمًا بنفس القدر من العناية التي كان يبذلها أبوهم لو أنه عاش، ولكنها أيضًا ليست دائمًا سيئةً مثلما يفعل بعض الآباء، وتتكون العائلة في العالم الجديد من الآباء والأطفال، وكانت تتكون في أوروبا فيما مضى، وحتى الآن في الشرق؛ من كل السلالة المباشرة لأكبر رجل على قيد الحياة في العائلة؛ فيحيط رأس العائلة نفسه في معيشة واحدة بأبنائه وزوجاتهم وأطفالهم وحتى أطفال أطفالهم إن وجدوا.

وتكرس زوجة رب البيت نفسها عادةً لتعذيب زوجات أبنائها، وإذا دفعتهم إلى الانتحار لا يدهش ذلك أحدًا أو يروعه. ويتحطم هذا النظام عندما تكون الدولة قويةً، وإذا وجدت دولة شمولية فللمرء أن يتوقع انهيار الأُسرة تمامًا في نهاية الأمر كما في «جمهورية أفلاطون»، وما ينطبق على الأُسرة ينطبق أيضًا على التنظيمات الأخرى؛ فجميعها تتجه نحو الضعف إذا تكون فوقها تنظيم أكبر، ولكن قد تفشل التنظمات

الأكبر أحيانًا وتسود عندئذ القوى التي تعمل على التفكك، وقد حدث ذلك مثلًا عندما تمرد نصف الكرة الغربي على سيطرة أوروبا. وقد يحدث أيضًا إذا قامت محاولة غير ناضجة لإنشاء دولة عالمية. بيد أن أولئك الذين يتذكرون انهيار «عصبة الأمم» ويرون أمام أعينهم «الأمم المتحدة» تتحلل ليسوا في حاجة لأي تأكيد حتى يدركوا هذه الحقيقة.

ولا يكون التماسك الاجتماعي فعالًا إلا إذا كان له مقابل سيكولوجي في مشاعر أعضاء الجماعة؛ بيد أن موضوع إمكان خلق مثل هذه المشاعر صناعيًّا بواسطة التربية والدعاية الحكومية مسألة ذات أهمية قصوى بالنسبة للسجل السياسي للجنس البشري، وأود في الوقت الحاضر أن نأخذ ذلك في اعتبارنا، ولكنني لا أنوي مناقشته في هذه المرحلة.



الفصل السابع

حجم الوحدات الاجتماعية

هناك نوعان من الاعتبارات التي تحدد حجم الوحدة الاجتماعية، الأول فني والثاني سيكولوجي.

فمن وجهة النظر الفنية يزيد باستمرار حجم الوحدة الاجتماعية الذي يؤدي إلى أقصى فائدة كلما تقدمت الأساليب الفنية، ولما كانت السيكولوجية البشرية مهيأةً دائمًا لعصور أسبق، فإنها كثيرًا ما تخلق العقبات في وجه نمو الوحدة الاجتماعية إلى الحجم الذي يؤدي إلى أقصى فائدة من الناحية الفنية، وهناك أمثلة لا حصر لها على ذلك من فجر التاريخ حتى يومنا الحاضر.

وإذا أخذنا الاعتبارات الفنية أولًا؛ نجد أن هناك في أي مرحلة بذاتها حجمًا هو أفضل ما يكون للتنظيمات؛ فإذا كانت أصغر فقدت مزايا التعاون، وإذا كانت أكبر فقدت وحدتها. والظرف الجوهري فيما يتعلق بالحكومات هو أنه لا بد أن يكون في الإمكان نقل الأوامر والجنود من المراكز في وقت أقل مما يتطلبه تنظيم التمرد، وكان الأمر حتى العصور الحديثة يتوقف على الطرق؛ فإمبراطورية دارا كانت تعتمد على الطريق الكبير الذي أنشأه من سوس إلى شاطئ آسيا الصغرى الغربي، وتبعًا لما يقوله هيرودوت كان الرسول يستطيع أن يقطع هذه المسافة في شهر، ويستطيع الجيش أن يقطعها في ثلاثة أشهر.

وقد كان حجم إمبراطورية دارا؛ هو أقصى ما يمكن فنيًا على وجه التقريب؛ فعندما ثارت المدن الأيونية مضى وقت طويل قبل أن يستطيع دارا أن ينقل جيشًا يعسكر بينها، وكان في استطاعتها طوال ذلك الوقت أن تستعد لمواجهته، وقد نجح في إخضاعها، ولكنه فعل ذلك بصعوبة كبيرة، وظلت الطرق العماد الرئيس للإمبراطوريات حتى وقت (نابليون)، أو ربما حتى إلى ما بعد ذلك إذا أخذنا في الاعتبار حالات مثل (ممر خيبر)، وكانت الإمبراطورية الرومانية تعتمد اعتمادًا كليًا على الطرق، وعندما سقطت تلفت الطرق بسبب إهمال إصلاحها ولم يعد في الإمكان قيام سوى ملكيات صغيرة، إلا حيثما حال الغزو الإسلامي دون انهيار المدنية. وكانت الطرق التي اخترق (نابليون) بواسطتها جبال الألب مشهورةً، وجعلت في وسعه أن يحتفظ بسيطرته على إيطاليا. ومن أيام (دارا) إلى أيام (نابليون) كانت الحكومات تعتمد على المشاة والفرسان حيث لم يكن هناك أسرع من الخيل.

وكان أول تغيير كبير حدث بواسطة السكك الحديدية، وربما كان (نابليون) انتصر في حملته على روسيا لو كانت لديه سكك حديدية، وربما أيضًا كان انتصار الشمال على الجنوب في الحرب الأهلية الأمريكية مستحيلًا لولا وجود السكك الحديدية في الولايات المتحدة في ذلك الوقت.

ولا ريب في أن أثر السكك الحديدية من الناحية الفنية في زيادة الحد الأقصى لحجم الدول؛ كان بالتأكيد ضخمًا، ولكن لعل أثر البرق كان عظيمًا بدرجة مساوية؛ فبفضل البرق يمكن نقل الأوامر في نفس الوقت الذي تصدر فيه تقريبًا، ولا يمكن إخفاء ما يحدث في المقاطعات الخاضعة عن العاصمة بسهولة. وقد يكون من المشكوك فيه إمكان إخماد الثورة الهندية لو أنها حدثت قبل عصر البخار؛ بيد أن إخمادها كان يتم أسرع بكثير لو كان هناك اتصال برقي بين لندن والهند في ذلك الوقت.

وقد أدخلت الطائرات تغييرًا أكبر بكثير؛ فليس هناك الآن مكانان مأهولان بالسكّان

على وجه البسيطة يبعدان بعضهما عن بعض أكثر من رحلة يومين بالطائرة، ولم تعد الرحلة بين لندن وسيدني مثلًا في الوقت الحاضر أكثر خطورةً مما كانت الرحلة بين لندن وأدنبرة منذ مائتي سنة.

ومع تقدم فن نقل الجيوش بطريق الجو ستسير الحواجز القليلة الباقية مثل البحار والجبال والأنهار الكبيرة أقل أهميةً من ذي قبل، وسيكون في وسع أي دولة ذات سيادة أن تهاجم أي دولة أخرى في لحظات، ومن ثم لم يعد هناك في الوقت الحاضر من الناحية الفنية حد أقصى لحجم الإمبراطوريات؛ بل الواقع أن العكس هو الصحيح؛ فإن ذخيرة الحرب قد صارت كثيرة الكلفة إلى حد أن الدول الكبرى وحدها هي التي تستطيع أن تتحمل نفقاتها، وكذلك صارت المواد الأولية المطلوبة متنوعةً إلى حد أن الدول الصغيرة لا بد بالضرورة أن تعتمد على الواردات التي يمكن قطعها عنها في أي لحظة. وهناك ميزة أخرى في الدول الكبيرة هي أنها توفر مناطق واسعةً للتجارة الحرة؛ وطبيعي أن هذه المناطق يمكن أن تتوفر دون حاجة إلى اندماج الحكومات لو أن الناس كانوا أكثر اتباعًا للعقل في هذا المجال؛ بيد أن الواقع هو أن الإنجليزي من أبناء جنوب إنجلترا يتقبل السلع المصنوعة في شفيلد مثلًا دون أي اشمئزاز، ولكنه يستشيط غضبًا إذا طلب إليه أن يشتري سلعًا مصنوعةً في القارة، ويحملنا هذا إلى العوامل السيكولوجية المتصلة بحجم الوحدات الاجتماعية.

إن العوامل السيكولوجية التي يجب علينا الآن أن ننظر فيها تنحو إلى العمل على إبطاء نمو الدول؛ كما أشرت آنفًا، وكثيرًا ما تقضي تمامًا على الاتجاهات التي تقتضيها الاعتبارات الفنية؛ إذ من الصعوبة بمكان المحافظة على تماسك وحدة حكومية بالقوة وحدها، ولست أدعي أنها مستحيلة؛ لأنها تمت أحيانًا بنجاح في الماضي؛ بيد أنها تتطلب إنفاق قدر ضخم من الطاقة من جانب أولئك الذين يمارسون القوة، وإذا لم ينجحوا في كسب الشعوب الخاضعة؛ فالغالب أن سيطرتهم تكون مؤقتةً، وصحيح أن الشعوب الخاضعة كثيرًا ما يمكن كسبها.

ففي الإمبراطورية الرومانية لم يُبْدِ أحد، سوى اليهود، رغبةً في التمرد بعد السنوات القليلة الأولى من السيطرة الرومانية، وينطبق نفس الشيء على إمبراطورية الخلفاء. وقد كان هناك؛ بطبيعة الحال؛ حروب بين الأُسر المتنازعة على الملك؛ بيد أن هذه الحروب لم يكن لها علاقة بمشاعر السكَّان، ولم يكن المقصود بها تقطيع أوصال الدولة، ومن العسير تحديد السبب في أن مثل هذه الأشياء أقل حدوثًا في العالم الحديث منها في العصور السابقة؛ فالعدو الأكبر للغزاة الحديثين هو القومية، وهو شعور لم يكن معروفًا تقريبًا في العصور السابقة، وعندما غزا المقدونيون جزءًا من الهند أنشأوا هناك مملكةً إغريقيةً ظلت قائمةً قرونًا طويلةً، ولم يُثَرْ ضدهم؛ في حدود ما نعلم، أي رد فعل قوي في الهند.

ولنا أن نفترض أن الرومان لو كانوا استطاعوا غزو الهند، لقبلت الهند بسرعة وضعها كجزء من الإمبراطورية الرومانية؛ كما قبلت إسبانيا، وبلاد الغال وبريطانيا، وحالة إيرلندا أكثر مدعاةً للتعجب؛ حيث لم يكن هناك أي فارق في اللون أو أي فارق جدي في الجنس، وعندما قسمت بولندا أزعج التقسيم كل الناس باستثناء المستفيدين منه، واحتفظ البولنديون بشعورهم القومي؛ كما احتفظوا بإحساسهم بالوحدة، رغم التقسيم الذي أوجدته الحدود السياسية، ويقبل معظم أهل العصر الحديث القومية بوصفها ظاهرةً طبيعيةً، ولا يدركون إلى أي حد هي جديدة، ولعل من ابتكرها، في حدود ما يتعلق بالعالم الحديث، هي «جان دارك»، ولكنها تلاشت في فرنسا إبان الحروب الدينية. وقد ازدهرت في إنجلترا في عهد «إليزابيث»، ولم تَحْظَ مبادئها الضارة بتعبير أجمل مما عبر به عنها «شيكسبير»، ثم ولدت من جديد في فرنسا في عهد الثورة؛ لأنها كانت ضروريةً في مقاومة خصومها الرجعيين، وعلمها «نابليون» للألمان والروس وعلمها (مترنيخ) للإيطاليين؛ ثم انتشرت شيئًا فشيئًا في جميع إنجاء العالم، والقوة الوحيدة التي تستطيع الآن التغلب عليها سيكولوجيًّا هي الشيوعية، وحتى الشيوعية هُزمت أمامها في يوغسلافيا.

ويزداد التعجب من عجز الدعاية الحكومية عندما تصطدم بالقومية، حيث إن الحكومات تملك الآن وسائل قويةً للدعاية، وهي وسائل جديدة وكان المتوقع ألا تقاوم.

فالصحافة والراديو يعملان لخدمة الحكومة حيثما لا توحد الحريات التحررية، والوسيلة التي تعد أكثر من أي من الاثنين هي التربية؛ فكل طفل يتعرض؛ خلال السنوات التي تبلغ فيها قابليته للتأثر أقصى مداها، لوجهة نظر تكون دائمًا من النوع الذي يعمل على أن يتشرب الطفل الولاء لحكومته، سواء كانت وجهة النظر هذه قد اعترف صراحة بأنها لون من ألوان الدعاية أولًا.

وفي الدول القومية تتحد الصحف والإذاعة لزيادة ولاء المواطن إلى درجة أكبر بكثير مما كان في الأزمان الماضية، ولا تفشل هذه الأساليب إلا حيثما تكون الدولة غير قومية؛ فالتمسك الاجتماعي في الدول القومية الكبيرة في عصرنا الحاضر يعد ظاهرةً جديدةً تمامًا في شدته، وأنا أفترض أن الإنجليز العاديين لا بد أحسوا بشيء من الرضا عندما سمعوا بانتصارات (الطرف الأغر) و(ووترلوا)، ولكن ليس هناك قارئ لروايات جين أوستن، يستطيع أن يعثر على أي أثر لمثل هذا الإحساس؛ ولا بد أنه كان إحساسًا ضعيفًا تمامًا بالنسبة للمشاعر التي تثيرها الانتصارات والهزائم الحديثة المهمة. ولا ريب في أن الأساليب الفنية الحديثة تزيد التماسك الاجتماعي شدةً إلى حد كبير جدًّا، ولكنها لا تبدو قادرةً على خلقه حيثما يسود شعور مضاد؛ كما هو الحال في إيرلندا قبل سنة ١٩٩٢م.

والأساليب التي يتولد بها التماسك الاجتماعي أساليب فجة وبدائية بعض الشيء، ويلعب فيها تزييف التاريخ عادةً دورًا كبيرًا جدًّا، وكذلك «النشيد القومي». وهناك باستمرار تقريبًا ادعاء بأن أمة المرء أسمى معنويًّا من الأمم الأخرى، «أفسدوا ألاعيبهم القذرة، وأحبطوا سياستهم»[1]، هي وجهة النظر المألوفة تجاه الأجانب، ويقول فيشته:

(١) كانت هذه العبارة جزءًا من النشيد القومي البريطاني. المترجم.

«أن تكون على خلق، وأن تكون ألمانيًا يعنيان بالتأكيد شيئًا واحدًا، ولعل روسيا الحديثة سارت في هذا الاتجاه أبعد مما سار فيه أحد من قبل؛ إذ يقال لنا الآن إن (كوبرنيك) كان روسيًّا، وأن مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند لم يكن فاسكودي جاما بل كان روسيًّا؛ وأن نيوتن ليس مكتشف قانون الجاذبية، بل إن مكتشفه أحد معاوني إيفان الرهيب؛ وأن آراء داروين، إنما أخذها من مصادر روسية أخفى أمرها بعناية، ومثل هذه الأمور؛ بطبيعة الحال سخيفة، وإذا كان الناس يرغبون حقًّا في حياة سعيدة لسمحوا للجنة من لجان «اليونسكو» بأن تبحث جميع هذه الأمور وتصدر حكمها بشأنها، فيقوم علماء متخصصون في الأنساب بالتحقيق في نسب «كولمبس» وهل كان روسيًّا أم لا، كذلك في الرأي المماثل القائل بأن شكسبير كان أمريكيًّا، وأيًّا كان ما تصل إليه اليونسكو من قرار في مثل هذه الأمور المهمة، يُعلَّم في جميع مدارس العالم كلما أثير موضوع متصل بها، ولنفكر مثلًا في معركة «ووترلو»، أن الفرنسيين يقولون إن نابليون كان على وشك النصر النهائي عندما طعنه البروسيون الأشرار من الخلف، ويقول البرسيون إن ولنجتون كان سيتعرض لهزيمة ساحقة لو لم تأته المساعدة التي استطاعوا أن يقدموها له في حينها رغم استراتيجيته الخرقاء.

ويقول الإنجليز إن صلابة البريطانيين المتشبثة كانت لا شك ستوهن عزم الهجوم الفرنسي حتى ولو لم يظهر «بلوخر»، ولا يسمح لأي تلميذ إنجليزي بمعرفة رأي ولنجتون في المعركة «لقد كانت شيئًا لطيفًا ملعونًا»، أو رأي نابليون «في الحرب يخسر الإنجليز جميع المعارك سوى المعركة الأخيرة»، فكل بلد يُعلِّم التاريخ بطريقة تجنح إلى جعل الصغار يعتقدون أن النصر حتمًا من نصيب جانبهم، ومن ثم تثير الميل إلى الحرب بصورة تكاد تتجاوز دائمًا في كل حالة ما يحتمله العقل، والقومية[1] في عصرنا الحاضر هي العقبة الرئيسة في سبيل ابتداء التماسك الاجتماعي إلى ما وراء الحدود

---

(١) هذا رأى المؤلف، ويغلب عليَّ الظن أنه يعني التعصب القومي الذي كان من آثاره نشوب الحربين العالميتين الأخيرتين، ولا ريب أن هناك قوميات تدعو إلى التماسك الاجتماعي على نطاق عالمي وإلى التعايش السلمي. المترجم.

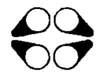
القومية، ومن ثم فهي القوة الرئيسة التي تعمل على إفناء الجنس البشري، وجميع الناس متفقون على أن قومية البلد الآخر سخيفة، ولكن قومية بلد المرء نفسه قومية نبيلة ورائعة، وأي شخص لا يستمسك بها جبان حقير، ومما هو جدير بالملاحظة أن يرى المرء كيف تعمل هذه المشاعر في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر؛ فالحزب الجمهوري بلغ من الحماسة للقومية إلى حد أنه يحقر من شأن جميع الأمم الأخرى؛ حتى تلك الأمم التي تعد ضروريةً جدًّا لنجاح السياسة الأمريكية؛ فقد كان المرء يفترض مثلًا: أن الرأي السائد هو أن تعاون بريطانيا مفيد في الموقف الدولي الراهن، ومع ذلك فإني أجد صحفًا أمريكيةً تستعمل عبارات مثل: «حيوانات الحكومة الاشتراكية البريطانية الصاخبة، ولو لم تكن الحيوانات الصاخبة قديسين (وإنهم لكذلك) فإن مثل هذه العبارة قد تجعل شعورهم نحو الأمريكيين أقل قليلًا من الشعور بالحب الجارف، وليس هناك مثل أوضح من هذا على الحقد عندما يطغى على المصلحة الذاتية؛ إذ من الواضح أن الجمهوريين يشعرون بأنه إذا كان السبيل الوحيد لازدهار أمريكا هو العمل على ازدهار الأمم الأخرى، فإنهم يفضلون ألا تزدهر أمريكا.

وليست القومية بأي حال من الأحوال القوة الوحيدة التي تحد من الصور المفيدة للتماسك الاجتماعي؛ فانظر مثلًا إلى اليونان القديمة؛ فقد كانت كل دولة في اليونان القديمة؛ باستثناء إسبرطة، مقسمةً بين الديموقراطيين وأنصار حكم القلة، وكانت مرارة الصراع الحزبي مما لا يتصوره المرء، وكان جانب على استعداد لقتل أعداد كبيرة من خصومه؛ كما كان أيضًا على استعداد لعقد محالفات مع المدن الأخرى التي يكون أصحاب السلطة فيها من نفس الحزب؛ بيد أنه لم يحدث قط أن كانت اليونان، بعد الانتصار على الفرس، مستعدةً للاتحاد في وحدة، ورغم أن الإغريق كانوا قادة المدنية، ورغم أنه كان لديهم الإحساس بالتفوق على «البرابرة»؛ فإنهم دخلوا في حروب لا طائل من ورائها بعضهم ضد بعض، وأوهنوا قواهم، إلى حد صار فيه من الممكن أن يخضعهم أعداء خارجيون، وانطفأ الصراع بين الديموقراطيين وأنصار حكم القلة،

الذي كان يبدو كأنما يهز الأرض، تحت وطأة الإمبراطورية الرومانية، ولم يعد أكثر من مجرد مهاترات في مجالس الإبرشيات. وحدث نفس الشيء لإيطاليا في عهد النهضة، وهو يحدث الآن لغرب أوروبا.

إن ما يُطلق عليه خطأً (الطبيعة البشرية) يتطلب شخصًا يصب عليه كراهيته، ولا يحس بنشوة الحياة كاملةً إلا عندما يصاب عدو بأذى، وهذه الطريقة من الشعور هي التي حدت حتى الآن من نمو التماسك الاجتماعي، الذي صار الآن ضرورةً لا بد منها إذا أُريد للجنس البشري الاستمرار؛ إن العقبات الحقيقية للتماسك الاجتماعي على نطاق عالمي توجد في نفوس الأفراد. فهي اللذة التي نستمدها من الحقد والشر والقسوة، وإذا أُريد للجنس البشري البقاء سيكون من الضروري إيجاد طريقة للحياة لا تنطوي على الانغماس في مثل هذه اللذات.

وإذا أُريد لمثل هذه الطريقة في الحياة أن تنجح فيجب ألا تكون عن طريق مجرد إنكار الذات وضبط النفس فحسب؛ بل يجب أن تتم بواسطة تغيير مصادر السعادة والنزعات اللاشعورية التي تصوغ عباراتنا الأخلاقية، ومن الممكن؛ بل ومن السهل إذا تغيرت الظروف تغييرًا طفيفًا، أن يعيش الإنسان سعيدًا -أسعد بكثير جدًّا مما يعيش أي إنسان الآن- دون شر وكراهية والرغبة في الانتصار في نضالات دموية، ولا بد للناس أن تتعلم العيش بهذه الطريقة إذا أُريد ألا يؤدي العلم والأساليب الفنية العلمية إلى كارثة؛ بيد أن هذا الموضوع يمت إلى صراع الإنسان مع نفسه الذي لا أريد أن أتحدث عنه الآن.



الفصل الثامن

حكم القوة

قد يكون التعاون بين المخلوقات الآدمية اختياريًّا من الجانبين، أو قد يكون مجرد خضوع من أحد الجانبين للقوة المتفوقة، وقد راقبت مرةً زوجًا من الغربان في الأسر أعطاهما حارسهما قطعةً كبيرةً من اللحم النيئ ليقتسماها بينهما؛ فاختطفها الغراب الذكر وضرب الأنثى بمنقاره بوحشية كلما بذلت أبسط محاولة للحصول على قضمة، وأكل كل ما استطاعت معدته أن تقبله قبل أن يسمح لزوجته بأي شيء.

وعندئذ كانت كل الأجزاء الطيبة في قطعة اللحم قد ذهبت. وتوجد هذه العلاقة بين الذكر والأنثى في كثير من أنواع الحيوان، وكانت توجد بين الكائنات الآدمية حتى سنة ١٩١٨م؛ فأمر من أكثر أمور عصرنا غرابةً هو التغير في وضع المرأة الذي انتشر بسرعة مذهلة في معظم أنحاء العالم. ومثل هذا التعاون الذي يقوم بين الرجل والمرأة في البلاد المتمدينة الآن قمين بأن ينطوي على الرضا من جانب المرأة، ومن ثم لا يعود مثلًا لحكم القوة. وهذا جزء من الاتجاه العام نحو تركيز كل استعمال للقوة المادية في يد الدولة، وقد قام تفوق الرجال على النساء كله تقريبًا على قوتهم المادية المتفوقة التي جعلت في وسعهم الادعاء بالتفوق في كل مجال آخر دون ما تحدٍّ يُذكر من جانب الشريك الأضعف؛ بيد أنه ساد شيئًا فشيئًا إدراك بأن القوة يجب ألا يستعملها الأفراد في

علاقاتهم الخاصة؛ بل ينبغي ألا تستعملها إلا الدولة طبقًا للقانون، وتحرر النساء من الرجال بقدر ما صار الاثنان عبيدًا للدولة، وهذا القول قد يكون قد صيغ على نمط المثل السائر فهو من ثم ليس صحيحًا الصحة كلها؛ بيد أنه قد يكون ذا فائدة بوصفه تركيزًا غير كامل الدقة للحقيقة.

وقد قام كل تعاون اجتماعي تقريبًا أصلًا على القوة، وكان هذا ينطبق حتى على العلاقات الجنسية عندما كانت النساء اللاتي يُؤخذن في الحروب أسيرات يُتخذن محظيات؛ فنرى الزوجات المنتصرات في «أغنية ديبوراه» «لكل قائد فتاة أو فتاتان»، والمفروض أن تعاون الفتيات لم يكن اختياريًّا.

وكذلك كانت العلاقة بين الآباء والأبناء، تقوم على القوة، ما دام الأبناء صغارًا، وعندما كان الأبناء يكبرون والآباء يهرمون كان ينقلب الموقف؛ فكانت القبائل تبيع الآباء الهرمين لقبائل مجاورة من آكلي لحوم البشر توفيرًا للنفقات، ولكن الآباء مع الوقت اتخذوا، وهم ما زالوا في عنفوانهم؛ من الإجراءات ما يجنبهم هذا المصير المزعج؛ فزرعوا في نفوس أبنائهم والأبناء ما زالوا ليني العريكة لضعفهم؛ فضيلة العطف البنوي، ويجعل (كونفوشيوس) - كما يعرف كل إنسان - من هذه الفضيلة أساس كل الفضائل الأخرى.

وتتضمن (الوصية الرابعة) ما لا بد كان قد صار؛ في وقت صياغتها؛ تقليدًا قديمًا جدًّا؛ بيد أنها تجاهلت تمامًا السبب الأصلي في الوصية، وهو تجنب التعرض للأكل في الشيخوخة.

فهي تقول[1]: (أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. وهي تعني: «أن تطول أيامنا ولكي يكون لنا خير على الأرض»، أي أننا قد ننجو من الوقوع في أيدي آكلي لحوم البشر؛ وعاطفة البنوة مثلٌ طيبٌ للطريقة التي يكتسب بها التفوق الذي كان أصلًا تفوقًا في القوة المادية إجازةً

(١) سفر التثنية، الإصحاح الخامس (١٦).

دينيةً، وبذلك يستطيع البقاء حتى بعد أن يفقد دعامته من القوة المتفوقة؛ فليس هناك سبب يدعو الأبناء إلى احترام الآباء أكثر مما يدعو الآباء إلى احترام الأبناء سوى أن الآباء أقوى من الأبناء عندما يكونون صغارًا، وبطبيعة الحال حدث نفس الشيء فيما يتعلق بالعلاقات بين الرجال والنساء؛ فقد كان واجب الزوجات الخضوع للأزواج، ولم يكن واجب الأزواج الخضوع للزوجات، وكان الأساس الوحيد لوجهة النظر هذه هو أنه إذا أمكن إقناع الزوجات بذلك لوفر ذلك على أزواجهن المشاكل؛ لأن الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل، ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل)[1].

وإني لأتحدى أي شخص يجد أساسًا لوجهة النظر هذه سوى أن للرجال عضلات أقوى من النساء.

وقد طُبق النموذج الذي يتمثل في حالة العطف البنوي على كثير من العلاقات الاجتماعية؛ فعندما تغزو أقلية ذات روح حربية أكثريةً مسالمةً، تعتمد في أول الأمر على قوتها المتفوقة فحسب؛ ولكنها تصير أرستقراطيةً وراثيةً وتبتكر بعض الحيل الأسطورية لدوام تفوقها؛ فأحيانًا يكون الغزاة من نسل الشمس، وأحيانًا من نسل آلهة آخرين، أو تجرى في عروقهم دماء زرقاء؛ أو لديهم إحساس بالشرف ينكرون وجوده عند العامة؛ أو أنهم أسمى ذكاءً ويستطيعون فهم أمور بعيدة عن إدراك الرجل العادي؛ ولديهم، فوق كل شيء آخر، إحساس بالشرف يتطلب منهم أن يقتلوا كل من يهينهم فورًا، وتعد هذه فضيلةً كبرى... والأمر الذي يدعو إلى العجب أن الغزاة ينجحون في حمل رعاياهم على قبول وجهات النظر هذه؛ فقد كان كل رجل من أبناء العامة يلمس قبعته بيده عندما يرى سيد القصر (Lord of themanor)، ويقال إن ذلك ما زال يحدث في بعض الجهات المتطرفة. فكما يؤمن الأب الشيخ نفسه ضد ابنه البالغ عن طريق تعليمه العطف البنوي وهو ما زال صغيرًا؛ كذلك تنجح الأرستقراطيات في

---

(١) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل لورنثوس- الإصحاح الحادي عشر ٨ و ٩.

الاحتفاظ بالسلطة والثروة أمدًا طويلًا بعد أن تكون قد هرمت ولم يعد في مكنتها هزيمة العامة في قتال شريف، وذلك بواسطة الاحترام الديني الذي تبثه وهي في أوجها، وقد كان الملوك بصفة خاصة ينجحون بهذه الطريقة؛ إذ كان الملوك يحكمون بمقتضى الحق الإلهي؛ وكانوا يحظون بالحق الإلهي لأنهم أبناء آبائهم؛ بيد أنك لو رجعت إلى الوراء بدرجة كافية ستعثر على أحد الأجداد لم يكن لديه سوى حق القوة واستولى على العرش بقوة السلاح.

وإن قصر الوقت الذي يحتاج إليه الحق الإلهي حتى يؤتي ثماره لممَّا يدعو إلى العجب؛ فقد حكم (شارل الأول) بالحق الإلهي لأن هنري السابع انتصر في معركة (بوزوورث)، وأولئك الذين يستفيدون من وراء عدم المساوة يكرهون الاعتراف بالأصل العسكري للتمييز الاجتماعي، وإنك لتعثر اليوم في الهند على كثير من الرجال قد استنكروا، وهم على حق؛ الغطرسة التي كان يبديها البريطانيون في تلك البلاد، وهي غطرسة لم تقم إلا على النصر العسكري؛ بيد أن هؤلاء الرجال أنفسهم كثيرًا ما لا يكون لديهم من اعتراض على نظام المنبوذين؛ رغم أن هذا النظام أيضًا أصله تفوق الغزاة الآريين من عهد قديم؛ فعدم المساواة الذي يظل قائمًا مدةً كافيةً تحيط به هالة من الدين تُضفي عليه شرعيةً؛ بيد أن الإنجليز لم يقوموا في الهند العدد الكافي من القرون للوصول إلى هذه النتيجة.

وقد قام الرق دائمًا على الحرب؛ فالعبد إما أن يكون أسير حرب أو من سلالة أسير، والسبب الوحيد في أن أمريكا كان فيها عبيد هو أن الرجال البيض كان متفوقين على الأفريقيين في استعمال الأسلحة النارية، وقد كان للرق طوال مدة بقائه سند من الدين مثل أي لون آخر من عدم المساواة الاجتماعية؛ إذ برر بلعنة (حام)، ورغم أن السود في الولايات المتحدة أحرار الآن اسمًا؛ فإن الوصمة الاجتماعية ما زالت قائمةً؛ فلماذا يعد اغتصاب الرجل الأسود لامرأة بيضاء جريمةً أشد من اغتصاب الرجل الأبيض للمرأة السوداء؟ لا لسبب سوى أن الرجل الأبيض متفوق في المعركة، وإني لأتحدى أي

إنسان أن يجد سببًا آخر أيًّا كان.

ورغم أن حكم القوة ليس شيئًا جديرًا بالإعجاب، ورغم أن المرء لا بد أن يسر عندما يحل محله شيء أكثر وداعةً وأقل ظلمًا؛ فإنه مع ذلك لعب دورًا مفيدًا في تنمية الأنظمة الاجتماعية؛ فالحكم فن صعب، والخضوع للحكم صعب إلا بوصفه خضوعًا للقوة، وقد لعبت الحكومات التي فُرضت بالقوة دورًا يبدو أنه كان جوهريًّا في تكوين المجتمعات، ومعظم الإنجليز اليوم يخضعون لحكومتهم؛ لأنهم يدركون أن البديل يكون فوضى وخرابًا يؤديان إلى كوارث.

بيد أنه مرت أزمنة طويلة فضَّل الناس خلالها الفوضى والخراب إذا استطاعوا الحصول عليهما، وقد وقعت حروب طويلة بين ملوك وبارونات كان البارونات يقضي بعضهم على البعض فيها لحسن الحظ، وفي النهاية خرج الملك منتصرًا، وأطاعه الناس لأنه كان يستطيع إجبارهم على الطاعة، وهكذا اكتسبت المملكة وحدةً كما اكتسبت عادةً طاعة القانون. وعندما كبح جماح القوة الملكية، لم يكن ذلك عن طريق عودة الفوضى، ولكان عن طريق صور جديدة من الحكم، ومهما يكن من الأمر فإنه مما يُشك فيه تمكن حكومة واحدة مستقرة من أن تحكم البلاد جميعها دون أن تمر بمرحلة القوة الملكية.

ويمثل الانتقال من القوة الملكية إلى الديموقراطية، وهو الذي حدث في إنجلترا في الفترة ما بين (شارل الأول) والملكة (فيكتوريا)، نموذجًا لنوع من الانتقال هناك عدة أمثلة أخرى عليه، وحيثما توجد وحدة اجتماعية يوجد بالضرورة حكم، وقوة الحكم هي التي تكسب الجماعة التي يتعلق بها الأمر تماسكًا؛ بيد أنه بمجرد أن تتكون الجماعة؛ بأي طريقة كانت؛ قد تتغير صورة الحكم فيها دون تغيير في تكوين الجماعة، وكثيرًا جدًّا ما تكون أصعب مرحلة هي تكوين جماعة حكومية موحدة، وتأتي بعدها التغيرات اللاحقة في صورة الحكم بسهولة أكثر كثيرًا.

ولا يمكن تكوين جماعة حكومية موحدة دون بعض الحد من نزعات الفوضى،

وتحقيق ذلك يكون أسهل جدًّا إذا كان الكبح سينصب على الأعضاء الضعفاء في الجماعة فقط، بينما يجد الأعضاء الأقوياء زعامتهم التي كانت فوضويةً فيما مضى قد تحولت إلى ممارسة قوة الحكم؛ إن الأبناء في العهد الفيكتوري لم يكن لهم أن يحدثوا أصواتًا وأبوهم نائم، ولكن الآباء كان لهم أن يحدثوا أصواتًا في أي وقت شاءوا، ونزعة الأب إذ يزجر الأطفال عندما يزعجونه في نومه كانت تكون اعتداءً فوضويًّا لو لم تكن جماعة العائلة موجودةً، ولكنها لما كانت موجودةً فإن ما يفعله هو ممارسة لواجب سليم من واجبات التربية الأبوية.

وبهذه الطريقة أمكن تكوين الجماعات الاجتماعية دون ما تدخل كبير في أنماط العمل التي كانت موجودةً قبل تكوين الجماعات؛ إلا عندما يتعلق الأمر بالضعفاء، ولنأخذ القتل مثلًا؛ عندما تحكم أرستقراطية غازية منطقةً ما قد يؤخذ كقاعدة عامة أن الذين في وضع اجتماعي أدنى يجب ألا يقتلوا من هم في وضع اجتماعي أعى؛ بل وألا يقتلوا بعضهم البعض، ولكن عندما يقتل من هم في وضع اجتماعي أعلى من هم في وضع اجتماعي أدنى، فإن ذلك يكون من باب الإعدام القائم عى العدل، والواقع أن المتفوقين اجتماعيًّا يستطيعون؛ إذا لم يكونوا في عجلة من أمرهم؛ أن يحققوا ما يبتغون عن طريق عمل القانون، وتخفق عادةً محاولات تكوين الجامعات عن طريق التعاون الاختياري البحت؛ لأن أي نوع من الحكم يتكون في مثل هذه الجماعات لا يتمتع باحترام تقليدي، ويغلب ألا يسمح له بالقدر الكافي من القوة لفرض الاحترام.

وأهم تطبيق لهذا المبدأ في الوقت الحاضر هو تطبيقه على الحكومة العالمية؛ إذ إن وجود حكومة واحدة للكرة الأرضية أمر لا غنى عنه لمنع الحرب؛ بيد أنه من المؤكد أن أي حكومة تتكون على أساس الاتفاق المتبادل؛ كما تكونت كل من عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة؛ ستكون ضعيفةً لأن الأمم التي تتكون منها ستشعر؛ كما شعر سادة الإقطاع في العصور الوسطى؛ بأن الفوضى خير من فقد الاستقلال، وكما اعتمد إحلال الخضوع للحكم المنظم في العصور الوسطى محل الفوضى على انتصار القوة

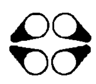
الملكية؛ فكذلك سيحل الخضوع للنظام في العلاقات الدولية محل الفوضى؛ إذ تم؛ عن طريق القوة المتفوقة لأمة بذاتها أو لمجموعة من الأمم، ولن يتيسر التطور نحو صورة ديموقراطية من الحكم العالمي إلا بعد أن تتكون مثل هذه الحكومة الواحدة.

وتلقى وجهة النظر هذه؛ التي ظللتُ أعتنقها طوال السنوات الثلاثين الماضية؛ معارضةً قويةً من جميع أصحاب الاتجاه المتحرر، وكذلك من كل القوميين في أي أمة، وأنا موافق بطبيعة الحال أنه أفضل بكثير أن تتكون حكومة عالمية بالاتفاق، ولكني واثق كل الثقة من أن حب الاستقلال القومي أقوى من أن يسمح لمثل هذه الحكومة بأي قوة فعالة، وعندما تظل حكومة واحدة، يتمثل فيها التفوق العسكري لأمة أو لمجموعة من الأمم، محتفظةً بالسلطة لمدة قرن أو ما يقرب من ذلك ستبدأ تحظى بذلك القدر من الاحترام الذي يجعل في مكنتها أن تقيم سلطتها على القانون والمشاعر أكثر مما تقيمها على القوة؛ وعندما يحدث ذلك تستطيع الحكومة العالمية أن تصير ديموقراطية، ولست أقول إن هذا الوضع مما تسر له النفس، ولكني أقول إن نزعات الفوضى لدى الناس أقوى من أن تستطيع التسليم أمام أي شيء في مبدأ الأمر سوى القوة المتفوقة.

وما كان الأمر ليكون كذلك لو أن الناس كانوا أكثر عقليةً أو أقل امتلاءً بالكراهية والخوف، ولكن ما دام النوع الحاضر من الشعور القومي باقيًا ستقابل أي محاولة لإنشاء حكومة عالمية قوية حقيقة بدعاية لا تقاوم: «هل تفضلون الحياة عبيدًا على الموت أحرارًا؟» هذا هو النداء الذي سيتوجه به أبطال الاستقلال القومي إلى الناس.

وفي كل أُمة يسود فيها أمل كبير في الحياة؛ لا الموت، وأن يعيش أفرادها أحرارًا سيكون الجواب على هذا النداء البليغ هتافًا عامًّا للموت في سبيل الحرية، ولن أذهب إلى أنه ليس هناك أمل في وسيلة أفضل لوضع حد للفوضى الدولية؛ بل إن ما أقوله هو أن لا أمل هناك في مثل هذه الوسيلة إلا إذا تغير الأفراد كثيرًا عما هم الآن، وحتى يحدث ذلك لا يوجد مثل هذا الأمل.

وسيكون من الضروري أن يقل شعور الأفراد بالعداء والخوف نحو أفراد آخرين، وأن يكون لديهم اطمئنان أكثر فيما يتعلق بحياتهم ذاتها؛ وكذلك إدراك أكثر وضوحًا للحاجة القصوى إلى تعاون على نطاق عالمي في هذا العالم الذي خلقته الأساليب الفنية الحديثة، ولكن هل يستطيع الفهد أن يغير لونه؟ إني أعتقد أنه يستطيع؛ بيد أنه إذا لم يستطع، فلا بد أن يتعرض لكوارث مروعة.



الفصل التاسع

القانون

كثيرًا ما يُمثل القانون بوصفه بديلًا للقوة؛ بيد أن ذلك خطأ؛ فالقانون هو مجرد طريقة لتنظيم القوة وتركيزها ونقلها من الأفراد إلى الجماعات أومن جماعات صغيرة إلى جماعات أكبر؛ فالسائد في المجتمعات المتمدينة أن القوة ينبغي ألا تُستعمل بواسطة الأفراد، ولكن ينبغي ألا تمارسها سوى الدولية طبقًا لقواعد معينة، ومن هذه القواعد يتكون القانون، وهناك استثناءات دائمًا؛ فالإنسان مسموح له باستخدام القوة في حالة الدفاع عن النفس: ويسمح له في كثير من البلاد بارتكاب القتل إذا وجد زوجته ترتكب خيانةً زوجيةً، وفي البلاد التي يسيطر فيها البيض بالقوة على الملونين ينظر القضاة من البيض إلى اعتداءات الرجال البيض على الملونين بتساهل كبير، وعندما يحدث شغب لأسباب عنصرية؛ مثل ذلك الذي وقع في ديترويت منذ بضع سنوات؛ يعامل الشرطة الملونين بقسوة أكثر بكثير مما يعاملون البيض، وفي أمريكا منذ حوالي خمسين سنةً مضت كان إذا وقع إضراب في جهة من جهات التعدين؛ يعد من الأمور العادية المألوفة قيام أبناء أصحاب المناجم بعد أن يتناولوا عشاءهم برحلة في قرى المعدنين حيث يطلقون الرصاص على كل من يتراءى لهم فيها؛ بيد أن أي معاملةً بالمثل من جانب الفقراء ضد الأغنياء كانت تقابل بعقاب رادع.

ولعله قد يكون من الجائز أن نصرف النظر عن مثل هذه الأمثلة بوصفها تطرفًا غير قانوني قد يمكن التسامح فيما يتعلق به، ولكن ذلك لا يكون إلا حينما تبدي السلطات

تهاونًا معيبًا؛ إن ما هو أكثر من ذلك خطورةً بكثير هو رفض الحكومات في أجزاء كثيرة من العالم أن تتقيد بقواعد قانونية يمكن التثبت منها في ممارستها لسلطاتها في القبض على الناس وسجنهم؛ فالدستور الأمريكي مثلًا يحرم؛ تحت تأثير مبدأ حقوق الإنسان؛ على الحكومة أن تسلب أي إنسان حياته أو ممتلكاته إلا بعد محاكمته بالطريقة التي يحددها القانون؛ كما قرر أيضًا أن أي قانون يحاكم بمقتضاه الشخص يجب أن يكون قد وجد فعلًا وقت ارتكاب العمل الذي يحاكم من أجله، ويعترف الإنجليز اعترافًا اسميًّا بحدود مشابهة على حق القبض والسجن، ولكنهم مستعدون تمامًا من الوجهة العملية للسماح باستثناءات في الأوقات العصبية، وقد خرقوا هذا المبدأ باستمرار في إيرلندا وفي الهند عندما كان يحكمون هذين البلدين. وتقلد الهند الآن، وقد صارت تحكم نفسها بنفسها، البريطانيين بإخلاص في هذا المجال؛ كما أن ما فعله النازيون في هذا المجال وما تفعله حتى الآن الحكومة السوفيتية شيء يعرفه الجميع. بيد أنه على الرغم من أن حكم القانون يخضع في معظم البلاد وفي معظم الأوقات لحدود بذاتها؛ فإنه مع ذلك من الأهمية بمكان ويحكم قسمًا كبيرًا جدًّا من العلاقات البشرية القمينة بأن تثير المنازعات.

وقد كان القانون أصلًا تقنينًا لسلطة الجماعات المسيطرة، ولم يكن يهدف إلى ما يمكن أن يعتبر عدالةً في نظر الإنسان الحديث؛ ففي كثير من القبائل الجرمانية مثلًا كان يحكم عليك إذا ارتكبت جريمة قتل بغرامة يتوقف مقدارها على المركز الاجتماعي لضحيتك، وحيثما وجدت الأرستقراطية كان أعضاؤها يتمتعون بعدة امتيازات لا يحظى بها العامة؛ ففي اليابان قبل بدء عهد «الميجي» (Meigi) كان الرجل إذا لم يبتسم في حضرة من يفوقه في المركز الاجتماعي يتعرض للقتل قانونًا في التو واللحظة بواسطة هذا الشخص الذي يفوقه، ويفسر ذلك السبب في أن الرحالة الأوروبيين يجدون اليابانيين شعبًا باسمًا.

واعتبار مثل الأمور المنافية للعدالة في القانون البدائي خطأً يكون أمرًا سخيفًا ولا

يقوم على أساس تاريخي؛ فلو لم توجد لما احترم الأقوياء القانون، ومن ثم لما قامت له قائمة على دعائم ثابتة؛ إذ من الأفضل بصفة عامة في معظم الأزمنة ومعظم الأماكن أن يكون هناك نظام قانوني سيئ على ألا يكون هناك قانون بتاتًا، وليس هذا بطبيعة الحال مبدأً مطلقًا؛ فهناك مناسبات تتطلب ثورةً، ويكون فيها التعرض لفترة من الفوضى بغية الوصول إلى حكم أقل طغيانًا وظلمًا من الحكم القائم أمرًا يستحق المحاولة.

بيد أن هذه الفترات نادرة بالضرورة، وحيثما تنتشر الثورة بشكل وبائي؛ كما حدث أحيانًا في بعض أجزاء أمريكا الجنوبية؛ فإن النتائج قمينة بأن تكون أسوأ حتى من تلك التي تترتب على قوانين غير عادلة تُفرض وتُطاع.

بيد أن القانون ليس مجرد وسيلة لإضفاء صيغة نظامية على حكم القوي؛ بل هو أيضًا وسيلة لإضفاء النظام على العلاقات الاجتماعية بين الأكفاء؛ فمثلًا قد يرغب رجل في جهة بها أرستقراطية مكونة من أصحاب الأراضي في أن يترك أرضه لأبنائه وأن يحس بأن ملكيتهم لها ستكون في أمان حتى لو مات عنهم أطفالًا؛ ولا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا استخدمت قوة الدولة في صيانة حقوقهم؛ إذ من دون ذلك سيتعرضون لمصير الأطفال[1] في الغابة؛ ففي مثل هذه الحالة يمثل القانون رغبة غالبية الفئة المسيطرة؛ حتى عندما تصطدم هذه الرغبات برغبات رجال أفراد أقوياء.

وفيما عدا عقاب القتل تتعلق أهم وظيفة للقانون في عهوده الأولى بنظام الملكية، وللملكية بطبيعة الحال؛ أساس فيما يطلق عليه القرن السابع عشر عبارة «القانون الطبيعي»؛ فمنزل الرجل وقطعة الأرض المحيطة به التي يفلحها بنفسه يحس بقية أعضاء قبيلته أنهما له، ويحميهما العرف حتى قبل أن يحميها القانون.

بيد أن المرحلة التي مر بها مفهوم الملكية من هذا الأصل البدائي إلى ما وصل إليه في المجتمعات الرأسمالية الحديثة رحلة طويلة، وهناك؛ بصفة عامة، مصدران مبدئيان للملكية: فهناك من ناحية ما يدعيه الشخص من حق في نتاج عمله هو، وهناك من ناحية

---

(١) يشير رسل إلى القصة المشهورة قصة «الأطفال في الغابة» «Babes in the wood».

أخرى حق ملكيته للأرض التي اكتسبها بالغزو، ومع مرور الوقت تحول الرجل الذي لا يملك سوى الحق الأول إلى (قِن)، بينما تحول الثاني إلى سيد من سادة الإقطاع.

وبمجيء الإنتاج الآلي يختلط الأمر فيما يتعلق بهذين المصدرين لحق الملكية؛ فليس هناك من ينتج وحده أي شيء كامل في الصناعة الآلية، ولنفترض مثلًا أنك تعمل في عملية تجميع أجزاء سيارة «فورد»؛ فمن يستطيع تقدير الجزء الذي أنتجته من السيارة في مجموعها؟ أو لنسر شوطًا أبعد، افترض أنك تعمل كاتبًا في قسم حسابات الشركة؛ فلا ريب في أنك جزء منهم من التنظيم الذي يؤدي إلى إنتاج السيارات، ولكن ليس هناك أي مبدأ من العدالة الأولية يمكن على أساسه تقدير عدد السيارات التي ينبغي أن تكون من نصيبك؛ وينطبق نفس الشيء على ملكية الأرض؛ إن وليم الفاتح؛ أعطى باروناته أرضًا أخذها من ملاكها السكسونيين؛ وانتقلت الأرض من هؤلاء البارونات خطوةً فخطوةً بالبيع أو الميراث إلى ملاكها الحاليين، وعندما جاءت الثورة الصناعية ظهر أن بعض هذه الأراضي له قيمة هائلة، وبعضها لا يكاد تكون له قيمة.

بيد أن الأراضي ذات القيمة استمدت قيمتها من العمل ورأس المال، وليس من أي شيء قام به صاحب الأرض، وحينما كان في استطاعة صاحب الأرض الاحتفاظ بالقوة السياسية استمر قادرًا على اقتضاء الإيجار؛ بل وعلى سن القوانين التي تزيد مقدار الإيجار الذي يستطيع اقتضاءه؛ مثل (قانون الغلال)، ولكن عندما فقد صاحب الأرض القوة السياسية أصبحت مثل هذه الأمور تعد غير عادلة، ومن ثم هبط دخله بسرعة، ومن العسير تمامًا وضع مثل هذه الأمور في مكانها المناسب داخل إطار حقوق الملكية البدائية مثل تلك التي قد توجد في قبيلة نصف متمدينة، والواقع أن مفهوم الملكية كله مشوش بسبب اختلاط التقاليد القديمة بالأساليب الفنية الحديثة، ورغم أنه لا يزال يوجد في العالم الحديث كثير من صور الملكية التي تعد (طبيعيةً) بمعنى ما؛ فهناك صور أخرى كثيرة خلقها القانون مثل حق المؤلف وحقوق التسجيل، وكل تلك التعقيدات الهائلة في قوانين الشركات، وطوال فترة التطور من عهد (حمورابي) إلى الوقت الحاضر

تعرض القانون لتلك التغيرات التي من شأنها نقل الثروة من أصحاب القوة السابقين إلى أصحابها الجدد؛ فهل هناك من يفترض أنه كان من الممكن صدور قوانين مثل (تشريعات تحديد الإيجار) (وتشريعات تعويض العمال) إلا في ديموقراطية؟ وكلنا نتذكر أن ضرائب التركات على الأرض، وهي نوع من المصادرة التدريجية؛ لم تأت إلا نتيجةً لمعركة سياسية من الطراز الأول، والواقع أن الملكية هي ما تريد الجماعة المسيطرة سياسيًّا أن تكونه، وفي كل مرحلة تبدو الملكية لصانعي القوانين شيئًا أكثر من ذلك؛ فهي تبدو وكأنما تمثل فيها؛ إما حقًّا طبيعيًّا، أو مبدأً من مبادئ العدالة.

بيد أن الحقوق الطبيعية والعدالة على السواء يختلفان من وقت لآخر مع تغير المفاهيم الأخلاقية بانتقال القوة من جماعة إلى جماعة، وفيما عدا المزايا أو المساوئ التي يتضمنها أي نظام قانوني بذاته؛ هناك خدمات معينة يقوم بها القانون من أجل المجتمع؛ فهو يقلل من فرص العنف الفردي؛ كما يحل متوسط مصلحة الجماعة التي تملك القوة محل المصلحة الشخصية لكل فرد بذاته، وينشئ نوعًا من عدم التحيز بين الأعضاء المختلفين في هذه الجماعة؛ حيث إن الشخص الذي قد يجد نفسه مضطرًا للمثول أمام المحكمة لم يعد يقضي بنفسه في قضيته؛ زد إلى ذلك أن القانون؛ كقاعدة عامة؛ يعترف ببعض الحقوق لمن لا ينتمون إلى الجماعة المسيطرة حتى يتجنب خطر التمرد؛ كما يعمل القانون؛ حيثما يكون راسخًا منذ أمد طويل؛ على ضمور نزعات العنف بصورة جزئية؛ فالمتمدينون لا يلتجئون إلى استعمال القوة المادية في مناقشاتهم بعضهم مع البعض كما لو لم يكن هناك قانون، ولما كان القتل والسرقة غير مجزيين بصفة عامة لمقترفيهما؛ فإنهما لم يعودا من بين أنماط السلوك المقبولة، ومن ثم فإن النزوع إلى ارتكابها يقل؛ فالرجل المتمدين لا يختلف عن الرجل غير المتمدين في التعليم والمعرفة فحسب؛ بل في العادات والنزعات أيضًا؛ لأنه رغم وجود طاقة معينة في كل إنسان تدفع إلى العمل؛ فإن العمل الذي يعيش فيه المرء؛ بحيث إن الرجل في مجتمع ما قد تكون لديه نزعات قوية نحو نوع من العمل لا يجرؤ حتى على أن يحلم

به إذا كان يعيش في نوع آخر من المجتمعات؛ فمعظم الناس يمتنعون عن القتل؛ لا بواسطة ممارسة ضبط النفس الشديد. ولكن لأن فكرة القتل لم تطرأ على بالهم قط، وبهذا يصير ما بدأ بوصفه حكم القوة جزءًا من طابع الإنسان بالتدريج ولا يعود يحس به قيدًا على حرية؛ فالقانون ضروري لتكوين العادات التي تجعل الإنسان الاجتماعي ممكنًا، ولا يمكن وجود الاتساق الاجتماعي دون تلك العادات التي تؤدي إلى نبذل العنف، وإني أفترض أننا جميعًا نريد مجتمعًا يقل فيه التحريم والقوة إلى أقصى حد ممكن ويتصرف فيه الناس تلقائيًّا بطريقة تؤدي إلى التعاون الاجتماعي، ولكن أعتقد أن السبيل إلى هذا المجتمع لا بد أن يكون بالضرورة عن طريق تنفيذ القانون بالقوة؛ حيث إن العادات الحسنة لن تتكون أبدًا من دون ذلك ولن تتيسر للمجتمع الإمكانيات التي تترتب على العادات الحسنة.

وهناك مفهوم للعدالة مرتبط في أذهان الناس بالقانون، وإن كان في الواقع شيئًا مختلفًا تمامًا؛ كما أن الديموقراطيين الحديثين يتصورون العدالة بطريقة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي كانت العدالة تُتصور بها في الأزمنة الماضية، و(جمهورية) أفلاطون تعد من ناحية الشكل محاولةً لتعريف العدالة، وبعد مناقشة ضافية تصل إلى تلك النتيجة الشائعة وهي أن العدالة تتكون من إعطاء كل شخص حقه، وأي ما هو عدل أن يعطي له، وقد اعتبر كل خلفاء أفلاطون، تقريبًا؛ أن هذا الرأي العادي ينطوي على عمق هائل؛ ولكن لو أن شخصًا أقل قدرًا قال بذلك لأشار البعض إلى أن هذا التعريف دائري، ويستطيع المرء بطبيعة الحال أن يتجنب هذه الدائرية بالقول بأن حق الشخص يقاس بخدماته للمجتمع، ولكني لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن قياس خدماته للمجتمع، وقارن بين خباز ومغني أوبرا؛ فأنت تستطيع أن تعيش من دون خدمات مغني الأوبرا ولكن ليس من دون خدمات الخباز، ولك على هذا الأساس أن تقول إن الخباز يؤدي للمجتمع خدمةً أعظم، بيد أنه ما من محبٍّ للموسيقى يُوافق على ذلك. فمن المستحيل أن نحدد بطريقة شاملة منظمة مفهوم المكافأة بأكمله الذي

ينطوي عليه أي مفهوم آخر للعدالة غير مفهوم المساواة؛ ففي الماضي مثلًا كان الرأي السائد باستمرار هو أن المرء يزداد قدرًا كلما زادت قوته، ولكن وجهة النظر هذه صارت تواجه تحت تأثير الديموقراطية تحديًا متزايدًا.

بيد أنه رغم أن المساواة هي المفهوم الأساسي الذي يستعمله المؤمنون بالديموقراطية الحديثة في تعريف العدالة؛ فإن هناك باستمرار بعض المزيج من فكرة المكافأة. والواقع أن «العدالة» مفهوم يشوب أفكار معظم الناس فيه قدر كبير من الخلط؛ فمعظم الناس يعتبرون أن بلوغ المرء درجةً غير عادية من «الفضل»[1] أو عكسه يبرر معالمته معاملة غير عادية؛ فهم لا يعترضون على مكافأة العاملين للمصلحة العامة الذين أدوا خدمةً ظاهرة؛ كما إن اعتقادهم في صواب عقاب المجرمين نادرًا ما يكون قائمًا كله على فكرة الردع في العقوبة؛ بل لقد ذهب المتحمسون من أنصار الرأسمالية إلى أن رجال الأعمال الناجحين الذين يكونون ثروات ضخمةً يستحقون ما أصابوه من نجاح تثمره جهودهم من منفعة، ومن العسير في نظري الدفاع عن وجهة النظر المتطرفة هذه.

بيد أنه لا بد بصفة عامة من الاعتراف بأن المجتمع يستفيد إذا كانت هناك مكافأة على العمل وجزاء على العمل المضر.

ومن ثم فلست أعتقد أن المساواة القاطعة مما يمكن تحبيذه؛ وأرى أن ما يمكن أن يقال بحق هو أن كل لون من ألوان عدم المساواة يجب أن يكون له ما يبرره من نتائجه، وليس من مفهوم مجرد عن الفضل أو عكسه، فإذا كان مع الجريمة يكون أتم عن طريق مكافأة المجرمين بدلًا من عقابهم؛ فإني أكون إلى جانب مكافأتهم، وإني لأستطيع أن أتصور نظامًا يعتقد الناس في ظله أن كل مجرم صدر عليه حكم بالإدانة يعدم شنقًا؛ بينما يرسل المجرمون في الحقيقة إلى جزيرة نائية جميلة يتمتعون فيها بنعمة الكسل الكامل،

---

(١) مما يؤيد وجهة نظر المؤلف في هذا الصدد، أني بحثت عن تعبير عربي يؤدي معنى Merit، فعثرت على ثمانيَ كلمات عربية لهذا اللفظ، منها سبع تتصل بالجدارة والمكافأة والجزاء والاستحقاق، وواحدة فقط هي التي يمكن أن تعتبر محايدة. المترجم.

ويكون مثل هذا النظام رادعًا للغير دون أن يكون انتقاميًّا، والاعتراض الوحيد الذي أستطيع أن أتصوره عليه؛ هو أنه من المؤكد أن يقوم صحفي داهية باكتشاف الحقيقة ونشرها، ولا أستطيع أن أتصور اعتراضًا على هذا النظام أساسه أن المجرمين سيكونون سعداء؛ إذ لولا الحاجة إلى ردع الإجرام لكان من المرغوب فيه إسعاد المجرمين مثل أي فئة أخرى من الناس.

ومن ثم فإني أعتقد أن المرء يجب أن يقول إن مبدأ العدالة يتطلب المساواة باستثناء الحالات التي يثبت فيها أن عدم المساواة يحقق فائدةً اجتماعيةً.

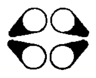
بيد أن العالم لم يقترب في أي بقعة من بقاعِهِ من العدالة حتى بهذا المعنى الضيق؛ فهناك ألوان من عدم المساواة العنصرية البشعة ترى أبرز أمثلتها في معاملة الزنوج، وما زالت هناك ألوان من عدم المساواة فيما يتعلق بالنساء؛ حتى في إنجلترا التي لا يحظى فيها مبدأ الأجور المتساوية مقابل أعمال متساوية بالقبول، وما زال هناك الميراث؛ الذي يتيح امتيازًا لأبناء الأغنياء؛ ففي جميع مثل هذه الحالات، توجد ألوان من عدم المساواة لا يمكن تبريرها على أساس مبدأ النتائج المفيدة، وينبغي الحكم على مثل هذه الحالات بأنها غير عادلة؛ ويجب العمل، إن أمكن، على تغيير القانون عندما يكون سندًا لها، وليس ذلك على أساس مجرد من أن العدالة هنا شيء سيئ؛ بل على الأساس الملموس من أنها تُولِّد التبرم وتشبع القلق الاجتماعي؛ فكل اقتراب من المساواة؛ إذا كانت الظروف الأخرى محايدةً، يؤدي إلى الاستقرار الاجتماعي، والاستقرار الاجتماعي هو هدف القانون.

إن التفكير في العدالة قد حملنا تقريبًا إلى موضوع صراع الطبقات، وقد اعتقد «ماركس» كما يعرف الجميع؛ أن صراع الطبقات كان دائمًا لسبب الأساسي في التغيير الاجتماعي؛ وأنه سيستمر كذلك حتى ينتصر أتباعه، وبعد ذلك يعيش الناس سعداء إلى الأبد؛ كما لو كانت نهاية قصة خرافية.

بيد أن (ماركس) نفسه لم يهتم بالعدالة ولكن بالتذمر فقط؛ فإنه أمر محتوم، على حد

قوله أن يكون المحرومون متذمرين وأن يكونوا أغلبيةً - ومن هنا ينبثق عدم الاستقرار والثورات وحرب الطبقات... إلخ؛ فالدافع في العملية كلها التي يقوم عليها نظامه ليس أي مبدأ إيجابي من العدالة، ولكن مبدأ سلبي بحت من الكراهية. ولا أعتقد أنه يمكن خلق نظام اجتماعي طيب من مثل هذا المبدأ؛ فكما رأينا في الاتحاد السوفييتي؛ عندما يحظى بالسلطة أشخاص القوة الدافعة لديهم هي الحقد فإنهم يستمرون بحكم العادة في الحقد، ومن ثم ينقلبون بعضهم على بعض؛ والنتيجة الوحيدة الممكنة لمثل هذه السيكولوجية هي الدكتاتورية والدولة البوليسية، ويصور لنا هذا المبدأ الذي قد ينساه الماركسيون، هو أنه ليس ما يُفعل هو المهم فحسب؛ بل لماذا يُفعل أيضًا؛ حيث إن جميع الانفعالات؛ الطيبة والسيئة على السواء؛ لها قوة اندفاع معينة وتنحو إلى العمل على بقاء ذاتها: «إنك لا تجمع التين من الحسك».

بيد أن ماركس، لم يكن من قارئي «العهد الجديد».



الفصل العاشر

الصراع بين أساليب الحياة

لقد قُوبل كل نوع جديد من الأساليب الفنية طوال التاريخ المعروف بمعارضة شديدة من النوع الذي يتسم بالروح الحربية في الغالب، وما برح هذا هو الحال حتى يومنا الحاضر. وأول صور هذا الصراع في حدود المعروف تاريخيًّا هو الصراع بين الزرَّاع والرعاة الرحَّل، ويبدأ هذا بغزو الهكسوس لمصر؛ فقد ظلت مصر قرونًا طويلةً؛ بعد أن صارت بلادًا زراعيةً مستقرةً؛ مهددةً من حدودها الشرقية بواسطة قبائل الرحَّل؛ وعندما كان الضعف ينتاب حكومة مصر لأي سبب من الأسباب تصير هذه القبائل مصدر خطر على أسلوب الحياة المتمدينة التي أقامها المصريون، وما زلنا نستطيع أن نرى آثارًا من هذه الحالة العقلية في قصة «يوسف» وإخوته حيث يقال لنا إن «كل راع مكروه من المصريين»، ولا يعني هذا أنهم كانوا يخشون أن تهلك غلالهم النامية تحت أقدام الخراف والماشية فحسب؛ إن كلمة مكروه هنا Abomination تحمل معنى دينيًّا ينبئ عن شيء شرير وبشع وليس مجرد شيء مزعج فحسب.

وكان لدى الرعاة شعور مقابل، وإن كان مختلفًا بعض الشيء؛ فقد كانوا يحسون بأن الناس الذين قيدوا بالأرض والذين يضطرون إلى العمل بظهور منحنية طوال حر النهار جديرون بنوع من الازدراء إذا قُورنوا بأولئك الذين يتمتعون بالحياة الطليقة في

المساحات المفتوحة ويستطيعون الانتقال -عندما يتراءى لهم- إلى غابات أخرى ومراع جديدة، ولم ينقضِ هذا الإحساس حتى الآن؛ فما زال يوجد لدى أولئك الشبان الذين يجدون متعةً في قراءة القصص عن حياة رعاة البقر في الجزء الغربي من الولايات الأمريكية، وتصور هؤلاء الشبّان وقد نموا جثمانيًّا ولم ينضجوا عقليًّا؛ تصورهم فقراء ممتلئين حيويةً ويعيشون على حدود بلد غني متداع؛ وستجد عندئذ موقفًا تكرر المرة بعد المرة في التاريخ البشري، وكان أبرز مثل هو ما حدث عندما دمر البرابرة «الإمبراطورية الغربية، وغزا العرب الإمبراطورية الشرقية».

وكان الرُّحَّل كقاعدة عامة أقل حظًّا من التعليم في أول الأمر من السكَّان الزراعيين الذين غزوهم.

بيد أنه عندما يكون الرحَّل أقل عددًا بكثير من الشعب الذي أخضعوه كما كان الحال عادةً، يصيرون أُرستقراطية ضئيلة العدد متفرقةً في أماكن متباعدة، ويجدون التمتع بثروتهم الجديدة أكمل عندما يعتنقون بعض أساليب المدنية؛ وقد حدث هذا مثلًا عندما غزا المغول الصين؛ فقد كان «كوبلاي خان» رجلًا على قدر سام من الثقافة، يستطيع تمامًا أن يجد متعةً في المباهج الحضارية من بناء القباب إلى غير ذلك؛ برغم أن جده كان من البرابرة الهمج، ولم يصب تيوديوريك ملك «القوط» نجاحًا مماثلًا لأنه رغم السنوات الطوال التي وجد خلالها متعةً في الحديث إلى «بوينبوس» **Boenbuius**، انفجرت همجيته في النهاية عندما قرر قتل هذا الفيلسوف. والعرب هم أكمل مثل على هذه العملية؛ حيث إنهم اكتسبوا في وقت قصير جدًّا كثيرًا من أفضل ما كان في المدينة البيزنطية، وحافظوا عليه طوال القرون التي توارت أوروبا فيها عن الأنظار.

وكان لوجود جماعات من الرحَّل ذوي الروح الحربية على حدود سكان زراعيين مسالمين تأثير كبير في عرقلة نمو المدنية؛ فحتى العصور الحديثة لم يكن المتمدينون - كقاعدة عامة - يتقنون القتال كما يتقنه غير المتمدينين، وقد كان هناك بطبيعة الحال استثناءات لذلك؛ إذ استطاع الرومانيون أن يهزموا البرابرة؛ الذين كانوا أقل منهم مدنيةً،

ولكنهم استطاعوا أن يهزموا الإغريق الذين كانوا أكثر مدنيةً، لقد كانت الحياة المتمدينة في معظم الأوقات لا تحظى بالأمن؛ بسبب تعرضها لخطر الغزو من جانب جيران غير متمدينين تسودهم الروح الحربية.

وقد حدث هذا في بعض الأحيان نتيجةً لتطور داخلي محض لا علاقة له بالغزو الخارجي، وتصور لنا (ليدي موراساكي) مجتمعًا متمدينًا أنيقًا؛ يقع فيه رجل في حب سيدة لم يرها في حياته بسبب جمال خطها في الكتابة، ولكن المجتمع كله دمر على يد جنود غلاظ كانت لديهم حيوية ولم يكن لديهم ثقافة.

وقد كانت إحدى العصوبات الكبرى التي واجهها القسم المتمدين من الجنس البشرى في العصور الماضية هي الاحتفاظ بالقدرة الحربية رغم الثروة والراحة والاستقرار في الحياة، والاعتقاد السائد أن الإنسان الحديث قد حل هذه المشكلة إذ اخترع القنبلة الذرية، ولكن لعل هذا الرأي متفائل أكثر مما ينبغي، وأيًّا كان الأمر فإن غزوات الرحَّل لم تزد في رقعة المناطق التي يسكنها الرحَّل؛ بل على النقيض من ذلك، لقد جعلتهم هذه الغزوات يقدرون المزايا التي تستطيع الأرستقراطية الحصول عليها بواسطة جهود رقيق الأرض، من ثم أدى ذلك؛ بصورة عامة، إلى ازدياد رقعة الأرض المخصصة للزراعة، وهذا مثل على حقيقة أن الأسلوب الفني الذي يودي إلى إنتاج أفضل؛ يكاد يكون من المؤكد أن ينتشر على حساب أسلوب أقل كفايةً في الإنتاج؛ حتى إذا كان الأسلوب الأقدم عهدًا يؤدي أكثر من الآخر إلى النصر في الحرب.

وأصل الآن إلى نوع الصراع، وهو يماثل ذلك الذي درسناه من عدة نواح، وأعني به الصراع بين الشعوب التي تجوب البحار والشعوب التي ترتبط بالأرض.

وقد كان لهذا الصراع أهمية كبرى في التاريخ؛ فيبدو أن الإمبراطورية «المينووية»[١] **Minoan** قامت على القوة البحرية، وأنها لقيت نهايتها في آخر الأمر على يد القراصنة، وجاء الفينيقيون ومن بعدهم الإغريق فأسسوا لأنفسهم مدنًا في المواقع الملائمة على

(١) نسبة إلى حضارة «أقريطش» القديمة.

سواحل البحر الأبيض المتوسط، وذلك بواسطة القوة البحرية أيضًا، والقوة البحرية هي ما تمجده «الإلياذة» كما يبدو من قائمة السفن، وإذا انتقلنا إلى ما بعد ذلك بعشرين قرنًا نجد «رجال الشمال» الذين أشاعوا الرعب في أوروبا الغربية مدى ثلاثة قرون؛ فقد دمروا حضارة إيرلندا وألحقوا أضرارًا خطيرة بالمدينة الناهضة في «يوركشير»، وأنزلوا الذعر في قلوب الفرنسيين، وغزوا صقلية، عدا ما فعلوه في إنجلترا، وكان هؤلاء الرجال قد بدأوا قرصانًا، ولكنهم اكتسبوا؛ بمجرد قرصنتهم؛ كل ما في البلاد التي غزوها من مدنية، وإني لأذكر تاريخ «بيديكر» المختصر لمدينة «تاري» إذ يقول عنها: «لقد دمرت هذه المدينة تمامًا على يد وليم الشرير، وأعيد بناؤها على يد وليم الطيب، وقد كان وليم الطيب هذا من أبناء جيل لا يفصل بينه وبين القراصنة الأصليين سوى جيل واحد».

وكان من الأمور المألوفة أن يتحول القراصنة إلى تجار، وقد حدث هذا من الفينيقيين والإغريق؛ وحدث فيما بعد مع أهل البندقية، وإن كان يجب أن تذكر أن عادات القرصنة استمرت فترةً طويلةً في البندقية كما يبدو من تاريخ الحرب الصليبية الرابعة؛ إذ أرغم أهل البندقية باحتكارهم للقوة البحرية؛ الصليبيين على مهاجمة القسطنطينية بدلًا من مهاجمة الأتراك، على أساس أن المشروع الأول أكثر ربحًا. ويتعلم الإنجليز الإعجاب؛ بدريك Drake ومغامري البحر الآخرين في عهد «إليزابيث»؛ بيد أن المرء يجد عنهم صورةً أخرى مختلفةً الاختلاف كله إذا قرأ كتبًا بقلم إسباني مثل كتاب الأستاذ مادرياجا، عن «نشأة الإمبراطورية الإسبانية»؛ إذ يجد المرء فيها أنه كانت هناك مجتمعات مسالمة تعمل ما في وسعها لتحيا حياة سلام وإنتاج في بيئة جديدة، ولا يلبث «دريك»، أن يهبط عليهم فجأةً من حيث لا يدرون، ويتصرف كما كان «رجال الشمال» يتصرفون تمامًا في القرن التاسع.

ولكن الإنجليز سرعان ما تحولوا من قراصنة إلى تجار مثل «رجال الشمال» الذين سبقوهم؛ أما تفضيل مدينتهم علي مدينة الإسبان فهو موضع جدل، ويستطيع من يريد أن يستخلص العظة الأخلاقية في كاليفورنيا أن يقارن بين مراكز الإرساليات الدينية

الباقية وبين وبين قصور نجوم السينما، وأظن أن واجبنا هو أن نفضل الأولى.

وقد كان ارتياد البحر والتجارة البحرية بصفة عامة؛ رغم صلتهما بالقرصنة؛ أداةً في نشر المدينة؛ فجوَّابو البحار يلتقون بمجموعة مختلفة من العادات القومية والقبلية، وبهذه الطريقة يميلون إلى التحرر بصورة ما من التحيز، ولا تقتصر مزايا التجارة على أنها تؤدي إلى ذلك فسحب؛ بل إن لها ميزةً أخرى أعظم أهميةً؛ هي أن البائع والمشتري يقومان بأدوارهما مختارين، ولا بد أن تكون المنفعة في عملية الشراء والبيع متبادلةً؛ على الأقل في الظاهر؛ ويهيئ ذلك للشعوب المتأخرة تدريبًا في رؤية وجهة نظر الشخص الآخر وممارسة للدبلوماسية التي لا يدخل فيها عنصر الإرغام، إن الإغريق وأهل البندقية والهولنديين والبريطانيين تتمثل فيهم جميعًا آثار المدنية التي تتأتى عن طريق التجارة التي تقوم على جوب البحار. بيد أن الصلة بينها وبين القرصنة تجعل التحول إلى الاستعمار سهلًا بشكل خطير، ويصور لنا ذلك كل من الهولنديين والبريطانيين؛ إذ يمكن بسهولة فرض التجارة على من لا يريدونها بواسطة الحرب، ومثال من أدنأ الأمثلة على ذلك «حرب الأفيون» في الصين سنة ١٨٤٠م، لقد حملنا المدنية الغربية إلى الصين.

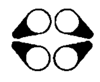
بيد أن أفضالها على أهل الصين؛ كما تتمثل في النظام الحالي[1] في هذه البلاد، أمر مشكوك فيه، إن صور الصراع التي درسناها قد صارت الآن عنيفةً؛ فلم يعد هناك سوى قلة ضئيلة من الرعاة الرحَّل، وأصبحت التجارة الخاصة مقصورةً على بضع مناطق مختلفة، وهناك في العالم الحديث صراع جديد يتسم بنفس الشدة والمرارة التي اتسمت بها الصراعات القديمة التي كنا ندرسها، والصراع الجديد بين التصنيع والزراعة التقليدية. وفي هذا الصراع تقف أوروبا وأمريكا الشمالية في مواجهة آسيا، وتتزعم روسيا؛ رغم سرعة تصنيعها؛ آسيا وتُصور لأهل هذه القارة بوصفها درعهم الواقية ضد أطماع الإنتاج الآلي الغربي؛ ولكن مركز الزراعيين في الواقع ميئوس منه في المدى

(١) كتب هذا الكتاب في سنة ١٩٥١.

الطويل؛ فالقوة الحربية في العالم الحديث متصلة بالتصنيع اتصالًا وثيقًا، وكذلك أيضًا الزراعة في البلاد الصناعية، ويستطيع المشتغلون بالزراعة في هذه البلاد الثبات في وجه التيار وأن يجنوا الأرباح عن طريق قلة الغذاء برفع الأسعار، ولكن المشتغلين بالزراعة في البلاد المختلفة لا يحظون بهذه الفرصة؛ فهم يوقفون عند الحد الأدنى للبقاء حيثما تكون لروسيا السيطرة، وفي الصين والهند يعيشون في هذا المستوى أصلًا، وهناك خطر جدي من المشتغلين بالزراعة البدائية؛ حيثما وجدوا قد يظلون تحت سيطرة التصنيع، وستقنعهم الأقوال الشيوعية المعسولة بأن يفرطوا فيما يتمتعون به من حرية ضئيلة تحت وهم أنهم بذلك يحررون أنفسهم، وعندما يدركون خطأهم تكون الجيوش والشرطة والجواسيس قد سيطروا عليهم تمامًا، وإذا لم تخف قسوة النظام السوفيتي أو ينهار هذا النظام فقد يتعرضون قرونًا طويلةً لحالة بائسة من العبودية.

بيد أن مثل هذا النظام سيكون غير مستقر وسيواجه عداءً متزايدًا من قسم من السكَّان يزيد عددهم بسرعة، وسيأتي يوم يصير فيه الصناعيون كسالى، وقد يُقضى عليهم كما قضى الهكسوس على الحكم المصري.

بيد أن هذه التأملات تشيع فيها الكآبة، ومن حسن الحظ أنها مجرد فروض، ولكن ما ليس فرضًا هو أن قوة السوفيت تقوم أساسًا؛ رغم التصنيع في روسيا، على زراعة بدائية بدرجة تزيد أو تنقص، وتواجهه مجتمعات تزداد تصنيعًا يوم بعد يوم حتى في زراعتها، وهذا صراع جديد في أساليب الحياة يماثل الصراعين الآخرين اللذين درسناهما؛ فدعنا نأمل ألا يطول هذا الصراع بقدر ما طالا، أو ينجم عنه معاناة شديدة مثل ما نجم عنهما.



الفصل الحادي عشر

الحكومة العالمية

لقد رأينا أنه لأسباب فنية من المفيد أن يزداد حجم الوحدات الاجتماعية كلما صارت الأساليب الفنية أكثر إحكامًا، ولقد نشر ماركس، هذه النظرية فيما يتعلق بالاقتصاد، وإن كان لها حتى في هذا الميدان تطبيقات لم يفكر فيها، واتجهت التجارة، في حدود ما بقي لها من وجود، إلى أن تكون علاقة تبادل تجاري بين أمم، وتقوم الحكومات في هذا التبادل بدور التاجر، والصلات بين البلاد الزراعية والصناعية، مثل تلك التي بين الأرجنتين وبريطانيا؛ من الأهمية بمكان؛ وكون كلا البلدين دولةً ذات سيادة يجعل التبادل التجاري بينهما أمرًا شائكًا يعمل على خلق العداء بين الحكومات والشعوب، وهذا بطبيعة الحال شيء سخيف؛ فالخبَّاز يحتاج إلى اللحم والجزار يحتاج إلى الخبز. ومن ثم فإن كل العوامل تدعو إلى أن يحب كل منا 'الآخر؛ حيث إن كل منهما مفيد للآخر.

بيد أنه إذا كان الجزار دولةً ذات سيادة والخباز دولةً أخرى، وإذا كان عدد الأرغفة التي يستطيع الجزار الحصول عليها مقابل ما يبادله بها من لحم متوقفًا على مهارته في استعمال المسدس؛ فمن المحتمل أن الخباز سيكف عن الإحساس بأي حب نحو الجزار، وهذا بالضبط هو الموقف فيما يتعلق بالتبادل التجاري الدولي في الوقت الحاضر؛ ولو لم يكن هذا الموقف قائمًا فعلًا لكان علينا أن نقول إن الجنس البشري

لا يمكن أن يفعل شيئًا بهذا القدر من السخف، إن الاعتماد الاقتصادي المتبادل أعظم في الوقت الحاضر منه في أي وقت مضى؛ ولكن لأسباب يرجع بعضها إلى حقيقة أن نظامنا الاقتصادي انبثق من اقتصاد يقوم على الربح الخاص، ويرجع بعضها إلى وجود السيادات القومية المنفصلة، يعمل الاعتماد المتبادل على خلق العداء بدلًا من أن يؤدي إلى الصداقة.

ولما كانت الاقتصاديات في كل مكان قد صارت مرتبطةً بالدولة بصورة تزداد وثوقًا يوما عن يوم؛ فإنها أصبحت خاضعةً أكثر فأكثر للسياسة؛ لقد ذهب «ماركس» إلى أن السياسة يحددها الاقتصاد؛ ولكن ذلك راجع إلى أنه كان ما زال تحت تأثير نزعة القرن الثامن عشر العقلية، وتصوُّر أن أكثر ما يرغب فيه الناس هو أن يصيروا أغنياء، وقد دلت التجربة منذ عهده حتى الآن على أن هناك شيئًا آخر يرغب فيه الناس أكثر من ذلك؛ هو أن يعملوا على إبقاء الآخرين فقراء، وهذا أمر لا بد أن تلعب القوة العسكرية بالضرورة دورًا كبيرًا على الفور حينما تصبح التجارة بوجه خاص بين الأمم أكثر ما بين الأفراد، ولهذا السبب صارت السياسة شيئًا فشيئًا تسيطر على الاقتصاد، ولا تظهر مزايا تزايد حجم الوحدة الاجتماعية ظهورها في الحرب، والواقع أن الحرب كانت العامل الأساسي في نمو الوحدات من العائلة إلى القبيلة، ومن القبيلة إلى الأمة، ومن الأمم إلى أحلاف من الأمم.

بيد أن بعض الناس بدأوا يرون أنه رغم كون الوحدات الكبيرة تساعد كثيرًا على الانتصار، فإن هناك شيئًا أفضل حتى من النصر، وهو تجنب الحرب؛ ففي الماضي كانت الحروب مشروعاتٍ مربحةً في كثير من الأحيان؛ فحرب «السنوات السبع» جلبت للإنجليز بكل تأكيد عائدًا مجزيًا على رأس المال الذي أنفقوه فيها؛ كما أن ما جلبته الحروب السابقة من ربح على المنتصر كان أكثر وضوحًا حتى من ذلك.

بيد أن الحرب الحديثة شيء مختلف عن ذلك تمام الاختلاف، ويرجع هذا أساسًا إلى سببين: الأول أن الأسلحة أصبحت كثيرة الكلفة بشكل هائل، والثاني: أن

الجماعات الاجتماعية التي تخوض غمار الحرب الحديثة كبيرة جدًّا. ومن الخطأ أن يظن المرء أن الحرب الحديثة تؤدي إلى تدمير الحياة أكثر مما كانت الحروب الأقل تعقيدًا تفعل في الأزمنة الماضية؛ فقد كانت إصابات الحروب في الماضي تبلغ في كثير من الأحيان حدًّا بالنسبة إلى القوات المشتركة في القتال لا يقل عما تبلغه الآن؛ وعدا من يموتون في المعارك كانت الوفيات بسبب المرض تبلغ عادةً نسبةً ضخمةً؛ فإنك تجد في التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى أن جيوشًا بأكملها تقريبًا قد استأصلها الوباء المرة بعد المرة، والقنبلة الذرية مشهد أكثر استرعاءً للنظر بطبيعة الحال، ولكن المعدل الفعلي للوفيات بين المقابلين؛ حتى عندما تستعمل القنبلة الذرية؛ لم يبلغ ما بلغه في كثير من الحروب العالمية الثانية؛ بينما يقدر ما فقدته ألمانيا خلال حرب الثلاثين عامًا بحوالي نصف سكَّانها؛ إننا نستطيع القول بصفة عامة إن التقدم الفني في فعالية الأسلحة لا يؤدي عمومًا إلى ارتفاع معدل الوفيات في الحرب.

بيد أن هناك في استعمال القنبلة الذرية والهيدروجينية خطرًا ليس جديدًا في نوعه فحسب، بل هو أشد من أي خطر عُرف في الحرب الماضية؛ فنحن لا نعرف بالتحديد ما قد ينجم عن إطلاق فيضان ضخم من النشاط الإشعاعي من آثار، وهناك من يعتقدون، ومن بين هؤلاء «أينشتين»، أن ذلك قد يؤدي إلى استئصال الحياة من الكرة الأرضية، وإذا لم يصل الأمر إلى هذا الحد فإنه من اليسير تمامًا أن تصبح مناطق خصبة غير صالحة للزراعة ولا للسكنى، وأن يهلك سكَّان مناطق كبيرة، وأنا لا أقول إن ذلك سيحدث إذا استخدمت الطاقة الذرية في الحروب؛ فليس هناك من يعرف الآن ماذا سيحدث، ولكنْ هناك خطر من أن يحدث ذلك، وإذا حدث فسيكون وقت الندم قد فات.

وهناك تأرجح في فنون الحرب بين قوة الدفاع وقوة الهجوم. والعصور السعيدة هي تلك التي يكون الدفاع فيها قويًّا، والشقية هي تلك التي يكون فيها الهجوم هو

الأسبق، وهناك خطر دائم في عصرنا العلمي من أن الهجوم قد يؤدي في أي لحظة إلى سبق تترتب عليه كارثة حقيقية؛ فالحرب البكتريولوجية مثلًا قد تؤدي إلي القضاء على العدو.

بيد أنه من المحتمل جدًّا أن تقضي أيضًا على من استخدموها؛ إن زيادة المهارة العلمية بصفة عامة تجعل الحرب أشد خطورةً، حتى وإن لم تكن في أي لحظة بذاتها سببًا في قتل عدد أكبر من المحاربين.

وإلى جانب ما ينجم عن الحرب الحديثة من ضحايا؛ هناك نواح أخرى تعد فيها الحرب الحديثة أسوأ من معظم الحروب في الأمنة الماضية، فبسبب زيادة إنتاجية العمل أصبح من الممكن تخصيص قسم أكبر من السكَّان لعملية الذبح المتبادل، وصارت القلقلة في الحياة اليومية أشد في حروب العالم الحديث منها في معظم حروب العهود السابقة؛ كما أن الخوف من القنبلة الذرية جعل من السخف الحياة في المدن الكبرى.

ويفكر الأمريكيون؛ الذين لديهم من اتساع المكان ما يسمح بالانتشار جديًّا؛ في توزيع سكَّان نيويورك على مساحة واسعة.

بيد أن إنجلترا التي لا تتوافر فيها مثل هذا الإمكانيات، لا يفيد فيها سوى الهجرة بالجملة، وفي حروب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ تلك الحروب اللطيفة المجزية، كان عبء المعاناة يقع أساسًا على المقاتلين؛ أما الآن؛ فالمعاناة تقع على غير المقاتلين بصورة متزايدة؛ إني رجل متقدم في السن، وأستطيع أن أتذكر وقتًا كانت الحروب فيه ضد النساء والأطفال أمرًا غير مشرف.

بيد أن هذا العهد السعيد قد ولَّى.

فلهذه الأسباب كلها تُعد الحرب اليوم خطرًا أشد مما كانت في الأزمنة الماضية، وصار منع الحرب ضروريًّا إذا أُريد للحياة المتمدينة أن تستمر، وربما إذا أريد لأي نوع من أنواع الحياة أن يستمر، وذلك أمر ضروري جدًّا بحيث يجب علينا ألا نتقاعس عن

الأخذ بصورة جديدة من التفكير السياسي، أو عن مواجهة مشاكل جديدة كان يمكن في الماضي أن نتجاهلها تجاهلًا إن لم تصبنا عقوبته فهو على أي حال لا يؤدي في النهاية إلى كارثة.

وقد يمكن تجنب الحرب بعض الوقت بواسطة الوسائل المؤقتة والحيل المناسبة وعن طريق الدبلوماسية الماهرة، ولكن ذلك أمر محفوف بالمخاطر، وما دام نظامنا السياسي الحاضر قائمًا؛ فيجب أن نفهم أن نشوب الحروب الكبرى بين الفينة والفينة أمر يكاد يكون أكيدًا، وهذا ما سيحدث حتمًا ما دامت هناك دول مختلفة ذات سيادة؛ لكل منها قواتها المسلحة وكل منها هو الحكم النهائي فيما يتعلق بحقوقها في أي نزاع؛ فليس هناك سوى طريقة واحدة يمكن أن نجعل بها العالم بمأمن من الحرب، وذلك بإنشاء سلطة واحدة تضم العالم كله وتحتكر جميع الأسلحة الخطيرة.

وإذا كان لحكومة عالمية أن تمنع الحروب الخطيرة، فلا بد لها من حد أدنى من السلطات؛ فأولًا وقبل كل شيء يجب أن تحتكر جميع الأسلحة الحربية الكبرى، وأن يكون لديها قوات مسلحة كافية لاستعمال هذه الأسلحة.

كما يجب اتخاذ جميع الإجراءات التي قد تكون ضروريةً لضمان ولاء القوات المسلحة للحكومة المركزية في كل الظروف، ويجب أن تحدد الحكمة العالمية قواعد معينةً لاستخدام قواتها المسلحة، وأهمها أنه لا بد إذا حدث نزاع بين دولتين يجب على كل منهما أن تخضع لقرارات الحكومة العالمية، وأي استعمال للقوة من جانب أي دولة ضد أي دولة أخرى يجعلها عدوّةً للعالم كله، ويجب عليها العقاب بواسطة القوات المسلحة للحكومة العالمية، وهذه سلطات جوهرية إذا أريد جعل المحافظة على السلام أمرًا ممكنًا، ومتى تم إرساء قواعد هذه السلطات سيتبعها غيرها؛ فسيتطلب الأمر هيئات تقوم بالوظائف التشريعية والقضائية، وستتكون هذه السلطات بطريقة طبيعية متى تحققت الظروف الحربية. بيد أن النقطة الصعبة والحيوية هي وضع قوة لا تُقاوم في يد سلطة مركزية.

وقد تكون الحكومة المركزية حكومة ديموقراطيةً أو حكمًا مطلقًا؛ وقد تكون مدينةً بأصلها للرضا أو للغزو؛ فقد تكون حكومة دولة استطاعت غزو العالم، أو قد تكون سلطة لكل دولة، أو -بدلًا من ذلك- لكل كائن بشري؛ فيها حقوق متساوية، وأنا من ناحيتي أعتقد أنها ستقوم، إذا تكونت، على أساس الرضا في بعض المناطق والغزو في مناطق أخرى، فعند وقوع حرب عالمية بين مجموعتين من الدول قد تعمد المجموعة المنتصرة إلى تجريد المجموعة المهزومة من السلاح وتشرع في حكم العالم بواسطة أنظمة موحدة تنميها أثناء الحرب، وفي هذه الحالة يمكن السماح للأمم المهزومة بالمشاركة في الحكم شيئًا فشيئًا مع خمود روح العداء الناجمة عن الحرب؛ فأنا لا أعتقد أن الجنس البشري لديه من المهارة السياسية أو من القدرة على التسامح المتبادل ما يكفي لإنشاء حكومة عالمية على أساس الرضا وحده، وهذا هو السبب في اعتقادي بالحاجة إلى عنصر من القوة لإنشائها والمحافظة عليها خلال السنوات الأولى من تجربتها.

بيد أنه على الرغم من أن القوة قد تكون ضروريةً في مبدأ الأمر في بعض أجزاء العالم؛ فإنه لن يستتب الاستقرار ولن تتوافر فرصةً لإيجاد نظام تحرري وديموقراطي، إلا إذا قضي على أثر بعض الأسباب الكبرى المعينة التي تؤدي إلى الصراع، وأنا لا أتحدث عن الصراع اليومي الذي تتسم به الحرب الباردة في الوقت الحاضر، ولا في ذلك الأخذ والرد الذي تتسم به سياسة القوة، إن ما أفكر فيه أمور تنطوي، في الظروف القائمة؛ على صدام حقيقي بين مصالح جزء من العالم مع مصالح جزء آخر، إني أفكر في أمور يعتبرها كل من الطرفين من الأهمية بحيث يفضل القتال على التسليم فيها؛ فمثلًا؛ هل يستمر جنوب شرقي آسيا مزدحمًا بالسكَّان أكثر مما ينبغي، أم هل يُفتح الباب في أستراليا وأمريكا الجنوبية لغير البيض؟ إن مثل هذه الأسباب الصعبة للنزاع تدور حول مشكلات ثلاث: السكَّان والعنصر والمذهب.

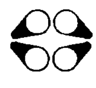
ولقد تحدثت فعلًا عن مشكلة السكَّان.

بيد أنه يجب أن نضيف بضع كلمات عن جوانبها السياسة؛ فإلى أن تُحل هذه المشكلة سيكون من المستحيل رفع مستوى الأجزاء الفقيرة في العالم إلى مستوى قريب من مستوى الرخاء الذي تتمتع به في الوقت الحاضر الأجزاء الغنية، وإلى أن يعم شيء من التساوي الاقتصادي جميع أنحاء العالم ستوجد أسباب للغيرة والحقد تجعل أي حكومة عالمية معتمدةً باستمرار على ممارسة القوة من جانب الأمم الأقوى، ومثل هذا الوضع يكون غير مستقر وخطرًا قاسيًا، وسيكون من المستحيل الإحساس بأن العالم على ما يرام إلى أن تتحقق درجة معينة من المساواة وقدر معين من الامتثال في كل مكان لسلطة الحكومة العالمية، ولن يكون ذلك في حيز الإمكان حتى تصير الأمم الأفقر حالًا متعلمةً وتتقدم أساليبها الفنية، ويصبح عدد السكَّان فيها ثابتًا إلى حد ما، وقد تظن أن ذلك أمر بعيد، ولكن ليس هناك ما يدعو لأن يكون الأمر كذلك، فإحصاءات السكَّان في الغرب خلال نصف القرن الماضي شاهد على ما يمكن أن يتحقق، ولم يكن هناك بالتأكيد في الغرب من كان يظن في سنة ١٩٠٠م أن أي شيء من هذا القبيل ممكن.

إن الخلاصة التي تدفعنا إليها الوقائع التي درسناها هي أنه بينما لا يمكن تجنب الحروب الكبرى حتى تكون هناك حكومة عالمية؛ فإن أي حكومة عالمية لا يمكن أن تستقر إلى أن يصير عدد السكَّان في كل البلاد المهمة ثابتًا تقريبًا، ولما كان ذلك بعيدًا كل البعد عن الواقع في الوقت الحاضر، فقد تبدو النتيجة التي وصلنا إليها محزنةً، ولكن هناك وجهًا آخر للمسألة ليس بحال من الأحوال محزنًا، ففي الأزمنة الماضية كان معظم الأطفال يموتون في المهد، وكان معدل الوفيات بين البالغين مرتفعًا جدًّا، وكانت الغالبية العظمى في كل بلد تعاني فقرًا مدقعًا، واليوم نجحت بعض الأمم في المحافظة على حياة الغالبية الساحقة من أطفالها، وفي خفض معدل الوفاة بين البالغين إلى حد هائل، وفي القضاء على الفقر المدقع تقريبًا. وما كان كل هذا ليتم لولا انخفاض معدل المواليد، وتستطيع الأمم الأخرى؛ التي ما زال المرض والفقر

المدقع سائدين فيها؛ أن تحقق نفس المستوى من الرفاهة بواسطة الأساليب نفسها، ومن ثم فإن هناك أملًا جديدًا للجنس البشري، وهو أمل لن يتحقق إلا إذا فهمت أسباب الشرور الحالية.

بيد أن الأمر يتطلب منا أن نؤكد الأمل؛ فالإنسان الحديث سيد مصائر نفسه، وما يقاسيه إنما يقاسيه لأنه غبي أو شرير، لا لأن الطبيعة هي التي قضت به. إن السعادة من نصيبه إذا استعمل الوسائل التي في متناول يديه.



الفصل الثاني عشر

العداء العنصري

إن مشكلة العداء القمين بأن ينشأ بين الشعوب المختلفة لهي واحدة من أصعب المشكلات التي ينبغي حلها، وأشدها استعصاءً على العلاج؛ إذا أريد أن يصبح وجود حكومة عالمية ممكنًا، وعندما أتحدث عن «الشعوب» أعني التنوعات البيولوجية الحقيقية في السلالة البشرية؛ لا تلك الانقسامات التي خلقتها أحداث تاريخية أو سياسية؛ فالإنجليز والفرنسيون قاتلوا بعضهم البعض سبعمائة وخمسين عامًا من معركة «هيستنجز» إلى معركة «ووترلو»، ولكن لم يكن بينهما في أي وقت من الأوقات أي كراهية غريزية؛ بل على النقيض من ذلك، لقد كانوا يتبادلون الرحلات في فترات ما بين الحروب، وارتبطت عائلتاهما الملكية بالزواج.

أما موقف الأمريكيين الإنجليزيي الأصل من «الهنود الحمر» فقد كان مختلفًا تمام الاختلاف كما يتبين من قولهم: «إن الهندي الطيب الوحيد هو الهندي الميت»، ولم يحاول أحد أن يكسب صداقتهم سوى قلة من المسيحيين الممتازين بصورة غير عادية أو المتحررين الممتازين بصورة غير عادية مثل «وليم بن» و«توماس خفرسون». ونوع العداء الذي أريد أن أتناوله هو ذلك الذي يوجد بين البيض والهنود الحمر، لا ذلك الذي كان بين الإنجليز والفرنسيين.

ولم يعد هنود الولايات المتحدة من الأهمية بمكان باعتبارهم مشكلةً، إذ إن انتصار

البيض كان ساحقًا، وكذلك السلالات الوطنية في غرب المحيط الهادي ليست مشكلة جديدة، وقد تم الامتزاج في نيوزيلاندا بين السكَّان الأصليين «الماوري» وبين الذين استعمروها، وهي الحالة الوحيدة في العالم، في اعتقادي، للامتزاج الناجح على أساس المساواة بين جنسين مختلفين تمامًا، والسكَّان الأصليون في أستراليا من القلة والانحطاط في المستوى الحضاري بحيث لا تأثير لهم على الحياة السياسية أو الاجتماعية في أستراليا؛ أما الأجناس المهمة، ومن الناحية العددية، في الوقت الحاضر فهي البيض والمغول والزنوج؛ فسكَّان الهند خليط من العنصرين الآري والدرافيدي (Dravidians)[1]. والساميون، سواء العرب أم اليهود؛ متميزون إلى حد ما عن بقية البيض من الناحية السلالية. بيد أن الأقسام الثلاثة الكبرى البيض، والمغول والزنوج؛ تظل أكثر الأجناس تحديدًا من الناحية البيولوجية، وأهمها من الناحية السياسية.

ولموضوع العداوة العنصرية علاقة وثيقة إلى حد ما بمشاكل زيادة السكَّان؛ ففي الوقت الحاضر يتمتع الرجال البيض بأكبر قدر من القوة.

بيد أن الأجناس الأخرى تزيد بمعدل أسرع في السكَّان، وتحتل روسيا مركزًا استثنائيًّا؛ فزيادة السكَّان فيها سريعة جدًّا؛ وهي من الناحية السياسية أقرب إلى جانب غير البيض منها إلى البيض من غير الروس، وقد يذهب البعض إلى أن كل ما فعلته روسيا هو أنها عمدت إلى صورة جديدة أكثر خداعًا من صور الإمبريالية البيضاء تُمارس فيه السيطرة عن طريق الحزب الشيوعي الذي يتسم بالروح الروسية الخاصة.

بيد أنه أيًّا كان الأمر لا بد من الاعتراف بأن ما يتسم به الروس من عجرفة بيضاء أقل بكثير مما تتسم به الشعوب التي تتكلم الإنجليز، وأن تعصبهم أيديولوجي أكثر من عنصري، ففيما يتعلق بالمشاكل العنصرية يعد مسلك روسيا جديرًا بالثناء. ويا حبذا لو أن الأمم البيضاء الأخرى حذت حذوها.

---

(١) جنس منتشر في جنوب الهند والملايو، ويُنسب إلى «درافيدا» وهي مقاطعة هندية. المترجم.

ودعنا نبدأ ببضعة أرقام تقريبية، إن عدد البيض يبلغ حوالي ٧٥٠ مليونًا تقريبًا؛ منهم ١٨٠ مليونًا تقريبًا؛ من سكّان روسيا أو الدول الدائرة في فلكها. وهناك ٤٥٠ مليونًا من الصينيين، وحوالي ٨٠ مليونًا من اليابانيين؛ ومن ثم فإن مجموع السكّان المغول في العالم هو حوالي ٥٥٠ مليونًا، وتضم شبه الجزيرة الهندية حوالي ٣٩٠ مليون نسمة يصعب تحديد أجناسهم، وهناك ١٠٠ مليون زنجي؛ فيما عدا المولدين في أمريكا الشمالية والجنوبية، ويبلغ عدد العرب خمسين مليونًا[1] وعدد اليهود ١١ مليونًا (يقدر عدد اليهود الذين هلكوا إبان الاضطهاد النازي حوالي خمسة ملايين، ويصور لنا ذلك مدى أهمية المشكلة العنصرية).

وينحو الانقسام القائم في العالم بين المجال الروسي والمجال الأمريكي إلى أن يكون انقسامًا بين الروس وغير البيض في جانب، والبيض من غير الروس في الجانب الآخر.

والأمر ليس كذلك تمامًا في الوقت الحاضر.

بيد أنه إذا استمرت الحرب الباردة فيغلب أن يصير كذلك؛ على وجه التقريب على الأقل؛ إلا إذا قام الجانب الغربي بخطوات جادة لكسب صداقة غير البيض.

ودعنا نبدأ بالعلاقة بين البيض والإفريقيين، لقد كان هذا الموضوع منذ اكتشاف أمريكا صفحةً من أسود الصفحات في تاريخ الأمم المسيحية اسمًا وأكثرها مدعاةً للخجل؛ فقد كانت معظم الأجزاء التي استعمرت من أمريكا الشمالية والجنوبية في مبدأ الأمر حارةً، واعتقد البيض أنه لا يمكن تنميتها من دون العمال الملونين، ولم يستطع البيض إرغام الهنود الحمر على العمل ومن ثم التجأوا إلى الزنوج؛ وفظائع تجارة الرقيق معروفة، ولن أقف عندها، وربما كانت حياة الرقيق شاقةً مرهقةً أو لم تكن كذلك، ولكن كقاعدة عامة كان الرقيق الذين يعملون في المنازل يعاملون معاملة طيبةً والرقيق الذي يعملون في المزارع يستغلون بقسوة، وأوقفت تجارة الرقيق في مطلع

(١) يبدو أن المصدر الذي استقى منه رسل إحصاءاته لم يكن دقيقًا فيما يتعلق بعدد العرب! المترجم.

القرن التاسع عشر، وانتهى الرق في الولايات المتحدة بالحرب الأهلية.

بيد أن السكَّان الملونين ظلوا، وما زالوا، يتعرضون لمشاقٍ لا تحتمل ولألوان شديدة من الظلم والقسوة، ويتعرض البيض للانحطاط المعنوي بسبب تأكيدهم الوحشي لتفوقهم.

وحينما تحسن حال الزنجي في أمريكا صارت حالته في أفريقيا أسوأ نتيجةً لإنشاء حكومات من البيض في معظم أرجاء هذه القارة؛ فقد حدثت في الكنغو -وهي تحت الحكم الشخصي للملك «ليوبولد الثاني»- فظائع منظمة على نطاق واسع لا تقل بشاعةً عن أي شيء فعله النازيون، أو عما ينسبه إلى الحكومات السوفيتية ألد أعدائها؛ ففي خمسة عشر عامًا قضى هذا الملك المتنور؛ أحد عمد الكنيسة والرجل الذي يعلن عن تحمسه للنزعة الإنسانية؛ على حوالي ١١ مليونًا من سكان مملكته الأفريقية البالغ عددهم عشرين مليونًا بحيث لم يبق سوى تسعة ملايين، وأخيرًا على الرغم من التأييد القوى الذي حبته به الكنيسة الكاثوليكية؛ حُرم سلطته، ولكن بعد أن اكتنز ثروةً هائلةً من تعذيب الرجال السود.

وحدثت في الكونغو الفرنسي أيضًا بعض الإساءات، وإن لم تكن على النطاق نفسه، وقد بحث «أندريه جيد» في أمر هذه الأحوال فحولته إلى شيوعي؛ ولكنه عندما اكتشف شرورًا مماثلةً في روسيا السوفيتية أدرك مرغمًا أن مشكلة الفساد البشري أصعب حلًّا مما تصور في بادئ الأمر.

وفي جنوب أفريقيا؛ حيث سادت فيما مضى سياسة مستنيرة نسبيًّا؛ تعمل الحكومة الحالية على إحياء ألوان من الطغيان القديم والظلم؛ برغم أنها بفعلها هذا تدفع كل زنجي متعلم في جميع أنحاء العالم إلى الالتجاء إلى روسيا بوصفها الأمل الوحيد لجنسه المعذب -الذي يعذبه ناس هم أنفسهم يعلنون مسيحيتهم ومثاليتهم في مواجهة مادية النظام السوفيتي القاسية، ولكن للأسف؛ إن أعداء الأشرار ليسوا دائمًا من الأخيار.

أما فيما يتعلق بالتفرقة القائمة على اللون فإن هناك فارقًا كبيرًا بين الأوروبيين

الجنوبيين والأوربيين الشماليين؛ إن الجنوبيين قد يكونون في منتهى القسوة تجاه الزنوج عندما يبدو أن مصلحتهم تملي ذلك، ولكنهم لا يقيمون تفرقةً على أساس اللون بوصفه كذلك؛ فالنساء البيض لا يمتعضن من الاختلاط بالرجال الزنوج، والدم الملون لا يحمل تلك الوصمة الاجتماعية التي يتسم بها في الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا، وقد نجم عن ذلك أنه لا يوجد في معظم أنحاء أمريكا الجنوبية إلا قلة ضئيلة جدًّا من البيض الخُلّص، وأن مشكلة اللون لا يكاد يكون لها وجود؛ بينما أهل الشمال (Nordics) والذين من سلالة بريطانية يذهبون إلى أن الاختلاط يتولد عنه جيل غير مرغوب فيه بيولوجيًّا. بيد أن هذا لا يقوم عليه دليل واضح. وفي تفكير الرجال البيض في الأجزاء الجنوبية من الولايات المتحدة الكثير من الاضطراب العاطفي؛ فهم ينظرون باشمئزاز بالغ إلى فكرة اتصال المرأة البيضاء جنسيًّا برجل ملون؛ ويقولون إن الملونين قذرون ومنفرون جثمانيًّا؛ ولكنه في الوقت نفسه يتخذونهم خدمًا؛ بل وأكثر من ذلك، الأغلبية الساحقة بينهم يجري في عروقها خليط من الدم الأبيض، وسرعان ما يبدو للفاحص أن الادعاء بأن الزنوج منفرون جثمانيًّا هراء فارغ، وأن ما يجده البيض غير محتمل هو أي محاولة من جانب الملونين لفرض المساواة الاجتماعية أو الاقتصادية، أو للحصول على العدالة في دور القضاء، ومع ذلك فإن افتراض أن الشعور تجاه الملونين لا يقوم على أي أساس غريزي تبسيط للأمر أكثر مما ينبغي.

وقبل أن نفكر في الحلول الممكنة للمشكلة العنصرية؛ دعنا نستمر في استعراض الوقائع المتصلة بالموضوع؛ ومجموعة الوقائع التي ينبغي التفكير فيها بعد ذلك هي العلاقات بين البيض والآسيويين.

إن الصينيين واليابانيين عمال نشطون ومهرة، وقد ألفوا مستوى من المعيشة منخفضًا جدًّا بالنسبة لمستوى الذين من أصل أوروبي، وإذا توفرت لهم حقوق حرية الهجرة والمنافسة في سوق العمل؛ فسرعان ما يحلون محل الأجراء من البيض في أي بلد

يقبلهم. وفي بادئ الأمر رحب بهم الرأسماليون في كاليفورنيا وأستراليا، ولو ترك لهم الأمر لكانوا خفضوا عدد السكّان البيض إلى أقلية ثرية حاكمة، وقد أدت مرارة الامتعاض في كاليفورنيا إلى عنف وشغب عنصري، وأخيرًا استبعد الآسيويون؛ بفضل الديموقراطية السياسة، من كل من أستراليا والولايات المتحدة.

وأنا عندما أتحدث عن الديموقراطية فيما يتصل بهذا الصراع إنما أتحدث طبعًا عن الديموقراطية بين البيض؛ فالديموقراطية العالمية في ظل حكومة عالمية تؤدي إلى نتائج عكس هذه، وهؤلاء الذين يذهبون، كما أذهب أنا بكل تأكيد، إلى أنه يكون من المؤسف أن تصبح أستراليا وكاليفورنيا بلادًا لا يسودهما البيض؛ عليهم أن يبحثوا عن مبدأ آخر غير الديموقراطية تبريرًا لرأيهم، ولكن هل هناك أي مبدأ من هذا القبيل يمكن جعله مقبولًا لدى الآسيويين؟ وإذا لم يتيسر مثل هذا المبدأ فكيف يمكن إقامة حكومة عالمية؟

لقد ظهر في إنجلترا مثال جدير تمامًا بالاهتمام من أمثلة الشعور العنصري بمناسبة مشكلة العمال الصينيين في مناجم الترنسفال بعد حرب البوير.

لقد أكدت حكومة المحافظين طوال هذه الحرب أن المعدنيين البريطانيين سيجدون، بعد نهاية الحرب؛ مجالًا مريحًا للعمل في جنوب أفريقيا، ولكن عند نهاية الحرب أُستجلب عمال صينيون بعقود للعمل في المناجم، وقاموا بالعمل مقابل جزء صغير مما كان سيطلبه المعدنون البريطانيون من أجور، وهبت عاصفة من الحنق المفتعل سببها في الظاهر أن الصينيين المجلوبين يعملون في ظروف تقرب من العبودية، وفي الحقيقة كان سببها الأساسي الحنق الناجم عن إحلالهم محل العمال البيض، وأصيب المحافظون في الانتخابات العامة التالية بهزيمة لم يسبق لها مثيل، وظلوا خارج الحكم سنوات طويلة، وأعيد الصينيون إلى بلادهم.

بيد أن الزنوج هم الذين حلوا محلهم في الغالب لا البيض، وأيًّا كان الأمر فإن الديموقراطية البريطانية كانت عندئذ قد شغلت بأمور أخرى؛ فقد كانت الحرب العظمى

الأولى تقترب، وبدأ اهتمام الناس يتجه نحو الأسطول الألماني أكثر من مناجم «الراند».

وهناك موقف مختلف تمامًا في مناطق مثل الملايو وجزر الهند الشرقية الهولندية؛ ففي هذه المناطق لا بد أن يظل البيض أقليةً ضئيلةً، ويمثل الصينيون مدنيةً أسمى من مدنية السكَّان من أهل البلاد، وهم يثيرون هناك شيئًا من ذلك النوع من العداء الذي يثيره اليهود في أماكن أخرى؛ كما جلبوا على أنفسهم في الآونة الأخيرة ريبة السلطات لأنهم كثيرًا ما يحرضون على الشغب الشيوعي.

بيد أن هذه المشكلة ليست من المشاكل العنصرية التي نبحث فيها.

وفي الهند عامل البريطانيون، طوال فترة سيطرتهم؛ الهنود بوصفهم أقل مرتبةً، ورفضوا السماح لهم بدخول أندية البيض مهما كانت مؤهلاتهم، وقد كان هذا الموقف مما لا يمكن الدفاع عنه؛ فرجل مثل «نهرو» لا يقل مرتبةً عن أحسن رجل أبيض من أي ناحية من النواحي، وقد لعبت الوقاحة الاجتماعية البريطانية دورًا كبيرًا في إثارة المعارضة ضد الحكم البريطاني.

بيد أن كل ذلك قد أصبح الآن، لحسن الحظ؛ جزءًا من التاريخ الماضي، وفي اعتقادي أن التاريخ سيعتبر أن أعظم ما حققته الحكومة العمالية الحالية في بريطانيا من أعمال هو تحرير الهند دون ما يصحب الصراع العنيف من مرارة.

وأنتقل الآن إلى حالة فريدة من حالات التعصب العنصري -وأعني بها العداء نحو اليهود-، وقد كان العداء نحو اليهود أصلًا عداء دينيًّا وليس عنصريًّا؛ فالرومان عندما كانوا وثنيين غضبوا على اليهود لأنهم رفضوا عبادة الإمبراطور، وعندما صارت الإمبراطورية مسيحيةً واجه اليهود عداءً أشد عنفًا لأنهم نبذوا المسيح، ولكن كان لديهم على الأقل طريق مفتوح للخلاص من الاضطهاد بأن يعتنقوا المسيحية، كما فعل «شيلوك». وفي العصور الوسطى اتحدت ضدهم الدوافع الاقتصادية والدينية، وقد كانت محاكم التفتيش الإسبانية، التي كانت موجهة أصلًا ضد اليهود أساسًا، تكتفي بقبول اعتناقهم للمسيحية، إلا إذا قام شك حول صحة هذا الاعتناق، ولكن

خلال الحروب الصليبية، التي بلغت إبانها الفورة الدينية حدًّا أدى إلى كثير من المذابح البشعة، انتزع المسيحيون من اليهود احتكارهم السابق للتجارة، وصار وضعهم في جميع أنحاء العالم المسيحي بعد الحروب الصليبية أسوأ مما كان قبلها بكثير، وفي ألمانيا استمرت المذابح حتى أوائل القرن التاسع عشر، واستمرت في روسيا حتى ١٩١٧م، وكلنا نعرف ما فعله النازيون في اليهود؛ فهم قد قضوا عامدين على خمسة ملايين منهم، لا لجريمة ارتكبوها، ولكن لكونهم يهودًا فحسب، وكان عداء النازي لليهود يقوم على دوافع عنصرية واقتصادية بحتة، ولا دخل للدين فيها.

ودعنا الآن نحاول تحليل العداء العنصري؛ ولنبدأ باليهود مراعاةً للتحديد؛ فإذا سألت أحد أعداء السامية في الوقت الحاضر عن السبب في كراهيته لليهود، فسيقول لك إنهم بلا مبادئ في أعمالهم التي يلجأون فيها إلى كل وسيلة وبلا رحمة مع مدينتهم؛ وسيقول لك إنهم دائمًا نهَّازون للفرص؛ ودائمًا متآمرون، ودائمًا يشد أزر بعضهم البعض ضد منافسيهم من غير اليهود، وإذا قلت له بأنك تجد أحيانًا مثل هذه السمات بين المسيحيين، فإن عدو السامية سيقول: «طبعًا، طبعًا، أنا لا أنكر أن هناك سفلة غير اليهود، وإن لي بعض الأصدقاء الطيبين من اليهود، ولكني أتكلم عن المتوسط»، وإذا سألته دون أن يأخذ حذره فستجده يقول كلما لجأ يهودي إلى بعض الحيل القاسية، «لا غرو فهو يهودي»؛ أما إذا فعل آخر غير يهودي الشيء نفسه فهو يقول: «والغريب في الموضوع أنه ليس يهوديًّا»، وليس هذا الأسلوب في تحديد «المتوسط» أسلوبًا علميًّا.

بيد أن هناك أيضًا أسبابًا غريزية أكثر لكراهية اليهود، تُلقي هذه الأسباب ضوءًا أكثر على الكراهيات العنصرية الأخرى، إن جماعة «الأصدقاء» (Quakers) لا يقلون في نجاحهم في الأعمال عن اليهود، ولكنه ليسوا مكروهين مثلهم؛ فالجذور الغريزية لكراهية العنصرية هي الخوف مما هو غريب؛ فالنمل يقتل النملة التي تنتمي إلى عش آخر، والحمام المأسور ينقض على الحمامة الدخيلة ويظل ينقرها حتى تموت؛ فالشيء الغريب لا يمكن فهمه، وما لا يمكن فهمه خطر، وهذا هو السبب الذي دفع الناس

إلى السعي وراء القوانين العلمية، إن أعداء السامية يعتبرون اليهود نوعًا من الجمعيات السرية يتبادل أعضاؤها فيما بينهم لونًا من المعرفة والخطط الشريرة التي لا يبوحون بها مطلقًا لغير اليهودي.

والصينيون مفروض أنهم دائبون على تدبير مؤامرات الجمعيات السرية ولديهم قوى ضخمة تعمل بعيدًا عن أعين القانون، والزنوج لديهم تلك الإشارات البرقية الخفية التي يتبادلونها عبر الغابات بالطرق على الطبول، وكل هذا ليس سوى تجسيم لمخاوف لا عقلية، ولما كانت تكشف عن جبن الإنسان فإنها تدفعه إلى الروح العسكرية الاعتدائية الجوفاء. إن هتلر، لو كان على شجاعة لما كان عدو السامية.

ويبدو أن اضطهاد الملونين شيء حديث في الغالب؛ فقد كان لدى الإغريق قبل عهد الإسكندر، نوع من الازدراء نحو «البرابرة». بيد أن ذلك كان شعورًا حضاريًّا وليس عنصريًّا، وليس هناك في عصور روما إلا النزر اليسير مما يُنبي عن وجود أي من الشعوريين؛ فليس هناك من يعرف هل كان «القديس سيبريان» أو «القديس أوجستين» رجلًا أبيض، وفي العصور الوسطى كان الاضطهاد الديني أبعد مدى من التحيز العنصري، ويمكننا أن ندرك شيئًا عن المشاعر في عهد «شكسبير» من «عطيل»، فقد كان «عطيل» زنجيًّا، رغم أن الأمريكيين لا يميلون إلى الاعتقاد بأنه كذلك، ويُطلق عليه «أياجو» ذو الشفاه الغليظة، وصحيح أنه يُسمى دائمًا «المغربي» Moor، ولكن في تلك الأيام كان الناس يدعون السود هكذا، فقد كانوا يطلقون عليهم «المغاربة السود» (Black Moors) التي صارت فيما بعد (Balckamoors)، ويصدم الناس عندما يتزوج «ديدمونة»، ولكن شعورهم لا يقرب في شيء مما قد ينتاب الأمريكيين في العصر الحديث إذا حدث مثل هذا بين ظهرانيهم، وقد ظل «عطيل» يحظى بالرضا طالما كانت الدولة في حاجة إليه، و لكن بمجرد أن هزم الأتراك يطغى عليه آخرون.

ويحس المرء بأن السبب في الاعتراض على زواجه؛ كان لأن (ديدمونة) كانت

من الطبقة الأرستقراطية وليس لأنها كانت بيضاء؛ فليس هناك من اعترض على (بوكاهونتاس) بوصفها زوجة رجل أبيض؛ بل على النقيض لقد عُوملت باحترام كبير، أما الشعور ضد الهنود فقد نما بعد ذلك عندما دخل المستوطنون البيض في صراع معهم، ولم يتكون مثل هذا الشعور في أمريكا الإسبانية.

وفي رأيي أن الجذور الغريزية للاضطهاد العنصري القائم على اللون هي أساسًا خوف من الخضوع لسيطرة أجنبية، وهو خوف يرجع بعض السبب فيه إلى عملية (الاستيطان) السيكولوجي، لقد واجهت جماهير غاضبةً عدائيةً في إنجلترا. بيد أنها لم تخفني بقدر ما أخافتني مجرد فكرة وهمية عن حدوث مثل ذلك في اليابان، ويوجد هذا النوع من الخوف باستمرار لدى الأرستقراطيات المكونة من ملاك العبيد؛ فهم يعلمون أن ثورات العبيد قد تندلع دون أي تحذير سابق، وأن ما يحدث للسادة المهزومين في هذه الحالة قد يكون مروعًا، ويتحول هذا الخوف إلى كراهية بمجرد ظهور أي علامة على عدم الرضا أو المطالبة بالمساواة من جانب العنصر (الأدنى).

وهناك شيء آخر إلى جانب الخوف من الخضوع لسيطرة أجنبية في الجزء الغريزي من الاضطهاد القائم على اللون، وهو الشعور بالاشمئزاز نحو المجهول والغريب.

بيد أن العنصر الغريزي البحت في الكراهية العنصرية جزء صغير من مجموعها، وليس من العسير التغلب عليه؛ فالخوف مما هو غريب، الذي يتكون منه قسم كبير من جوهره، يزول بالألفة. ولو أن الأمر كان مقصورًا على ذلك وحده لانتهت المشكلة كلها بمجرد أن يألف الناس من الأجناس المختلفة بعضهم بعضًا.

بيد أن هناك دائمًا أعذار لكراهية الغرباء؛ فعاداتهم تختلف عن عاداتنا، ومن ثم فإنها (في نظرنا) أسوأ منها، وإذا كانوا ناجحين فإنهم يسلبوننا فرصًا هي من حقنا، وإذا كانوا فاشلين فإنهم متشردون لا يصلحون لشيء، وسكَّان العالم في الوقت الحاضر من سلالة من بقوا على قيد الحياة في أحقاب طويلة من الحرب، وهم يتطلعون بصورة غريزية

نحو فرص للعداء الجماعي، وتتجمع الرغبة في كراهية شيء ما حول اللب الغريزي للكراهية العنصرية، وتبني حوله صرحًا بشعًا من القسوة وعدم التعقل، وتنبثق مشاكل عصرنا من أن مثل هذه العداوات تنطوي الآن على كارثة تعم الجميع، ولا تقتصر على المهزوم وحده كما كان الحال فيما مضى، وهذا هو السبب في أن تحقيق قدر من السيطرة العقلية على انفعالاتنا المدمرة قد صار الآن أكثر أهميةً مما كان في أي وقت مضى.

وللكراهية العنصرية بوجه عام مصدران؛ متعارضان في الظاهر، ولكنهما في الحقيقة متصلان اتصالًا وثيقًا؛ فهناك من ناحية رغبة المرء في أن يشعر بتفوقه، ومن ناحية أخرى الخوف من أن يصير في مركز أدنى. فالرجل الطبيعي تحدوه الرغبة في أن يشعر أنه شخص ممتاز، ومن ثم فإنه ينزع إلى احتقار أي جماعة لا ينتمي إليها؛ فالرجال يحتقرون النساء؛ لأنهن عاجزات عن التفكير! ويحتقر النساء الرجال؛ لأنهم جميعًا مجرد أطفال كبار! وكان الإنجليز يحتقرون الفرنسيين: لأنهم يأكلون الضفادع! وكان الفرنسيون يحتقرون الإنجليز؛ لأنهم يسكرون من شرب البيرة! وما دام هذا الشعور بالتفوق أصيلًا يستطيع المرء أن يُكِنَّ للجماعات التي لا ينتمي إليها ودًّا يشوبه الازدراء والعطف في نفس الوقت.

ولكن بمجرد أن يصير الشعور بالتفوق مزعزعًا ويحل محله -سواء جزئيًا أو بصورة كاملة- شعور بالنقص، يظهر في الميدان شعور أعمق هو الخوف العدائي الذي تحس به جميع الحيوانات التي تتسم بروح القطيع تجاه أفراد القطعان الأخرى، إن (سترينبرج) كره النساء لأنه كان يخاف منهن، والنساء اللواتي يتجه اهتمامهن نحو الشئون المنزلية لسن بحاجة للخوف من الرجال؛ لأنه يحكمن في مجالهن بلا منازع، ولكن عندما اتجه اهتمام رائدات الحركات النسائية نحو السياسة اضطررن إلى كره الرجال؛ لأن الرجال في هذا الميدان يتمتعون بقوة متفوقة.

وكذلك كان الحال مع ملَّاك العبيد؛ إذا رضي العبيد بوضعهم الأدنى كان في وسع

سادتهم أن يعاملوهم بعطف فيه ازدراء، ولكن إذا طالب العبيد بالمساواة صاروا مصدر خوف، ومن ثم كرههم سادتهم.

وأسباب الفرقة بين الأجناس المختلفة متباينة تمامًا، وهي تمتد من الغريزة العمياء إلى التقدير العقلي للمصلحة الذاتية، ويرجع سوء العلاقة بين البيض والملونين في الولايات المتحدة إلى أسباب أغلبها من النوع الأول، فهذه العلاقات السيئة لا تفيد أحدًا، وإذا عومل الملونون باعتبارهم أندادًا لكان الجميع أكثر سعادةً، ومن ناحية أخرى لا يحتاج الخوف من هجرة الآسيويين إلى بلاد البيض إلى أي تدعيم من جانب الغريزة، فبعض الشعوب حقق مستوى من الحياة أعلى من شعوب أخرى، وإذا ظل معدل المواليد بنفس ارتفاعه الحالي لدى الشعوب ذات مستوى المعيشة المنخفضة، فإن السماح لها بالهجرة لن يؤدي إلا إلى خفض مستوى المعيشة لدى الشعوب الأكثر رخاء دون أن يصحب ذلك أي كسب دائم للشعوب الأقل رخاءً.

ومن سوء الحظ، أن الصور الأكثر معقوليةً من العداء العنصري هي التي تضع أكبر العقبات في سبيل قيام حكومة عالمية. بيد أني لست في حاجة لتكرار ما ذكرته في الفصول السابقة في هذا المجال.

وهناك ثلاثة أنواع من الحلول للمشكلة العنصرية، وعندما أتحدث عن «حلول» فإني أعني أي خطة، سيئة أو طيبة، لتجنب شرور مثل الشغب العنصري والشنق الذي تقوم به الغوغاء والمذابح، والحل الأول: هو تجنب كل اختلاط جغرافي، والثاني: يتكون من نظام صارم من التفرقة بين الفئات المختلفة، والثالث: مساواة كاملة بما في ذلك حرية الزواج المختلطة.

والحل الأول: وهو تجنب الاختلاط الجغرافي، هو الحل الذي اتبع في أستراليا. ويبدو لي أن الأسباب في هذه الحالة، كما سبق أن أشرت، مفهومة تمامًا. بيد أن الناس لا تدرك دائمًا –وبصفة خاصة قبل أن يصل اليابانيون إلى «بابو»– أن هذه السياسة تعتمد

على القوة العسكرية المتفوقة؛ فأولئك الذين يريدون الاحتفاظ ببلد ما لأنفسهم يجب أن يكونوا في مركز يسمح لهم بالدفاع عنها، وهذا يعني؛ في الظروف الحاضرة؛ أنه يجب أن تكون الكتلة الأمريكية من القوة بحيث تمنع الكتلة الروسية من مهاجمتها، وهو يعني أيضًا أنه إذا قامت حكومة عالمية في وقت ما يجب ألا تكون ديموقراطيةً تمامًا؛ إذ إنه من الواضح أن الديموقراطية العالمية ستصوت إلى جانب وضع حد لاحتكار الرجل الأبيض لمناطق معينة من المناطق الخصبة على سطح الأرض، والسبيل الوحيد لمواجهة هذه الصعوبة هو جعل عدم التدخل في قوانين الهجرة جزءًا من دستور الحكومة العالمية، وهذا الحل مستحيل في حالات كثيرة؛ فالمليونان من يهود نيويورك لا يمكن إرسالهم جميعًا إلى إسرائيل، وليس هناك شخص عاقل سيرغب في إرسالهم إليها، وينطبق نفس الشيء على الزنوج في أمريكا الشمالية وجنوب أفريقيا، ومن ثم يجب إيجاد طريقة ما يستطيع بواسطتها اليهود وغير اليهود، والزنوج والبيض، أن يعيشوا جنبًا إلى جنبًا بسلام في مجتمع واحد.

والتفرقة بين الفئات المختلفة حل من الحلول، وقد استعمل في العصور القديمة بنجاح كبير، والعلاقة بين «الإسبرطيين» وطبقة العبيد «**Helots**» مثل من الأمثلة المعروفة، وعندما غزا الرجال البيض الهند في أول الأمر، في عهد «الفيدا» (**Vedas**)، أنشأوا هناك نظام التفرقة بين الفئات الذي استمر حتى يومنا الحاضر، ورغم أن النظام كان ينطوي على عجرفة الغزاة فإن الهنود قبلوه، ولكن عندما غزا الرجل الأبيض الهند مرةً أخرى (الغزو البريطاني)، وحاول البريطانيون أن يجعلوا من أنفسهم فئةً جديدة أسمى حتى من البراهمة لم تحظ محاولتهم بقبول، ولعل بعض السبب في ذلك يرجع إلى أنهم علموا في نفس الوقت مبادئ ما كولي التحررية، وهي مبادئ ما كانت تتفق مع عملهم، وما زال الملونون في الولايات المتحدة فئةً دنيا، كما يظهر من التحريم الكامل للزواج المتبادل، ومن أن نظام الفئات مما تعافه الأفكار الحديثة، وهو يبدو في العالم الحديث مجرد مخرج مؤقت وليس حلًّا دائمًا.

إن الحل الوحيد الحقيقي هو الاختلاط الكامل حيثما تكون هناك أجناس مختلفة من السكَّان عليها أن تعيش جنبًا إلى جنب، ويعترض على هذا الحل عادة أحد الجانبين، وأحيانًا يعترض عليه الجانبان؛ فاليهود السنيون ينظرون إلى الزواج من غير اليهود باعتباره عملًا فظيعًا أكثر مما ينظر أي شخص غير يهود إلى مثل هذا الزواج (باستثناء النازيين)، وهذا أمر مؤسف، ويكون أفضل كثيرًا لو وضع حد للتفرقة بين اليهودي وغيره، وكف الناس عن ملاحظة هل هذا الشخص يهودي أم لا، وليس هناك ما يحول دون ذلك سوى التحامل الذي لا مبرر له من الجانبين، وينطبق نفس الشيء تمامًا على الملونين في الولايات المتحدة.

ويذهب البعض أحيانًا إلى أن الاختلاط بين الأجناس غير مرغوب فيه من الناحية البيولوجية. بيد أنه ليس هناك أي دليل على ذلك، كما أنه من الواضح أنه لا يجود أي سبب للظن بأن الزنوج أقل في الذكاء الفطري من البيض؛ وإن كان من العسير الحكم حتى يتاح لهم مجال متساو وظروف اجتماعية متساوية.

وقد قام النازيون ومن سبقوهم في نزعتهم الفكرية بدعاية قوية للنقاء العنصري.

بيد أن الوقائع تدحض دعايتهم؛ فأكثر الأجناس نقاءً على ظهر الأرض هم السكَّان الأصليون في أستراليا (والهوتنتوت) (Hottentots) والأقزام، أما الأجناس العظمى في التاريخ فقد نشأت عن سلالات مختلطة، والألمان أنفسهم سلافيون إلى حد كبير؛ كما أن الروس مغوليون إلى حد كبير؛ وشعوب البحر الأبيض كلها شعوب مختلطة، والبريطانيون مزيج من العناصر الجرمانية والسلت وما قبل السلت، وكان الأثينيون خليطًا تكون من مزيج من البرابرة الشماليين الغزاة والأقوام القدامى من سكَّان اليونان قبل العهد الهيليني، ومن ثم فليس هناك أي أساس عقلي للاعتراض على الزواج المختلط بين الأجناس المختلفة.

والخلاصة في هذا الاستعراض الطويل ذات شعبتين؛ فمن ناحية، حيثما توجد أمتان بينهما ويختلف مستوى المعيشة في كل منهما عن الأخرى، من الحكمة

المحافظة على عدم اختلاطهما بواسطة قوانين الهجرة، على أن تبذل كل الجهود الممكنة لرفع مستوى المعيشة لدى الأمة المختلفة دون خفض مستوى المعيشة لدى الأمة الأكثر رخاءً، ويتطلب ذلك إذا قامت حكومة عالمية ألا تتدخل هذه الحكومة في قوانين الهجرة، وألا يكون لها الحق في تغيير الحدود، دون رضاء السكَّان الذين يتعلق بهم الأمر.

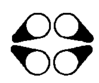
ومن ناحية أخرى، حيثما تكون هناك جماعة من السكَّان قام بينها اختلاط عنصري فعلًا؛ فإن الحل الحقيقي الوحيد هو اعتبار الجنسين متساويين تمامًا، والسماح بالزواج المختلط، ثم انتظار الوقت الذي يصبح فيه البقاء العنصري نادرًا والخلافات العنصرية في زوايا النسيان.

إن العداء العنصري ميراث لا تحرري وغير عقلي ورثناه من ماضينا الحيواني، والقضاء عليه أمر عسير، ولكنه ليس مستحيلًا كما يعرف كل من اقتنى قطةً وكلبًا في وقت واحد. ولا بد من القضاء عليه إذا أُريد للعالم سلام، ولا بد للعالم من أن يحظى بالسلام قبل نهاية هذا القرن إذا أريد لأي قسم من الجنس البشري -أبيض أو أسود أو أصفر أو أسمر- البقاء.

لقد اقترف الناس؛ منذ أن قامت الحكومات المنظمة فظائع واسعة النطاق مثل الحروب والرق وإخضاع النساء والقضاء عى الأعداء المهزومين، ولا يتطلب الأمر منا أكثر من أن يقرأ عن شاؤول في الكتاب المقدس وعن «آوشفيتز» السجلات الرسمية، وأن نملأ مئات السنين التي بينهما بفظائع بشعة مماثلة، وقد حدث تحسن فيما يتعلق ببعض هذه الأمور، فإخضاع النساء قد انتهى أمره بين الشعوب المتمدينة، وتوقف الرق العلني المعترف به في كل مكان باستثناء.

وبعض الأمم بعد أن تنتصر في الحرب لا تقتل إلا نسبةً ضئيلةً من أعدائها المهزومين، وذلك بواسطة أسلوب يُعد أكثر إنسانيةً وتهذيبًا هو الموت جوعًا ببطء، لا باتباع الأسلوب الهمجي القديم أسلوب قطع الرقاب في ساعة الهياج، ولكن

الظلم العنصري بما ينطوي عليه من كثير من شرور الرق، ما زال باقيًا؛ إن العداء الجماعي باق والحرب باقية، ورغم أن الحرب تقررها الحكومات إلا أنها تنشأ عن تراكم انفعالات شريرة في أفراد كثيرين متفرقين، ولكي نمنع الحرب يجب علينا ألا نوجه جهودنا نحو الحكومات فحسب؛ بل علينا أيضًا أن ننظف قلوبنا من السموم التي تجعل الحرب تبدو معقولةً: الكبرياء والخوف والجشع والحسد والاحتقار، وإنه لأمر عسير. بيد أنه إذا لم يمكن تحقيقه، فإن النهاية هي الموت.



الفصل الثالث عشر

عقائد وأيديولوجيات

إن أكثر أنواع الصراع مرارةً بين الجماعات البشرية المختلفة نجمت عن واحد أو أكثر من ثلاثة خلافات؛ الخلاف بسب المصلحة الاقتصادية، والخلاف العنصري، والخلاف في العقيدة؛ ففي الحرب العالمية الأولى كانت المصلحة الاقتصادية هي وحدها ما يدور حول النزاع؛ وفي الحرب العالمية الثانية كان الأمر يتعلق بالمصلحة الاقتصادية وبالعقيدة، وفي الثالثة؛ إذا نشبت، سيلعب كل من المصلحة الذاتية والعقيدة والجنس دوره، وأريد في هذا الفصل أن أتناول الخلافات العقائدية بوصفها مصدرًا من مصادر الصراع، أولًا في التاريخ ثم في الوقت الحاضر.

ولفظ «أيديولوجية» المألوف في هذه الأيام يعني تقريبًا نفس ما كان يعنيه لفظ «عقيدة» من قبل، ويمكن تعريف «الأيديولوجية» بأنها نظام من المعتقدات يؤدي إلى نوع من التصرفات، العامة والخاصة، ويدعمها - عندما تكون ذات أهمية سياسية- بنظام كهنوتي أو ما يماثله... وكان أول من ساعد على انتشار هذا اللفظ هو «نابليون» الذي كان يعترض على ما أسماه «الأيديولوجيين» لأن معظمهم في أيامه كانوا جمهوريين، وسأستعمل كلمة «أيديولوجية»؛ باعتبارهم مرادفًا للفظ «عقيدة» تقريبًا، ولكن مع اعتبار أن ما ينطوي عليه اللفظ الأول من دلالة أقل تشددًا من الثاني، فالمرء يستطيع أن يتحدث عن «أيديولوجية» الرأسمالية الأمريكية.

بيد أن الكتابة عنها بوصفها: «عقيدة» يُعد تحميلًا للألفاظ أكثر مما ينبغي بعض الشيء.

والخلافات في العقيدة ليست بالضرورة سببًا للنزاع؛ فهي لا تصير كذلك إلا إذا كانت مصحوبةً بتعصب شديدة، ولقد دخلت البوذية الصين واليابان بسلام ودون إزعاج للأديان القديمة في هذه البلاد، ولم يفكر أحد في الصين أو اليابان أنه لا يمكن أن يكون هناك سوى دين واحد صحيح، وآمن الصينيون بكل من البوذية والكونفوشيوسية؛ كما آمن اليابانيون بكل من البوذية والشنتوية، وفي العالم الإغريقي الروماني سادت آراء مماثلة، فقد وحد الرومانيون آلهتهم بآلهة الإغريق، وشيدت في روما معابد لآلهة المصريين والبابليين، كما سمح بانتشار عبادة «ميثرا» (Mifhra) بحرية، ولم يكن الناس الذين يقبلون على عبادة آلهة أجنبية ينبذون لهذا السبب أديانهم الأصلية.

ولم يكن هناك في العالم القديم، قبل ظهور المسيحية، سوى استثناء واحد لهذا الوضع، هو اليهود؛ فالوصية الأولى تقول[1]، «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي».

وكان هذا مفهومًا جديدًا أتى به الرسل، وقد قُوبل في أيامهم بمعارضة شديدة من جانب اليهود؛ كما يمكن أن نرى في شكوى أرميا من عبادة اليهود لعشتروت، ولكنه أحرز انتصارًا كاملًا أثناء «الأسر»، وأثار هذا التعصب (كما بدا للوثنيين) العداء وتعرض اليهود في أوقات مختلفة للاضطهاد، ولكن ذلك لم ينجح قط في حملهم على تغيير وجهة نظرهم.

وورثت المسيحية هذا التخصيص من اليهود؛ فقد اعتبرت ممارسة أي لون من ألوان العبادة الوثنية «شركًا» واحتسبتها خطيئةً كبرى، وكان اضطهاد الحكم الروماني للمسيحيين يرجع إلى هذا التخصيص الذي اعتبر عملًا هدَّامًا وخاصةً لأنه ينطوي على نبذ ألوهية الإمبراطور، وعندما صارت الإمبراطورية مسيحيةً سار التخصيص شوطًا آخر، «فلم يعد يكفي أن يكون المرء مسيحيًا؛ بل يجب أن يكون مسيحيًا سنيًا (Orthodox)

---

(١) سفر التثنية.. «الإصحاح الخامس» (٧).

وأن ينبذ جميع ألوان البدع التي لحقت بالكنيسة في القرنين الرابع والخامس.

وبدأت الحروب الدينية بظهور الإسلام؛ فالمسلمون، مثل المسيحيين واليهود، آمنوا بأنه لا يمكن أن يكون هناك سوى دين واحد صحيح، وقد كانوا أقل تشددًا في عدم تسامحهم مع الأديان الأخرى من المسيحيين؛ ولكن كان من المستحيل أن يسود بين الدول المسيحية والإسلامية سلام حقيقي.

واستخدمت الحرب طوال العصور الوسطى سلاحًا أيديولوجيًّا؛ فقد أرغم «شرلمان» السكسون على اعتناق المسيحية بأن ذبح كل من رفض أن يعمد، وحارب «فرسان الهيكل» (Templars) وفرسان القديس يوحنا، المسلمين، وتحولت الحرب الصليبية الثالثة إلى القتال ضد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، واستأصل «سيمون دي مونتفور» شأفة «الألبجنسيين» المارقين، وحرق هنري الخامس و(مجلس كونستانس) أتباع «وايكليف» وفي إسبانيا اضطهد المغاربة واليهود أولًا ثم طردوا، وفي البلقان قضى قضاء تامًّا على حركة أتباع (Bogomil)[1] الهراطقة.

بيد أن جميع هذه الحروب والاضطهادات فقدت أهميتها بمقارنتها بالحروب الدينية في القرن السادس عشر والسابع عشر؛ ففي كل ركن مما كان قبلًا أوروبا الكاثوليكية فرض كل من الحكام أصحاب السلطان دينه، أيًّا كان هذا الدين؛ مستعملًا أقسى العقوبات في فرضه بحيث كانت الغالبية من الناس تذعن، وسار كل من الجانبين على أن اغتيال ملك الطرف الآخر حق؛ فقد قام جي فاوكس Guy Fawkes بمحاولة قتل الملك ونسف مجلس اللوردات والعموم في سنة ١٦٠٥م، وانتقامًا للتشريعات الجنائية التي صدرت ضد الكاثوليك، وقتل (رافايك) هنري الرابع انتقامًا للهوجونوت في فرنسا؛ وقطع رأس الملك شارل الأول، وعلقت جثة (كرومويل) بالسلاسل، وأفنت حرب الثلاثين عامًا نصف سكان ألمانيا، ولكنها لم تحدث تغييرًا يذكر في ميزان القوى.

---

(١) شيعة دينية قامت في بلغاريا بين سنة ١٠٠٠، وسنة ١٤٠٠، وكانت تعتقد بأن للخالق ولدين، أحدهما الشيطان والآخر المسيح.

وأخيرًا لما كان الصراع لم ينتهِ إلى نتيجة حاسمة؛ اكتشفت بعض الأمم المستنيرة، وعلى رأسها الهولنديون، أنه من الممكن أنه يعيش البروتستانت والكاثوليك جنبًا إلى جنب في سلام، وكان المتعصبون الإنجليز قد هربوا من الاضطهاد إلى أمريكا حيث استطاعوا الاستمرار في ممارسة الشرور التي كان الاعتراض عليها هو الذي ألجأهم إلى ترك إنجلترا، ولكن الاضطهاد توقف في أمريكا قرابة نهاية القرن السابع عشر؛ باستثناء بعض صوره الخفيفة التي ما زالت قائمةً حتى الآن، واستمر الاضطهاد الديني في البلاد الكاثوليكية حتى الثورة الفرنسية، وبعدها حلت محله الأهواء السياسية.

ويحاول بعض خصوم الشيوعية أن يكونوا أيديولجية لدول الأطلنطي، وابتكروا في سبيل ذلك ما أسموه «القيم الغربية»، والمفروض أن هذه القيم تتكون من التسامح واحترام الحرية الفردية والحب الأخوى.

بيد أني أخشى أن هذا الاتجاه بعيد كل البعد عن أن يتفق مع الحقائق التاريخية؛ لأننا إذا قارنا أوروبا بالقارات الأخرى نجد أنها تتميز عن هذه القارات بأنها مثوى الاضطهاد، ولم يتوقف الاضطهاد فيها إلا بعد تجربة مريرة طويلة أثبتت عدم جدواه، ولكنه استمر طوال الزمن الذي كان فيه البروتستانت أو الكاثوليك يؤمِّلون في محو الفريق الآخر.

فالسجل الأوروبي في هذا المضمار أحلك بكثير من سجل المسلمين أو الهنود أو الصينيين؛ كلا إن الغرب إذا كان له أن يدعي تفوقًا في شيء ما فلن يكون ذلك في القيم المعنوية، ولكن في العلم والأساليب الفنية العلمية.

إن سفر القضاة... (Book of gudges) يقول الحين بعد الحين: «وقيض للأرض راحة أربعين سنة،» ولقد قيض لأرض أوروبا راحة لمدة تسعة وتسعين عامًا من سنة ١٨١٥ إلى سنة ١٩١٤... وصحيح أنه حدثت بعض حروب بين الأتراك والروس، وكانت هناك حرب القرم، كما كانت هناك حرب البوير، وكذلك حروب بسمارك الثلاثة، ووقعت في نهاية الفترة الحرب الروسية اليابانية.

بيد أنه ما من حرب من هذه الحروب نجم عنها في وقتها أي اضطراب عميق، ولم

يتولد عن أي منها ذلك الإحساس العلام بعدم الأمن الذي يلازمنا حتى في أحلامنا في الوقت الحاضر.

لقد كنت في الثانية والأربعين عندما انتهت فترة الهدوء هذه، وكنا جميعًا؛ نحن الذين نشأنا في ذلك الوقت؛ نسلم دون تفكير تقريبًا بأن القرن التاسع عشر قد وضع النموذجي الذي سيكون عليه المستقبل؛ إذ إنه شهد تغييرات عظمى؛ كلها تقريبًا مفيدة، وتوقعنا تغييرات أخرى من نفس النوع؛ فقد انتشر التسامح والحرية والاستنارة بسرعة مذهلة، ولم يفكر أحد في القرن التاسع عشر بوصفه فترةً استثنائيةً بين عصرين مظلمين، وإذا نظرنا الآن إلى الوزراء نجد من الواضح أنه كان يجب علينا أن نتنبأ بمشاكل مقبلة؛ ازدحام السكّان، ونهاية المناطق الشاسعة غير المستغلة التي تنتج الطعام، والمنافسة المريرة المتولدة التي أثارتها الآراء الغريبة لدى المفكرين ممن ينتمون إلى بلاد ذات تقاليد وظروف مختلفة؛ وكان ينبغي علينا أن نتنبأ بذلك كله، ولكننا لم نفعل؛ وهكذا عندما جاءت الحرب وجدنا أنفسنا في عالم لم نكن مستعدين له من ناحية الفكر ولا من ناحية الخيال، ووجد ساستنا أن الصيغ القديمة المعروفة غير قابلة للتطبيق، ولكنهم لم يستطيعوا التفكير في صيغ جديدة، وجعلت الأمم تتخبط في ظلام من خطأ إلى خطأ؛ إننا إذا أردنا أن نفهم عصرنا فعلينا أن نبحث عن سره؛ ليس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكن قبل ذلك - في حقبات أحلك وأكثر بدائيةً.

وفيما يتعلق بالأيدلوجيات تظهر مشاكل عصرنا نفسها في تزايد التعصب، وقد كان هناك بطبيعة الحال بعض التعصب في الفترة التي يبدو الآن أنها كانت خلوًا منه نسبيًا؛ فقد كان هناك تعصب في الثورة الفرنسية، ولكنه لم يسيطر سوى سنتين، وكان هناك تعصب في مقاومة الألمان «لنابليون» ولكن بدا أنه انتهى بعد سنة ١٨١٥، وكان هناك تعصب من الجانبين في الحرب الأهلية الأمريكية وفي الصراع بين دعاة الثورة الروسيين والقيصرية، ولكن لم يبد قط أن المتعصبين سيطروا على المواقف؛ باستثناء روسيا، لمدة طويلة.

ولكن منذ سنة ١٩١٤م، رأينا ألوانًا من التعصب هي؛ فيما أرى، نتيجة لما عاناه الناس في الحرب إلى حد كبير، وقد سيطر هذا التعصب على الحكومات وجعل أي ممارسة للسياسة المعقولة مستحيلًا؛ فكان هناك تعصب ضد الألمان في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى؛ وكان هناك تعصب ألماني مقابل أدى إلى انتصار النازي، وكان هناك تعصب ضد السامية مما أدى بطريقة حتمية إلى التعصب الصهيوني، وأهم من ذلك جميعًا كان هناك وما زال تعصب شيوعي وتعصب ضد الشيوعية. وما دام الجنس البشري في هذه الحالة المزاجية، فلا محل مطلقًا لذلك النوع من التعاون الذي يتطلبه الشروع في إنشاء حكومة عالمية.

والتعصب الذي يتسم به الجانب الشيوعي في الوقت الحاضر ناشئ عن مزيج من قوتين: مبادئ «ماركس»، وتقاليد روسيا. وينبغي أن نذكر شيئًا عن الاثنين؛ لقد كان روّاد الاشتراكية قبل ماركس «أوين» و«سان سيمون» و «فورييه» - أشخاصًا متفائلين ومعتدلين وجهوا نداءهم إلى العقل والأريحية.

وسخر ماركس من هؤلاء الأشخاص بوصفهم من الحالمين بالمدن الفاضلة، وكان مذهبه هو أعنف وأكثر ديناميكيةً؛ فلم يتوقع أن تعتنق الطبقات المالكة آراءه، ولم يحاول ذلك؛ بل على النقيض من ذلك؛ لقد ذهب إلى أن آراء الناس السياسية إنما تعبر؛ باستثناءات لا أهمية لها؛ عن المصالح الاقتصادية لطبقتهم، ومن ثم فإن الانقسامات السياسية تعبر عن الصراع بين مصالح الطبقات المختلفة؛ ففي الثورة الفرنسية خلعت البورجوازية الأرستقراطية الإقطاعية؛ وفي الثورة الشيوعية ستخلع البروليتاريا البورجوازية؛ وستنتصر البروليتاريا لأن الرأسمالية ستؤدي في نموها؛ كضرورة متأصلة، إلى انخفاض عدد الأغنياء وزيادة عدد أولئك «الذين ليس لديهم ما يفقدونه سوى أغلالهم»، وذهب ماركس إلى أن العملية كلها تحكمها خطة منطقية تسمو على الإرادات البشرية؛ فإذا كنت حكيمًا تنضم إلى الجانب الرابح. بيد أن هذا الجانب سيربح على أي الأحوال.

فالقوة الدافعة في المذهب؛ لدى كل من ماركس وأتباعه مستمدة من الكراهية - وهو أمر غير منطقي حيث إن ما يرتكبه الرأسماليون من فظاعات هي؛ في نظره؛ قدر محتوم وليست ناجمةً عن شرهم باعتبارهم أفرادًا؛ كما أن آراءه مستمدة إلى حد كبير من دراسته لعمال المصانع البريطانية في مطلع العقد الخامس من القرن الماضي - وهي فترة بشعة من استغلال الأطفال في العمل ومن المجاعة التي ترجع إلى عوامل مصطنعة أساسها قوانين الغلال، وكانت الكراهية في هذه الظروف رد فعل طبيعي.

بيد أن ما فعله ماركس هو أنه شيد من الكراهية مبدأً كونيًّا، وجعل منها مصدرًا لكل تقدم.

ومن الطبيعي أن يكون رد الفعل لدى الطبقات المالكة، في كل مكان انتشر فيه مذهبه، هو الفزع والعنف؛ وولت تحررية منتصف القرن التاسع عشر المبهمة والتي تتسم بالطيبة لتحل محلها وجهة نظر أحلك وأعنف.

ولماركس منطق جاف قاس يذكرنا «بكلفن»؛ فقد ذهب «كلفن» إلى أن أشخاصًا معنيين - ليسوا مختارين على أساس فضيلتهم بل كان اختيارهم بطريقة تحكمية - قُدِّر لهم أن يذهبوا إلى النعيم، والباقي نصيبهم الجحيم، وليس هناك من يتمتع بإرادة حرة؛ فعندما يعمل المختار خيرًا فإن ذلك من رحمة الله، وعندما يرتكب الشقي شرًّا فهذا أيضًا بأمر الله، وكذلك الأمر في نظام ماركس؛ فإنك إذا ولدت بروليتاريًّا فقد قدر لك أن تحمل رسالة المادية الجدلية (وهو الاسم الذي أُطلق على الإله الجديد)، بينما إذا ولدتَ بورجوازيًّا فإن مصيرك أن تعيش في صراع لا جدوى منه ضد النور، وأن تُلقى في غياهب الظلام الخارجي إذا عشت حتى مجيء الثورة.

وتسير هذه العملية التاريخية كلها طبقًا لنظام منطقي نقله ماركس؛ مع تعديل طفيف؛ عن هيجل؛ فالتطور البشري لا يمكن مقاومته مثل حركات الأجرام السماوية، وهو مستقل مثلها عن الإرادة البشرية تمامًا، والقوة التي يتولد عنها التغير في الأمور الاجتماعية هي الصراع بين الطبقات، وبعد ثورة البروليتاريا لن يكون هناك سوى طبقة

واحدة، ومن ثم سيتوقف التغير، وسيعاني من جرّاء ذلك حينًا من الزمن أولئك الذين جُردوا مما يملكون؛ وسيلقى زعماء النظام الجديد المختارون - كما فعل ترتليان[١]- في معسكرات الاعتقال ليقضوا بقية العمر في تأمل مصيرهم التعس، ولكن ماركس -وهو أكثر رحمةً من كلفن- يضع حدًّا لعذابهم بالموت.

وقد وجدت هذه الأسطورة البدائية الغريبة صدى لدى الفئات الأقل حظًّا من البشر، مثلما وجدت المسيحية صدى لدى العبيد في الإمبراطورية الرومانية؛ فقد جلبت الأمل في انقلاب عظيم سيتمتع المضطهدون بعده بالسعادة والقوة - وبما هو أحلى من ذلك كله - الانتقام؛ وكان يجب؛ طبقًا لما جاء في الإنجيل الجديد، أن تؤثر هذه الأسطورة أول ما تؤثر في العمال الصناعيين في أكثر البلاد تقدمًا وهي بريطانيا وأمريكا، ولكن الأجراء في أمريكا كانوا باستمرار في رخاء (إلا إذا كانوا من المهاجرين أو الملونين)، وفي بريطانيا زاد رخاء الأجراء بسرعة كبيرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومن ثم لم يكسب ماركس في كل من هذين البلدين سوى قلة من الأنصار، وقد كسب أنصارًا كثيرين في ألمانيا، ولكن هناك أيضًا أدى الرخاء المتزايد إلى التخفيف من حدة المذهب الأصلي، وكانت روسيا؛ أكثر الدول الكبرى تخلفًا وأقلها صناعةً؛ هي أول بلد تحقق لأتباع ماركس فيه الاستيلاء على الحكم.

وتعرضت الشيوعية؛ عندما صارت روسيةً، لتحول تدريجي كبير، وقد عرفت -وأنا شاب- بيبل؛ (Beibel) وليبنخت الأكبر اللذين كانا زعماء الحزب الماركسي في ألمانيا، وكان كلاهما رجلًا إنساني النزعة طيب القلب ولا يختلفان مطلقًا من الناحية السيكولوجية عن (الراديكاليين) الآخرين في ذلك العهد؛ فلم يحقدا على خصومهما السياسيين؛ ويتحدثان عن القيصر مثلًا؛ في سخرية متسامحة لامرارة فيها، وكانا مقتنعين بأن المستقبل لهما.

بيد أن هذا كان ما يعتقده جميع المصلحين الآخرين - النباتيين ودعاة عدم شرب

---

(١) Tertullian أحد أصحاب المذاهب المتشددة في الكثلكة الأولى.

الخمور وأنصار السلام والأرمن والوطنيين المقدونيين وكل الآخرين؛ فقد كان هذا المعتقد في ذلك الوقت جزءًا من تفاؤل القرن التاسع عشر، ولم تكن تخالطه نزوة حب الانتقام البائس، وكان معظم الماركسيين الألمان في ذلك العهد؛ وقد عرفت منهم الكثيرين؛ ظرفاء كأفراد؛ فلم يكن المرء يحس فيهم تلك القسوة التي تميز بها الشيوعيون منذ ذلك الوقت.

وقد صاغ الشيوعية الحديثة رجلان هما «لينين» و«ستالين»، وكان «لينين» قد عاش سنوات طويلةً في الغرب، وكذلك معظم زملائه، ولم يكن يرغب في إدخال الشيوعية في روسيا فحسب؛ بل كان يريد أيضًا أن يصبغ البلاد بالصبغة الغربية، وهو في هذا المجال أقرب إلى «ماركس» من «ستالين» بكثير.

وكان «لينين» بلا ريب رجلًا من أعظم رجالات عصرنا، وصحيح أن تفكيره كان ضيقًا وغير ممتاز؛ إذ لم يكن يستطيع التفكير خارج نطاق الماركسية الأصلية، وكان يعتبر أي قضية قد ثبتت إذا ما أقيم الدليل على أنها تتفق وأسفار «ماركس» و«إنجلز».

بيد أن وجه عظمته يكمن في إيمانه الذي لا يتزعزع وإرادته التي لا تفل؛ لقد كانت روسيا في سنة ١٩١٧م؛ مهزومةً متفككةً بلا نظام؛ فالجيش لم يعد له وجود تقريبًا، والألمان يحتلون قسمًا كبيرًا من البلاد، ولم تكن هناك قوات تحول دون تقدمهم أكثر من ذلك، والصناعة انهارت والفلاحون في حالة من التمرد تعمها الفوضى والأحزاب السياسية المختلفة تتقاتل بعضها مع البعض قتالًا مريرًا رغم الخراب الشامل، وبمجرد أن عاد لينين من المنفي وضع فورًا حدودًا ثابتةً ضيقةً للحزب، وبدأ أولًا بإقناع الزعماء البلشفيين الآخرين بعصوبة كبرى، ثم كسب سكَّان بتروجراء (كما كانت تسمى وقتذاك) عن طريق الثقة واستعمال منطق قوي متماسك، وكسب إلى جانبه الجنود؛ الذين كانوا عائدين من الجبهة رافضين الاستمرار في القتال؛ بأن وعدهم بالسلم؛ والأرض، ولم تمضِ بضعة شهور حتى كان قد بلغ من القوة حدًّا دفع حكومة «كرنسكي» المؤقتة إلى التخلي عن الحكم ذعرًا، وجعله يعلن استيلاء حزبه على الحكم.

بيد أن هذا لم يكن سوى البداية؛ فالحكومة المؤقتة كانت قد قررت إجراء انتخابات لجمعية تأسيسية، وتمت الانتخابات بعد الانقلاب البلشفي بقليل؛ وعندما ظهر أن الغالبية في هذه الجمعية؛ التي تم انتخابها على أساس ديموقراطي؛ معارضون للبلاشفة؛ حُلَّت الجمعية؛ ومنذ ذلك الحين حتى الوقت الحاضر لم يكن للبلاشفة أي سند مشروع للحكم في روسيا سوى القوة السافرة، وكانت خطوة «لينين» التالية هي إقناع زملائه بقبول صلح مهين مع ألمانيا، ولم يكد ذلك يتم حتى قامت ثورة أهلية كانت الهزيمة فيها كثيرًا ما تبدو وشيكةً، وبمجرد أن أتمت أمريكا وفرنسا واليابان هزيمة ألمانيا، أرسلت جنودًا لمساعدة خصوم البلاشفة في الحرب الأهلية، ومع ذلك انتصر البلاشفة، واضطر العالم للإذعان، بينما عملوا هم على دعم قوتهم؛ وكان البلاشفة أنفسهم يتوقعون الهزيمة طوال العامين الأولين، وكانت بقية العالم مقتنعةً بأنهم سيسقطون؛ ولكنهم بقوا، وشرعوا يعملون على تنظيم روسيا طبقًا للنظرية الماركسية.

بيد أن روسيا كانت تختلف تمام الاختلاف عن بلاد الغرب، ومن ثم لم تكن النتيجة هي ما تصوره ماركس بالضبط؛ فقد كانت الأمية تعم روسيا إلى حد كبير، وكانت الأغلبية الساحقة من السكَّان من الفلاحين؛ وكان الحكم القيصري المستبد قد عود الناس على الحكم المطلق، وكانت الكنيسة أكثر خضوعًا للدولة منها في البلاد الغربية، وكانت الخرافات منتشرةً كما كانت في أوروبا الغربية في العصور الوسطى؛ وسهلت هذه الأمور ما سُمِّيَ بدكتاتورية البروليتاريا التي كانت في الواقع ديكتاتورية الحلقة الداخلية للحزب الشيوعي، وقد كان «لينين» دائمًا بلا رحمة ولم تكن تجارب الحرب الأهلية لتجعله أقل قسوةً، وعجلت أخطار المواقف بعودة الحكم المطلق والدولة البوليسية الذين كانت البلاد قد تعودت عليهما قبل الثورة.

وقد كانت روسيا دائمًا عرضةً للتعصب؛ فقد كان فيها كثير من الشيع المارقة التي تحملت الاضطهاد ببطولة، وكان «إيفان الرهيب» و«بطرس الأكبر» متعصبين، وكان «باكونين» الزعيم الفوضوي أكثر تعصبًا من «ماركس»؛ كما أن الرجعيين الذين أيدوا

الحكومة القيصرية مهدوا الطريق لسقوطهم بالمقاومة التعصبية للأفكار الحديثة؛ فقد كانت حتى أكثر صور التحررية اعتدالًا تؤدي؛ حتى سنة ١٩١٧م، إلى سيبريا؛ وظلت روح التعصب باقيةً بعد الثورة؛ بل إن النجاح المقلقل زادها حدةً.

ودخل النظام السوفيتي مرحلةً جديدةً بمجيء «ستالين»؛ لقد كان «لينين» عالميًّا، عاش في البلاد الغربية، ولم يكن عنده شعور خاص نحو روسيا، ولكن «ستالين» لم يكن يعرف غير روسيا ولم يكن يحترم الغرب؛ فقضى على البقية الباقية من البلاشفة القدامى، واستثار الوطنية الروسية في مساعدة الأيديولوجية الشيوعية؛ كما سارت الوطنية جنبًا إلى جنب في تكاتف مع البروتستانتية في إنجلترا في عصر «إليزابيث»، تسير الوطنية في روسيا الآن في عهد ستالين جنبًا إلى جنب متكاتفةً مع الشيوعية، ولما كان معظم الروسيين وطنيين متحمسين؛ فإن ذلك يُضفي قوةً على النظام؛ إذ ينبغي الاعتراف بأن روسيا أحرزت نجاحًا مذهلًا في عهد «ستالين»، وتسيطر الشيوعية الآن على الصين والبلقان وبولندا وعلى جزء كبير من ألمانيا، وهناك من الأسباب الكثيرة ما يدعو إلى توقع سيطرتها على أقاليم في آسيا.

ومنذ ظهور الإسلام لم يحدث نجاح سريع مذهل كما حدث للشيوعية، ومن ثم لا عجب في أن بقية العالم تتساءل أهناك حدود يمكن إقامتها في وجه الغزو السوفيتي حتى لا يستولي على الكرة الأرضية كلها.

ومنذ عشرة أعوام بدا أن هناك أيدلوجية أخرى وهي الفاشية تمثل خطرًا مثل الخطر الشيوعي الآن، وقد اختفت الفاشية اليوم،و لم يعد لها وجود في وضح النهار، ولكن لعل ذلك لفترة ما فحسب.

وأيًّا كان الأمر؛ فإن المزاج المتعصب الذي تولدت عنه الفاشية موجود وعلى استعداد لأن يستثيره نفس النوع من الظروف مرةً أخرى؛ فقد استولى النازيون على ألمانيا بسبب الشقاء الذي نجم عن الأزمة الكبرى التي نتجت بدورها عن حماقة الرجعيين الأمريكيين، وإذا حدث أن اتبعت أمريكا مرةً أخرى سياسةً اقتصاديةً خرقاء

مثل تلك التي اتبعتها في العشرينات من القرن الحالي؛ فليس من المستحيل مطلقًا أن تتولد عنها حماقات مماثلة في بلاد أخرى.

والتعصب عندما يسيطر على حكومة يكون خطرًا؛ لأنها تجد التعاون مع الآخرين عسيرًا؛ فالنازيون والشيوعيون على السواء جعلوا المعاهدات والاتفاقات تبدو للعالم الخارجي عديمة الجدوى؛ لأن تعصبهم يجعلهم غير قادرين على حسن النية، والموقف كما هو الآن لا يُمكِّن من إقامة حكومة عالمية، إلا أن نأمل في أن تخف حدة تعصبها، وألا ينمو في نفس الوقت التعصب العدائي من جانب الولايات المتحدة بحيث يصبح عقبة لا تقل خطورةً في سبيل التعاون.

ودعنا نفكر لحظةً؛ بصورة أكثر شمولًا، في طبيعة التعصب وأسبابه والوسائل الممكنة للتخفيف من حدته؛ إن جوهر التعصب هو اعتبار أمر ما من الأهمية وحده بمكان يفوق كل شيء آخر؛ فالبيزنطيون مثلًا في الأيام الأخيرة للإمبراطورية قبل الغزو التركي اعتقدوا أن تجنب استعمال الخبز الذي ليس به «خميرة» في القدَّاس أهم من الاحتفاظ بالقسطنطينية من أجل المسيحية. وقسم كبير من سكان شبه الجزيرة الهندية على استعداد لأن يجلبوا على بلادهم الخراب من أجل موضوع؛ أيهما خطيئة أكبر؛ أكل لحم البقر؛ أم لحم الخنزير. والرجعيون الأمريكيون يفضلون أن يخسروا الحرب التالية على أن يستخدموا في الأبحاث الذرية أي شخص تحدث أحد أقربائه الأبعدين مرةً مع شيوعي في حفلة.

وفي الحرب العالمية الأولى احتج «السبتيون» (Salrbatariam) الاسكتلنديون؛ برغم النقص في الطعام الذي ترتب على نشاط الغاصات الألمانية؛ على زرع البطاطس في أيام الأحد، وذهبوا إلى أن الغضب الإلهي من هذه الخطيئة هو الذي أدى إلى عدم نجاحنا في الميدان. وأولئك الذين يعترضون على ضبط النسل بدافع ديني على استعداد لأن يدعوا العوز والمجاعة والحرب تستمر إلى أبد الآبدين؛ لأنهم لا يستطيعون أن ينسوا آيةً واحدةً من «سفر التكوين» أُسيء تفسيرها، و كل من أصدقاء الشيوعية المتحمسين

لها وخصومها الألدَّاء على السواء، يفضلون مشاهدة الجنس البشري تُستأصل شأفته بواسطة النشاط الإشعاعي على التفاهم مع الجانب الشرير - الرأسمالية أو الشيوعية حسب الأحوال؛ إن كل هذه أمثلة للتعصب.

وفي كل مجتمع نسبة معينة من ذوي المزاج المتعصب، وبعض ألوان التعصب في جوهرها غير مؤذية، وبعضها لا يؤذي ما دام معتنقوه قلةً بعيدةً عن الحكم؛ فهناك في بنسلفانيا فئة[1] تذهب إلى أن استعمال «الأزرار» في الثوب خطيئة؛ وهذا النوع من التعصب غير مؤذ بتاتًا إلا في حدود أنه يتم على حالة عقلية سخيفة. وبعض البروتستانتيين المتطرفين يودون لو عاد اضطهاد الكاثوليك إلى الحياة مرةً أخرى؛ وهؤلاء المتعصبون يظلون غير مؤذين ما داموا قلةً؛ فالتعصب لا يكون خطرًا جديًّا إلا عندما يعتنق عقيدةً تعصبيةً عدد من الناس يكفي لتعريض السلام للخطر؛ إما داخليًّا بحرب أهلية أو خارجيًّا بحرب دينية، أو عندما يؤدي التعصب -من دون حرب أهلية- إلى قيام حكم القديسين وما ينطوي عليه من اضطهاد وجمود عقلي، وأكبر مثل في التاريخ على هذا النوع الأخير من التعصب هو حكم الكنيسة الذي ظل من القرن الرابع إلى القرن السادس عشر، وأكبر مثل في عصرنا الحالي هو حكم الكنيسة الشيوعية؛ إذا جاز لنا أن نطلق عليه ذلك.

والأسباب الرئيسة للتعصب -من وجهة النظر التاريخية- كانت الشقاء والفقر؛ فالتعصب انتشر بين اليهود إبان (الأسر البابلي)؛ وزاده الاضطهاد حدةً في عهد أنتيوخوس الرابع «Antiochus» والمكابين؛ ومرةً أخرى بعد تدمير القدس؛ وفي عصرنا الحالي أدى التعصب النازي -وكان لا مفر من هذا- إلى تعصب مضاد بين عدد من اليهود؛ أما في البلاد الإسلامية؛ حيث عُومل اليهود معامل حسنة؛ فلم يحدث قط أن كانوا متعصبين.

وما كان الألمانيون العاديون ليقبلوا تعصب النازي إلا نتيجة للفقر والإذلال اللذين

---

(١) The Amish.

جلبتهما معاهدة فرساي والأزمة الكبرى.

وكان تعصب الثوريين الروس نتيجةً للاضطهاد القيصري، وقد تولد التعصب أول ما تولد عند (لينين) بصفة خاصة من إعدام أخيه. كما أن الهزيمة في الحرب في سنة ١٩١٧م، والفوضى والخراب جعلت أقسامًا كبيرةً من سكان روسيا عرضةً للتعصب، وولدت فيهم استعدادًا للسير وراء أي قائد يعزف ما يريد، ويؤمن إيمانًا حقيقيًّا بأنه يستطيع أن يقودهم في طريق الخلاص، وبعد أن قطع البلاشفة الصلة التي كانت بينهم وبين الديموقراطية بحلهم الجمعية التأسيسية، أضيف إلى التعصب دوافع المحافظة على الذات وشهوة السلطان، وهذه الدوافع التي توجد أيضًا عند الأمم الاستعمارية الغنية، لها أسباب تختلف عن أسباب التعصب، وذلك ما يجعل من العسير معالجة الوضع في روسيا حيث يوجد النوعان من الدوافع جنبًا إلى جنب.

ويتطلب القضاء على التعصب؛ باستثناء الحالات النادرة التي يكون فيها انحرافًا عند أشخاص شاذين؛ ثلاثة أشياء: الرخاء، والأمن، وتربية تحررية.

وينتشر عدم الإحساس بالأمن في الوقت الحاضر في جميع أنحاء العالم؛ فقد سمعنا جميعًا عن فظائع القنبلة (الأيدروجينية) والحرب (البكتريولجية)، ونحن نعلم جميعًا أن الحرب قد تنشب في أي لحظة، ويدفع جو الرعب هذا الناس إلى التعلق بالخرافات وإلى ممارسة ألوان من عدم التسامح تزيد الخطر حدةً بدلًا من أن تقلل منه، وإذا أريد للتعصب أن يقل، سواء في روسيا أو في غيرها؛ فإن أول خطوة يجب أن تكون هي البحث عن وسيلة للإقلال من الشعور بعدم الأمن، وهذا الأمر عسير في الحالة الراهنة للسياسة العالمية، ولكن لا بد منه إذا أريد تجنب الكارثة.

ومن المسلم به بصفة عامة في الغرب أن الرخاء هو خير وسيلة لمنع الشيوعية والتعصب؛ ولكن ما من أحد يبدو أنه قد استخلص من ذلك أن رخاء روسيا ممَّا يُرغب فيه. إن التبادل التجاري عبر الستار الحديدي ينبغي أن يحظى بالتشجيع؛ كما يجب عمل كل ما يمكن لتحويل انتباه الروس إلى تنمية بلدهم ذاته، وأنا مسلم بأن الروس

يجعلون هذه الأشياء صعبة التحقيق. بيد أنه مما لا مفر منه أن يتطلب تبديد شكوكهم منا وقتًا طويلًا وصبرًا.

والتربية التحررية هي أصعب المطالب الثلاثة منالًا؛ فالروس لا يريدونها بتاتًا، والأمريكيون يتناقص ما لديهم منها سنة بعد سنة، ولنتأمل مثلًا قضية دكتور (لاتيمور) الذي اتهم بالخيانة؛ لأنه قال عن الصين أشياء يعرفها كل العارفين ببواطن الأمور، وهي أشياء من مصلحة أمريكا أن يلم بها واضعو السياسة الأمريكية، ولن تتحسن الأمور في هذا المجال حتى يتوافر قدر أكبر من الإحساس بالزمن لمدة بضع سنوات مقبلة على الأقل، ومن ثم فالواجب الرئيس على الساسة في عصرنا الحالي هو العمل على خلق مثل هذا الشعور على جانبي الستار الحديدي.

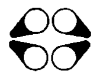
ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ يجب أن يحدث تحول في اتجاهنا؛ فيجب علينا أن نكرس أنفسنا لإظهار مدى الكارثة التي تحل بجميع الأطراف من جراء الحرب، وليس لبيان كيف نحقق النصر للجانب الذي ننتمي إليه وإلى حد يكون انتصارًا جميلًا؛ ففي الغرب، حيث يمكن أن تكون هناك مناقشة حرة، ينبغي أن يجتمع معًا الأشخاص ذوو المكانة، وخاصة العلماء من ينتمون إلى جميع الاتجاهات السياسة، وينبغي أن يُتفق على عدم إثارة موضوع أي النظامين - الروسي والأمريكي - أفضل في مناقشاتهم بتاتًا، والأمر الذي يجب أن يكون واضحًا هو: أولًا؛ أنه إذا وقعت حرب فإن المنتصر، حتى إذا كان انتصاره كاملًا -وهو أمر بعيد- سيخرج منها أسوأ حالًا مما كان قبلها. والثاني: أنه ليس هناك من سبب؛ غير الريبة المتبادلة، يدعو لعدم تعايش النظامين سلميًا جنبًا إلى جنب. والثالث: أنه يمكن تقسيم العالم إلى مجالات، ويترك كل طرف حرًا في مجاله الخاص به، ولكن على أن يوافق على ألا يتدخل في المجالات الأخرى؛ فإذا حدث في الغرب أن اتفق عدد كاف من الأشخاص ذوي المكانة المرموقة الذين يختلفون في ميولهم السياسية اختلافًا واضحًا؛ بما فيهم الشيوعيون، على حل مماثل؛ فإن هناك معنى للأمل في أن تنظر الحكومات على جانبي الستار الحديدي في المتقرحات بعناية؛

مما قد يؤدي إلى إيجاد أساس للاتفاق بينها؛ إذ إن البديل هو أن تُحَلّ الكارثة؛ لا بهذه الجماعة أو تلك، ولكن بالجنس البشري.

وإذا أمكن إزالة الخوف من وقوع حرب وشيكة؛ فإني لا أشك في أنه سيحدث تحسن سريع جدًّا في الموقف؛ فتصير روسيا أقل عداءً للتحررية، ويتوقف نمو التسلح في الولايات المتحدة.

وأعيد مرةً أخرى: إن هدفنا يجب أن يكون قيام حكومة عالمية، ولقد بذلت كل ما في وسعي في علاج مشكلات السكّان والعنصر والمذهب، وفي نفس الوقت تجب المحافظة على السلام بطريقة ما بواسطة ما يتاح من وسائل وحلول مؤقتة والإدراك العام لحقيقة ما يتعرض له الجنس البشري من خطر.

وعلى العالم أن يتعلم الإدراك الاقتصادي السليم؛ وعلى الأجناس المختلفة أن تعامل بعضها البعض كأنداد، ويجب أن يعم التسامح فيما يتعلق بالاختلافات المذهبية، وقد تعمل الميول الطبيعية على تحقيق هذه الأشياء إذا لم تقع حرب كبرى، وإذا أمكن في آخر الأمر قيام حكومة عالمية مستقرة، فإن الجنس البشري قد يُقبل على فترة من الرخاء والرفاهة ليس في تاريخ نوعنا ما يضاهيها.



الفصل الرابع عشر

التعاون الاقتصادي والمنافسة الاقتصادية

لقد أحاط أصحاب النظريات علم الاقتصاد بالغلالة تلو الغلالة، حتى أدى الأمر إلى أن أصبح الرجل العادي يفترض أن هناك شيئًا من قلة الحياء في كشف صورته المجردة، وفي اعتقادي أن الشيء الوحيد الذي يمكن عمله بالنظر لهذا الموقف هو أن أبدأ منذ البداية بأمور من البساطة بحيث إن القارئ قد يغضب إذ يراني أذكرها؛ معتقدًا أني أستهين بذكائه عمدًا، وإني أؤكد له كل التأكيد وبكل إخلاص أن ذلك أبعد ما يكون عن قصدي.

إن الاقتصاد بوصفه موضوعًا متميزًا عن الاستراتيجية الحربية، يعتمد على القانون؛ واعتماده على القانون أكثر بكثير مما أدركه الاقتصاديون الكلاسيكيون، ولكن دعنا، أيًّا كان الأمر؛ نبدأ بتجاهل الدور الذي يعلبه القانون.

فإذا كنت عضوًا في مجتمع بدائي وأردت أن تنتج طعامًا مثلًا؛ فإن عليك أن تفعل شيئين: فمن ناحية عليك أن تتغلب على منافسك، ومن ناحية أخرى عليك أن ترغم امرأتك على القيام بالعمل بدلًا منك في ذلك الجزء من النهار الذي تشتد فيه الحرارة وتجد العمل غير مريح، وعندما تعمل للتغلب على منافسيك تكون البذرة التي تنمو منها القوة العسكرية للدولة، وعندما تدفع امرأتك إلى العمل تكون البذرة التي ينمو منها الرأسمالي؛ فعلاقتك بأعدائك علاقة منافسة؛ بينما علاقتك بامرأتك علاقة تعاون.

وفي المجتمعات المنظمة التي ما زالت في مرحلة مبكرة من النمو الاقتصادي، كمجتمع قرية من قرى الهند والصين مثلًا؛ لا تترك هذه الأمور للفلاح الفرد؛ فالقانون ينظم ملكية الأرض، والعرف -بمعونة القانون إلى حد ما- ينظم العلاقة الاقتصادية بين الرجل وامرأته، والمنافسة في صورتها البدائية على ملكية الأرض تصير من امتيازات الدولة وتتم بواسطة الجيوش، والتعاون في هذه المرحلة يقتصر؛ كما كان الحال قبل ذلك، على العائلة وحدها تقريبًا؛ فالفلاح ينتج طعامه بنفسه باستثناء بعض المواد مثل الملح والسكر، وأدواته بسيطة جدًّا وملابسه لا تكلف إلا القليل جدًّا، ومن ثم فإن علاقاته الاقتصادية بالعالم الخارجي سواء باعتباره بائعًا أو مشتريًا؛ ليست من الأهمية بمكان كبير؛ فهو أساسًا مثل الحيوان البري، وحدة مكتفية بذاتها؛ أو أيًّا كان الحال؛ عائلته هي هذه الوحدة؛ فلا المنافسة ولا التعاون في صورها المهمة تدخل حياته الاقتصادية.

إن (المنافسة) بالمعنى الذي يستعمله بها الاقتصاديون الكلاسيكيون تعتمد على وجود التجارة التي ينظمها القانون؛ فهي من الناحية النظرية لا علاقة لها بتلك المنافسة الأكثر منها بدائيةً التي أصبحت وظيفةً من وظائف الجيوش، والتي تحدد ملكية الأرض؛ فهي لا توجد نظريًّا إلا داخل إطار محدد من القانون.

فإذا كان لدينا عدد من الأشخاص ينتج كل منهم مستقلًّا عن الآخرين نفس السلعة، ويريد أن يعيش على استبدالها بسلع أخرى؛ فمن الواضح أن كلًّا منهم سيحاول الحصول على أكبر قدر ممكن من السلع الأخرى عن طريق هذا الاستبدال.

بيد أن كلًّا منهم سيكون محكومًا في طلباته بتلك الحقيقة، وهي أن منافسه قد يطلب قدرًا من السلع أقل مما يطلبه هو، ولا ينشأ هذا الموقف إلا إذا كان منتجو السلعة التي يتعلق بها الأمر يستطيعون مجتمعين أن ينتجوا منها قدرًا أكبر مما يمكن أن يباع بربح، أو على الأقل من دون خسارة، والنظام كله لا ينطبق إلا حيثما توجد محاكم ورجال شرطة يرغمون المتعاقدين على تنفيذ عقودهم، وبمجرد انقضاء مرحلة المقايضة البدائية يجب أن تكون هناك عملة مستقرة إلى حد يزيد أو ينقص تجري على

أساس قيمتها القانونية «المبادلات» وتوضع جميع أنواع القيود القانونية المحكمة على أساليب المنافسة؛ فجيب ألا تقتل منافسك الرئيس؛ فهذا النوع من أنواع المنافسة من حق الدولة، ويسمح لك بأن تقول للجمهور أن بضائعك حسنة، ولكن يجب ألا تقول للناس أن بضائع الشخص الآخر سيئة، وفي نفس الوقت إذا اكتشفت أن الشخص الآخر ارتكب جريمةً أخلاقيةً؛ فإن من حقك تمامًا أن تعلن هذه الحقيقة؛ إلا إذا ثبت أنك كنت مدفوعًا إلى ذلك بدافع الحقد؛ وستدعي أنت طبعًا أنك إنما تفعل ذلك لا لشيء سوى رغبتك في حماية الفضيلة العام، وإن مسألة كون المذنب قد تصادف أنه منافسك لا دخل لها في تصرفك، وسيفصل في هذا الموضوع المحلفون، ومع ذلك يصف الاقتصاديون الكلاسيكيون هذه المنافسة بأنها «حرة».

وقد ساد الاعتقاد بأن للمنافسة «الحرة» ما لا يُحصى من النتائج الطيبة؛ فقد اعتقد الناس أن أفضل السلع ستحظى بأكبر رواج إذا تساوى السعر، واعتقدوا أن أي تحسين في أساليب الإنتاج سيجعل في وسع الشخص الذي أدخل التحسين أن يبيع بأسعار أقل من منافسيه، وهكذا تؤدي المناف ـة إلى تحسين النوع والإقلال من نفقات أساليب الإنتاج، ومن الممكن أنه كان هناك عنصر صغير من الحق في هذه النظرية منذ ١٥٠ سنة في صناعة القطن؛ فمما لا ريب فيه أن إنتاج الأجراء قد صار أقل كلفةً إلى أقصى حد، وكذلك إنتاج مادة القطن الأولية عن طريق استخدام العبيد في المزارع، ومن ثم كانت نتائج هذا النظام عظيمةً؛ إلا بالنسبة للعمال في مصانع القطن وللعبيد في المزارع.

بيد أن هؤلاء وأولئك لم يضعوا كتب الاقتصاد المدرسية.

ولكن الأمور تحولت شيئًا فشيئًا عن الطريق الذي افترضه الاقتصاديون التقليديون، وإن كان الاقتصاديون لم يدركوا ذلك إلا بعد وقت طويل، وبدأ الجميع باستثناء المستهلكين، يكتشفون مزايا التكتل؛ فتكتل أصحاب المصانع ليتجنبوا المنافسة القاسية فيما بينهم، وتكونت النقابات حتى يستفيد الأجراء من مزايا التكتل.

بيد أن ذلك اعتبر أمرًا شائنًا، حيث إنه يعرقل مبدأ حرية المنافسة الذي وضع في

مرتبة الآلهة، ولم يحصل الأجراء على حقوق حرية التكتل إلا بعد صراع طويل مرير.

واكتشف البعض أن حيازة المادة الأولية في بعض الصناعات يمكن أن تكفل لصاحبها قوة الاحتكار؛ فاستعملت هذه الوسيلة بمهارة؛ وكانت السكك الحديدية، إلا فيما يتعلق ببعض النقاط، احتكارات قامت في ظل القانون ويصور لنا «نوريس» - في «الأخطبوط» - بوضوح القوة التي كفلها لها ذلك، وكان «ماركس» قد تنبأ بأن المنافسة بين الرأسماليين ستنتهي إلى الاحتكار، وقد تبين صدق هذا عندما حصل «روكفلر» على احتكار فعلي للبترول، وأزعج هذا أنصار المنافسة الحرة المخلصون؛ فوضعوا القوانين للقضاء على احتكاره.

بيد أنه من العسير أن تجبر الناس على القتال عندما لا تكون عندهم رغبة للقتال، ولم يحظ التشريع المضاد التكتلات في أمريكا -بعد عدد من القضايا التي تكلفت نفقات هائلةً وكانت عديمة الأثر ضد الاحتكارات- سوى بنصر واحد في قضية «يوجين ضد دبز»؛ إذ حُكم على الداعية العمالي فيها بالسجن، ولم يكن هذا هو بالضبط ما هدف إليه الذين قاموا بالحركة ضد شركة (ستاندارد أويل) و(موثقة الصلب).

إن المنافسة داخل حدود البلد تنتمي إلى مرحلة مبكرة من النمو الصناعي؛ ففي جميع الصناعات المهمة يوجد اتجاه نحو الاحتكار الفعلي لا يقاوم، وتأتي لحظة إما أن تستولي الصناعات فيها على الدولة أو تستولي الدولة على الصناعات، والسبيل الأول يفضله أولئك الذين يحدوهم حنين مخلص إلى الماضي، ويتصورون أنهم بذلك يخدمون إله المنافسة الحرة، ولكن السبيل الثاني هو الذي يعمل به بصورة متزايدة؛ حتى في الأماكن التي يتجنب فيها نظريًّا، ومن ثم فإن المنافسة في العالم الحديث تقوم بين الأمم لا بين المنتجين الأفراد، فالبريطانيون مثلًا يريدون بيع السيارات في أمريكا؛ وهذا الموضوع أمر حكومي يتفق عليه بين «هوايتهول» و«واشنجتن»؛ فعلى «هوايتهول» أن تقرر مقدار المواد الأولية التي تخصص لصناعة السيارات، وعلى واشنطن أن تفكر في مدى الضيق الذي يحدثه ذلك في «ديترويت» بحيث يكون أقل إضرارًا بمصالح

الولايات المتحدة من إفلاس الحكومة البريطانية، وإذا أصاب البريطانيون نجاحًا أكثر ما ينبغي في تصدير السيارات فإن الحكومة الأمريكية ترفع الضريبة الجمركية، وإذا كان نجاحهم أقل ما ينبغي فقد يدعو ذلك إلى التفكير في خفضها، وهذا النوع من العمليات بعيد كل البعد عن المنافسة الحرة التي نادى بها الاقتصاديون الكلاسيكيون، وأنا لا أقول إن المنافسة الحرة لم يعد لها وجود ألبتة، إذ يمكن العثور عليها في مستويات معينة؛ فإذا حصل تلميذ في مدرسة على طابع بريد من «بالي» فإن التلاميذ الذين يهوون جمع الطوابع لهم أن يتنافسوا بحرية في العروض التي يتقدمون بها لشراء هذا الطابع، ولكن المنافسة في العمليات الاقتصادية الأكثر تقدمًا ليست بين الأفراد؛ بل بين الدول، وهي تخضع لجميع ألوان الاعتبارات السياسة.

فقد جعلت الأساليب الفنية في الصناعة الحديثة المنافسة أقل أهميةً بكثير مما كانت؛ كما جعلت الصناعات المختلفة والأجزاء المختلفة من العالم أكثر اعتمادًا على بعضها البعض بكثير مما كانت قبل ذلك، وجعل الاهتمام بالمنافسة كثيرًا من الناس يفترضون أن أي خسارة يمنى بها (أ) لا بد أن يكون فيها مكسب لـ (ب)، ويأتي هذا من الظن بأن المنافسة علاقة اقتصادية أساسية أكثر من التعاون ومتكررة أكثر منه. بيد أن مثل هذا الرأي قد صار قديمًا وبالغ الضرر حيثما تشبث بالبقاء.

وللتعاون الاقتصادي صورتان، الأولى: هي التبادل، والثانية: هي تنسيق مراحل الإنتاج في سلعة واحدة، ومن السهل على المرء أن يفهم أنه إذا أنزل الخراب بعميله؛ فإن هذا العميل لن يشتري منه نفس القدر الذي كان يشتريه وهو في رخاء.

بيد أنه على الرغم من أن ذلك لا بد أن يكون أمرًا سهل الفهم فإنه يبدو أن أقليةً ضئيلةً من الجنس البشري فقط تستطيع بذل المجهود الفكري الذي يتطلبه؛ فمعظم العملاء هم في نفس الوقت متنافسون أيضًا، وإذا كنت صاحب عمل فإنك تشعر بهم بوصفهم منافسين بوضوح أكثر مما تشعر بهم باعتبارهم عملاء؛ إن الأمريكيين يغضبون عندما يجدون أن البريطانيين إذا لم يستطيعوا الحصول على الدولارات يشترون طعامًا وطباقًا

أقل من أمريكا؛ لأن ذلك يواجههم بمعضلة مؤلمة من الناحية العاطفية، فإما أن يتمتع البريطانيون بالرخاء؛ أو تتعرض بعض المصالح الأمريكية الكبرى للضرر، ومن العسير تحديد أي الأمرين أشد إزعاجًا، وتثير هذه المعضلة بطبيعة الحال الشعور المضاد للبريطانيين في الولايات المتحدة.

والصورة الأخرى من صور التعاون الحديثة، وهي التي تتم بين مراحل الإنتاج المختلفة لسلعة بذاتها، أكثر إثارةً للاهتمام كما أنها أكثر تعقيدًا في عملها؛ فالأساليب الفنية في الصناعة الحديثة تتطلب قدرًا كبيرًا من رأس المال الثابت والكثير الكلفة تمامًا الذي لا يمكن استخدامه إلا في عمليات معينة، وإذا لم تعد السلعة المجهزة؛ التي خصص من أجلها رأس المال هذا، مطلوبة فإن رأس المال يصير عديم الفائدة ولا يستطيع كل العمل الذي وضع في إنتاجها أن يزيد من مقدار السلع القابلة للاستهلاك، ويمكن أن يحدث نفس الشيء على مستوى بدائي أكثر؛ فإنك إذا حرثت حقلًا ثم منعت من بذر البدور فيه، فإن حرثك أصبح مجهودًا ضائعًا، وإذا بذرت البذور وقضى سوء الطقس على المحصول؛ فإن مجهودك يكون أيضًا قد أصبح ضائعًا.

بيد أن عمليات الإنتاج الآلي الحديث المعقدة تنطوي على قدر أكثر من ذلك بكثير من هذه الأمور؛ فالأساليب الحديث أسرع بكثير من القديمة في إنتاج كمية كبيرة من سلعة ما، ولكنها بصفة عامة أبطأ في إنتاج القليل من تلك السلعة؛ إن (أورليانا) عندما أراد أن يعود من رحلته في أعالي (الأمازون) صنع هو وزملاؤه قاربًا في يوم أو اثنين حملهم بنجاح من قرب المنبع إلى مصب ذلك النهر، ولكن عندما أرادت حكومة الولايات المتحدة عددًا كبيرًا من السفن لتعوض ما فُقد بسبب الغواصات في الحرب العالمية الثانية، مضى وقت طويل قبل أن يتم إنتاج سفينة واحدة؛ ولكن بمجرد أن أمكن إنتاج سفينة واحدة، صار في الإمكان إنتاج عدد كبير جدًّا منها في تعاقب سريع.

بيد أن الأساليب الحديثة في الإنتاج الكبير تتطلب قدرًا هائلًا من العمل قبل أن تدر أي عائد كان من النتاج المجهز، ولكن عندما تبدأ في أن تدر عائدًا يكون العائد كبيرًا

جدًّا، وإذا حدث في هذا الأثناء أن تغيرت الظروف بحيث لم يعد هذا النتاج مطلوبًا؛ فإن العمل المحكم الذي بذل في الاستعداد يذهب هباء، وتأمل ما حدث عند بداية الأزمة الكبرى؛ فكل إنسان كان يشعر بأنه غني وتوقع أن يكون في وسعه شراء جميع ألوان الأشياء الغالية، ثم تبين أن هذه الاستعدادات كان مبالغًا فيها، ولم يستطع الناس الذين أعدوا الاستعدادات لصنع نوع ما من السلع أن يبيعوا كل ما صنعوه، ومن ثم لم يكن في وسعهم شراء نوع آخر من السلع، وبذا لم يعد في وسع صانعي النوع الثاني من السلع أن يشتروا بدورهم نوعًا ثالثًا، هكذا انتشرت الأزمة، وفجأةً صارت مقادير كبيرة من الاستعدادات لإنتاج السلع عديمة الفائدة، وعمت البطالة بين أولئك الذي كان يجب أن يجدوا عملًا، ومن ثم فإنه بدورهم لم يستطيعوا أن ينفقوا إلا أقل بكثير مما كان متوقعًا أن ينفقوه، وهكذا صار ما كان يعتقد أنه وسيلة لإنتاج الثروة عديم الفائدة فجأة! وأصبح كل الناس فقراء؛ وفي مثل هذا الموقف تكون المصلحة الشخصية الظاهرة لكل إنسان مضادةً على خط مستقيم للمصلحة العامة؛ فالبنوك التي تكون قد أقرضت ما لا تخشى أن يفلس المدينون لها، ومن ثم تسترجع القروض يمينًا ويسارًا، وبذلك تكون سببًا في الإفلاس الذي تخشاه، ويجعل الخوف من الكارثة كل شخص يتصرف بالطريقة التي تزيد الكارثة، ويشبه الموقف من الناحية السيكولوجية موقف جمهور يطأ بعضه البعض بالأقدام حتى الموت عندما يحدث ذعر في دار من دور المسرح بسب صيحة يطلقها البعض (النار)! وفي الموقف الذي أوجدته الأزمة الكبرى كان السبيل الوحيد لوضع الأمور في نصابها هو إعادة المصانع المعطلة إلى العمل ثانيةً.

بيد أن كل إنسان كان يشعر بأن ذلك بمثابة المخاطرة بخسارة تكاد تكون محققةً، ومن ثم لم يكن هناك حل داخل إطار الاقتصاد التقليدي، ولكن (روزفلت) أنقذ الموقف بتصرف جريء يعد خروجًا على مبادئ الاقتصاد التقليدي؛ فقد أنفق البلايين من الأموال وخلق دينًا أهليًّا هائلًا، ولكنه بما فعل بث الحياة في الإنتاج وأنقذ بلده من الأزمة، وأحس رجال الأعمال -الذين ظلوا رغم مثل هذا الدرس القاسي يؤمنون

بالقواعد الاقتصادية البالية- بصدمة عنيفة مزعجة، وجعلوا يطلقون لعناتهم على (روزفلت) -رغم أنه أنقذهم من الخراب- ويتحدثون عنه قائلين: (الرجل المجنون الذي يقيم في البيت الأبيض)، ولست أعرف مثلًا بارزًا مثل هذا المثل لعدم القدرة على التعلم من التجربة اللهم إلا أبحاث (فابر) في سلوك الحشرات.

إن المبدأ الذي طبقه (روزفلت) في الصفقة الجديدة (**New Deal**) هو نفس المبدأ الذي نحتاج إليه الآن في الشئون الدولية؛ فعلى الرغم من أنه يبدو أن في الأمر تناقضًا، فإن الحقيقة مع ذلك هي أن الطريقة الوحيدة لتجنب الفقر هي الإنفاق، وهذا لا ينطبق؛ بطبيعة الحال؛ على الأفراد؛ إذ هم لا يستطيعون إنفاق أكثر ما لديهم؛ ولكنه ينطبق على الحكومات التي تتمتع دون غيرها بامتياز عدم دفع ديونها؛ فالأمريكيون مثلًا لديهم رغبة شديدة في بيع بضائعهم في الخارج. بيد أنهم لا يستطيعون ذلك إلا إذا كان في وسع الأمم الأخرى أن تشتري منهم، ولست أريد أن أقول شيئًا فيه مساس (بمشروع مرشال)، ولكني أكرر فقط ما قاله دعاته من الأمريكيين أنفسهم من أنه يخدم مصالح أمريكا كما يخدم مصالح أوروبا، ولا أعني فقط أنه أوقف انتشار الشيوعية في غرب أوروبا -وهو أمر صحيح لا مراء فيه- بل أعني أن أمريكا الآن في حالة مالية أحسن بفضل إنفاقها المال على إنعاش أوروبا، أما مشروع (ترومان) النقطة الرابعة الذي قُصد به إنعاش الدول الأخرى خارج أوروبا بنفس الأسلوب؛ فللأسف لم يفهمه (الكونجرس)، ونُفذ بطريقة غير سليمة إلى حد كبير، والأمل معقود على أن التجارب المقبلة ستجعل أمريكا ترى الحكمة منه.

ولقد تحدثت عن الخسارة الناجمة عن بقاء المصانع بلا عمل، بيد أن البطالة التي تفرض على الكائنات الآدمية أسوأ حتى من ذلك، إن المصنع بلا عمل كالآدمي بلا عمل سواء في أنهما غير مفيدين، ولكن المخلوقات الآدمية المتعطلة تتألم إلى جانب ذلك، وقد كانت النظرية الاقتصادية القديمة غير قادرة على علاج مشكلة البطالة؛

فكانت (الدورات التجارية)[1] تعتبر قانونًا من قوانين الطبيعة، وكان الاعتقاد السائد أنه ليس هناك من وسيلة يمكن جعل الناس بواسطتها يستمرون في العمل في الأوقات السيئة، وقد قلت أحيانًا لبعض الأمريكيين: إن الأزمة الكبرى نجمت عن أخطاء في السياسة الاقتصادية الأمريكية فحدقوا في النظر كما لو كنت قد قلت إن الحكومة هي المسئولة عن زلزال سان فرنسيسكو! إذ لم يكن في وسعهم قط أن يصدقوا أن ظاهرةً مثل (الدورات التجارية) يمكن لأي تصرف بشري أن يتحكم فيها.

بيد أننا نعرف الآن أنها مما يمكن السيطرة عليه، ونحن مدينون بهذه المعرفة أساسًا لكينز (Keynes)، والمبدأ في خطوطه العريضة هو أن الحكومات يجب أن تنفق وأن تشجع على الإنفاق عندما يميل الأشخاص العاديون إلى التوفير. وأنها يجب أن تشجع على التوفير، أو تفرضه بواسطة الضرائب، عندما يميل الناس إلى الإنفاق. ويبدو أنه مما لا شك فيه أن الحكومات إذا اتبعت الأساليب التي دعا إليها كينز فلن يوجد سبب يدعو إلى استمرار «الدورات التجارية» أو إلى وقوع فترات من البطالة على نطاق واسع، ولم يكن «كينز» اشتراكيًّا، ولكنه دعا فعلًا إلى تدخل الحكومة لمنع الأزمات، ولست أعتقد أن القول بأنه يمكن الحصول على النتائج الطيبة - التي يستطيع هذا النظام أن يكفلها بغير طريق التدخل الحكومي، قول معقول.

إن لنا أن نستنبط خلاصةً عامةً من النمو الاقتصادي الحديث، وهي أن أي أمة تريد لنفسها الرخاء عليها أن تلتجئ إلى التعاون مع الأمم الأخرى لا إلى منافستها؛ فالعالم موحد من الناحية الاقتصادية بصورة لم يشهدها في أي عهد سابق، وحتى فيما يتعلق بالمكسب النقدي البحت من النادر أن تجني أي أمة شيئًا من وراء إنزال الخراب بأمة أخرى في الوقت الحاضر؛ بل وأكثر من ذلك، إذا نزل الخراب بأمة يكاد يكون من المؤكد دائمًا أن الأمة التي تساعدها على النهوض - إذا كان ذلك في استطاعتها - تربح من وراء ذلك، والسبب في ذلك؛ بصفة عامة؛ هو أن الأمم أكثر أهميةً لبعضها البعض

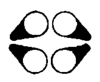
---

(١) Trade - Cycles.

بوصفها عملاء منها بوصفها منافسين؛ وأن البطالة مضيعة يحس بوقعها جميع أجزاء العالم بدرجات متفاوتة، وليست الأمة التي توجد فيها البطالة فحسب، وعلى الرغم من أن «الكونجرس» يجد بعض الصعوبة في فهم ذلك؛ فإن هناك الكثيرين في المنظمات الدولية يدركون ذلك الآن؛ وقد بُدئ في اتجاه إحلال التعاون الاقتصادي محل التنافس الاقتصادي في العالم، في «مشروع كولومبو» أيضًا، وليس في «مشروع مارشال» و«منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي» فحسب؛ كما تهتم عدة وكالات من وكالات «الأمم المتحدة»، مثل «منظمة الأغذية والزراعة»، بهذه المشكلة من زيادة القوة الشرائية لدى الأمم الفقيرة؛ حتى يزيد عدد عملاء الأمم الميسورة، ومن ثم يصير كل من الأمم الغنية والفقيرة أكثر رخاءً بسبب هذا التعاون.

إن هذه النظرية، التي يدعو لها اقتصاديون من ذوي الفكر الثاقب -لأسباب من صميم الواقع- تواجه عقبات ترجع من الوجهة النفسية إلى خرافة التعلق بفكرة المنافسة، وهي من بين ما ورثناه -بلا تغيير يذكر- تقريبًا- من أسلافنا المتوحشين الذين كانوا يضربون رؤوس بعضهم بعضًا «بالنبابيت»!

وليس لديَّ أي شك في أن العالم يكون أسعد حظًّا اليوم إذا أخضع الناس علاقاتهم الاقتصادية للإيثار والرغبة غير المغرضة في تجنب الشقاء. وإني لعلى ثقة من أن مثل هذا الشعور سيدفع إلى تصرفات أكثر اتساقًا مع المصلحة الذاتية العقلية مما تدفع إليه طريقة الشعور التي تنظر إلى الأمم الأخرى بوصفها منافسين وأعداء محتملين. إن الكراهية؛ فيما يبدو لي؛ لا بد أن تكون لذيذةً؛ حيث إن الكثير من الناس ينغمسون فيها، ولكنها؛ على خلاف الفضيلة - تحمل في طياتها جزاءها، وأولئك الذين يختارونها لا بد أن يكونوا على استعداد لدفع الثمن.



الفصل الخامس عشر

نصف القرن المقبل

لا يعد القرن العشرون - حتى الآن - باعثًا على الثقة بالجنس البشري؛ فصحيح أن عددًا من الأباطرة اختفوا، وهو ما يعتبر مكسبًا من وجهة نظر سنة ١٧٩٣م.

بيد أن النتائج لم تكن دائمًا طيبةً؛ فهناك من تساورهم الريبة فيما إذا كان «ستالين» أفضل للعالم من «نيقولا الثاني»، وهل كان «هتلر» أفضل بكثير من «القيصر ولهلم»؛ بل (وهذا أمر فيه جرأة كبيرة) هل كان «هيرهيتو» أسوأ بكثير من «ماك آرثر»؟ وأيًّا كان الأمر فإن هذه التغييرات كانت كثيرة الكلفة بعض الشيء؛ فكل منها تكلف ملايين عديدةً من الأرواح البشرية وبلايين عديدةً من الدولارات، وهبوطًا كبيرًا في قيمة المدنية، وكانت هناك أيضًا فظائع خاصةً؛ مثل استئصال اليهود؛ والعمد إلى قتل الفلاحين الروس جوعًا، واختراع الموت الذري الرهيب، وهذه -حتى الآن- هي ما حققه القرن العشرون من أعمال، وهناك خطر، وهو خطر شديد حقًّا؛ من أنه رغم عظمة هذه الأعمال فإنها ستبدو عديمة الأهمية إلى جانب ما ستحققه السنوات القليلة المقبلة، ولست أعرف -كما لا يعرف أي شخص آخر وأنا أكتب الآن- هل يكون هناك وجود للندن ونيويورك بعد ستة أشهر من اليوم؟ ولست أعرف -كما لا يعرف أي شخص آخر من سني في أوروبا الغربية- هل يعيش الأطفال والأحفاد الذين بذلت من أجلهم كل هذه العناية اثني عشر شهرًا أخرى؟ ولست أعرف -كما لا

يعرف أي شخص آخر ما ذا سيبقى -إذا بقي أي شيء- من صرح المدنية الغربية الذي شيد ببطء منذ عهد «هوميروس»؟ فكل هذا في كف القدر، وكل هذا يعتمد على درجة الهيستريا في الولايات المتحدة وشجاعة «ترومان»، وعلى استقلال أوروبا الغربية، وعلى مزاج «المكتب السياسي» إذا كان حسنًا أو سيئًا، ولن أغامر بالتنبؤ؛ ولكني سأتحدث فقط عما يمكن أن يفعله؛ إذا استطعنا التغلب بنجاح على الأزمة المباشرة، حتى نجعل المستقبل أقل تعرضًا للخطر.

وأول موضوع سأتحدث بخصوصه كثيرًا في الجزء الباقي من هذا الكتاب، وهي أهم الموضوعات جميعًا؛ هو تغيير وجهة النظر من جانب ساسة الغرب والرأي العام الغربي؛ فقد تركنا أنفسنا للخوف يجعلنا في شبه غيبوبة تحت تأثيره المغناطيسي، وعندما أقول «الخوف» لا أعني التوجس المعقول للخطر؛ فمما لا ريب فيه أن هناك خطرًا؛ ومما لا ريب فيه أن الخطر داهم ورهيب. بيد أن الأخطار لا تُتجنب بالذعر؛ بل إن السبيل إلى تجنبها هو التفكير الهادئ؛ إن القبطان الذي يجد سفينته في خطر الغرق يُنتظر منه أن يتجنب الهيستريا، ولكن رجل السياسة الأمريكي إذا وجد في هذا الموقف وظل هادئًا ينظر إليه بوصفه غريبًا لا يحس بالموقف.

إن ما يتطلبه الحاضر واضح؛ فهو يتطلب أولًا وقبل كل شيء تسليحًا كافيًا يجعل الغرب في أمان، وعندما يتحقق ذلك سيعم الانتعاش الروحي لألمانيا الغربية وفرنسا وإيطاليا حيث إنها ستتخلص من خطر الفناء الداهم الذي تعيش في ظله، وعندما يشعر الغرب بالاطمئنان من ناحية الغزو لن يعود هناك أي خطر من قيام حرب عالمية ثالثة إلا من ناحية التحرش الأمريكي؛ فإذا أمكن إقناع أمريكا بأن تكون أقل عنفًا فسيستطيع العالم كله أن يتنفس الصعداء بحرية مرةً أخرى، وعندما يتحقق الأمن لن تكون هناك حاجة إلى الوقوف موقفًا عدائيًّا تجاه الروسيين؛ فسيدركون مع الوقت أن الأمل في السيطرة على العالم لا طائل من ورائها، وأن أقصى ما يستطيعوه هو المحافظة على أقاليمهم الحالية، وبعدئذ سيكون من الضروري إقناعهم بأننا لا نرغب

في غزوهم، ولا ننوي ذلك؛ فهم الآن ممتلئون ريبةً، وهي ريبة لا بد من الاعتراف بأن لها أساسًا في كل من تدخل الحلفاء عند نهاية الحرب العالمية الأولى وفي الموقف الذي يتخذه تجاه روسيا، ذلك القسم من الرأي العام الأمريكي الذي يعد أعلا الأقسام صوتًا في الوقت الحاضر، وسيقتضي التغلب على هذه الريبة بعض الوقت، ولكن عندما تكون قوة الغرب متفوقةً بوضوح، ومع ذلك لا يشن الحرب، سيصير إقناع روسيا بأن الغزو ليس جزءًا من خطتنا؛ أكثر سهولةً يومًا بعد يوم، واعتقادي أنه متى تم إقناعهم بذلك ستقل حدة نظامهم بسرعة ويصير في الإمكان خلق تعاون ودي على مراحل بطيئة، وليست هذه السياسة سياسةً مسرحيةً؛ بل إن السياسة المسرحية في الواقع خطرة ويجب تجنبها بعناية، وعندما تصير روسيا أقل عداءً للتحررية ستكون السيطرة الدولية على الطاقة الذرية في حيز الإمكان، وتتبدد إحدى الفظائع التي تخيم على أخيلتنا وتقض مضجعنا بالأحلام المزعجة، وعندئذ يصبح أخيرًا الطريق إلى الحكومة العالمية بالاتفاق مفتوحًا، ولست أرى أي سبب يحول دون تحقيق ذلك قبل نهاية القرن الحالي.

وفي نفس الوقت هناك مشاكل في آسيا وأخرى في إفريقيا، وهي مشاكل إن لم تتبع حيالها سياسةً حكيمةً سيشتد خطرها وتزداد تعقيدًا بحيث يستحيل حلها يومًا بعد يوم، وحتى إذا استبعدنا جميع الدوافع الأخرى فإن واقع المحافظة على النفس وحده يجعل ضرورةً ملحةً بالنسبة للغرب إيجاد وسائل لرفع مستوى آسيا وإفريقيا إلى المستوى الاقتصادي لغرب أوروبا على الأقل؛ إن لم يكن إلى مستوى أمريكا، وما دام ذلك لم يتحقق ستحس آسيا وأفريقيا بالحسد حتمًا؛ وسيتحول الحسد إلى هدم، وإذا كان نصف العالم تحت سيطرة الانفعالات الهدامة فإن النصف الثاني لن يكون في أمان، ومن ثم فإن أوروبا وأمريكا يجب؛ إذا كانتا حكيمتين؛ أن تكرسا نفسيهما لتحقيق الرفاهة الاقتصادية للسكَّان غير البيض، ولو استلزم ذلك تضحيات ضخمةً مباشرةً؛ فللأسباب التي سقتها في الفصل السابق سيدر الإنفاق؛ مهما بلغ؛ في هذا الاتجاه عائدًا نقديًّا على

الأمم التي تنفق؛ لأن الرخاء في مكان يعمل على جلب الرخاء إلى مكان آخر، والعكس صحيح إذ يؤدي الفقر في مكان إلى جلب الفقر إلى مكان آخر.

ولأسباب ذكرتها في فصول سابقة أيضًا؛ لن يكون كافيًا استثمار رأس المال في آسيا وأفريقيا لإدخال الأساليب الحديثة؛ في زراعتهما وتنمية صناعتهما فحسب؛ إن هذه الأمور مما يجب عمله.

بيد أن أي تحسين ينتج عنها سيكون قصير الأجل إلا إذا تعلمت الشعوب التي يتعلق بها الأمر ممارسة تحديد النسل؛ والشائع في الغرب أن هناك عقبات سيكولوجيةً ودينيةً لا يمكن التغلب عليها تحول دون تحديد السكّان في البلاد المختلفة في الوقت الحاضر، وهذا خطأ تمامًا؛ إن أي شخص يرجع إلى حديث؛ نهرو، الذي أوردته في فصل سابق سيرى أن ما يوجد في الشرق من خرافات في هذا الشأن أقل مما يوجد في «ماساشوستس» أو «كنتيكت»، ولا أعتقد أن أي شخص عاقل يساوره الشك في أن معدل المواليد سينخفض بسرعة في الهند والصين واليابان إذا توفرت معرفة طرق ضبط النسل.

وقد يقتضي ذلك بعض الوقت في إفريقيا، ولكن هناك أيضًا يمكن تحقيقه بسهولة إلى حد ما إذا توفرت للأطباء الزنوج؛ الذين دربوا في الغرب؛ الأموال اللازمة لإنشاء عيادات طبية تيسر فيها كل أنواع المعلومات، ولا أظن أن أمريكا ستسهم بنصيب في هذا العمل المفيد؛ لأنه إذا حبذ أي من الحزبين هذا المشروع سيفقد أصوات الكاثوليك في ولاية نيويورك، ومن ثم يفقد انتخابات الرياسة، ومن الواضح أن هذا يكون كارثةً أسوأ من استئصال الجنس البشري بالحرب الذرية.

بيد أننا ليست بنا حاجة إلى افتراض أن أمريكا ستظل دائمًا المصدر الوحيد للأموال الفائضة؛ إن البريطانيين والفرنسيين لهم مصالح في إفريقيا أكثر من الأمريكيين، وإذا انتعش البريطانيون والفرنسيون اقتصاديًّا فسيكون في وسعهم أن يتبعوا في هذه القارة السياسة التي يرونها، حتى وإن لم تحبذها أمريكا تحبيذًا فعالًا.

وعند كل اقتراح بعمل يقوم به البيض في آسيا أو إفريقيا تواجهنا صعوبة أن التاريخ الماضي جعل الاستعمار موضوع ريبة، ولأمر ما -وهو أمر سيئ جدًّا بكل تأكيد- لا تنظر آسيا وأفريقيا إلى الروس باعتبارهم استعماريين؛ حتى عندما يرون دولةً عظيمةً مثل الصين تتحول إلى دولة تابعة، ولكن عندما يحاول الأمريكيون أو الفرنسيون أو البريطانيون القيام بأي عمل؛ مهما كان مفيدًا ومهما كان إنسانيًّا، في آسيا أو أفريقيا يتهمون فورًا بمطامع إقليمية، وسيقضي التغلب على هذه الريبة وقتًا وصبرًا وأمانةً؛ ولكن إذا انسحب النفوذ الأثري فجأةً؛ فإن النتيجة قد تكون بسهولة أن تحل الفوضى والخراب.

ومشكلة الإبقاء على النفوذ الأوروبي حيثما يكون مفيدًا، وليس حيثما يكون استعماريًّا، مشكلة من الدقة بمكان كبير؛ ولا أظن أنه يستطيع حلها سوى أشخاص تحدوهم روح مثل روح الرسل المبشرين؛ لا بدين معين بذاته؛ بل بطريقة حياة عقلية ومنتجة، وسيتطلب الأمر وجود مجموعة كبيرة من الأشخاص في الغرب يفهمون - كما لا يفهم الآن سوى قلة - ما الذي لدى الغرب ليقدمه من طرقه في الحياة وتغلبه على الفقر ومستوى التعليم المرتفع عنده وتقليله للمرض؛ وهذه الأشياء تعتمد على أسلوب فني معين، ولما كان هذا الأسلوب الفني أسلوب الرجل الأبيض؛ فإنه ارتبط في الأذهان ارتباطًا وثيقًا باستعمار الرجل الأبيض، ولقد قابلت مرة مكسيكيًّا ماركسيًّا وسألته عما يعتقد أنه رسالة؛ ماركس؛ إلى المكسيك؛ فقال لي إن الرسالة هي أن مدنية «ألمايا» متفوقة على مدنية إسبانيا، وسبب ذلك؛ بطبيعة الحالة؛ أن سلالة ألمايا؛ فقراء وسلالة الإسبان يغلب أن يكونوا من الأغنياء، وليست بي رغبة لأن أقول أي شيء ضد مدنية ألمايا حيث إن معلوماتي عنها قليلة جدًّا؛ كما أن لا رغبة مطلقًا في أن أدافع عن المدنية الأسبانية.

بيد أني لا أظن أن العودة إلى مدنية ما قبل كولمبس، في بلد مليء بالبترول ويجاور الولايات المتحدة، سياسة علمية جدًّا؛ وستظهر المشكلة نفسها في أجزاء أخرى من

العالم، وأنه ليكون أمرًا مؤسفًا إذا أدى انقضاء الاستعمار الغربي إلى الحيلولة دون انتشار ما هو طيب في طرق الحياة الغربية، وإذا أريد ألا يحدث ذلك فلن يكون إلا عن طريق بذل مقدار كبير من الحماسة الخالصة غير المغرضة من جانب الفنيين ورجال العلم الغربيين ومن جانب بأولئك الذين يمولونهم.

والتعصب القومي والديني هو أحد الأخطار الكبرى في عصرنا، وعندما نرى مثالية الحكومة الهندية في الشئون الدولية تتحطم تحطمًا تامًّا حينما تواجهها مشكلة كشمير، فإن من الصعب أن نتجنب الشعور باليأس، وعندما يرى المرء مواقف أخرى مشابهةً وما ينجم عنها من تدخل الشيوعيين؛ بنظامهم الذي لا يُبقي ولا يذر؛ ينتابه اليأس، وهناك مثل آخر من نفس النوع، وهو إيرلندا، ولن أحاول أن أنتصر لأي الطرفين في موضوع «ألستر»، ولكني سأقول فقط إنه من الوضح أن كلًّا من الطرفين يعتبره أكثر أهميةً من المحافظة عى المدنية الغربية، أو حتى على مدنية الجنس البشرى كله، وهي وجهة نظر تبدو لي مبالغةً بعض الشيء؛ ثم هناك آمال لا تجد لها سبيلًا في الوقت الحاضر إلى التحقق؛ فإيران تريد أن تستقل ولها كل الحق في ذلك، ولكن حتى يتقرر مصير الصراع بين روسيا والغرب لن يسلم لها أي الطرفين بالاستقلال، وبالتأكيد ليست إيران في مركز يسمح لها بالحصول على استقلالها قسرًا، وهناك نقص كبير في كل مكان في الدراية بالشئون الدولية وبموقف بلد المرء بالنسبة للمجموع، وحتى يتوفر لهذا النوع من المعرفة الانتشار على قطاع واسع؛ فإن أجزاء كثيرةً من هذا المجموع ستهدف إلى قدر من العزلة لم يعد في حيز الإمكان؛ فالجنس البشري قد صار عائلةً واحدةً، سواء كان ذلك للخير أو للشر، وهو يستطيع أنه يجلب على نفسه كارثةً بنزاعه العائلي؛ أو السعادة عن طريق الوئام، ولكن ما من فرد من أفراد هذه العائلة يستطيع أن يقطع بصورة فعالة ما بينه وبين باقي أفرادها – ولا حتى «التبت» أو «شيكاغو» آخر معاقل أنصار العزلة، يستطيعان ذلك.

وينقلني ذلك إلى موضوع التربية؛ فإذا أريد أن يكون هناك تعاون دولي فعال، مثل ذلك الذي كان أمل منشئ عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة؛ فلا بد أن ينتشر على نطاق

واسع جدًّا نوع من التربية يتسم بطابع دولي؛ فلا تكتفي المدارس بتعليم ذلك التاريخ القومي الضيق المتحيز الذي كثيرًا جدًّا ما اعتبر كافيًا؛ بل سيكون عليها أن تعلم تاريخ العالم من وجهة نظر غير متحيزة، ويجب أن تكون الكتب التي تُستعمل في تعليم تاريخ العالم خاليةً من التحيز القومي بقدر ما تسمح الإمكانيات البشرية، ويجب ابتكار الوسائل التي تكلف عدم التحيز، ولو كان الأمر بيدي لجعلت النرويجيين يكتبون القسم الخاص بأمريكا الجنوبية، أما الجزء الخاص بالفيكنج فيكتبه إيطاليون، ويكتب القسم الخاص بإيطاليا في العصور الوسطى أمريكيون، وكنت أحاول أن أُوكل وضع كتب التاريخ التي تستعمل في المدارس إلى أشخاص تشربوا بالشعور نحو الإنسان بوصفه إنسانًا، ونحو التقدم البشري، لا نحو تقدم هذه الأمة أو تلك.

كما ينبغي أن يزيد إلى حد كبير مقدار ما يعلم عن عالم اليوم؛ إذ إنه أمر طيب أن يعرف الإنسان شيئًا عن (ماراثون)، ولكنه أمر لا يساعد كثيرًا في معالجة مشكلات (شركة البترول الإنجليزية الإيرانية) التي ينبغي على موظفيها ألا يعتبروا أنفسهم سلالة جيش ميلتياديس.

وينبغي أن يتعلم الأطفال في مرحلة مبكرة إدراك ما يتسم به العصر الحديث من ضرورة اعتماد الجماعات المختلفة من الناس بعضها على البعض، وكذلك إدراك أهمية التعاون وسفاهة النزاع؛ ويجب أن يتشربوا نظمًا أخلاقيةً جديدةً للنمو والتكيف المتبادل؛ بما ينطوي عليه ذلك من إمكانيات في الحرية، بدلًا من النظم الأخلاقية القديمة من كبت وصراع وانتصارات وهزائم. وباختصار يجب إعدادهم ليكونوا مواطنين في العالم الذي سيكون عليهم أن يعيشوا فيه؛ لا مواطنين في عالم القرون الماضية التي تحب الثقافة الأكاديمية أن تكبَّ عليه، وأنا لا أعني أنهم يجب أن يكونوا جاهلين بالتاريخ الماضي، ولكني أعني أنه يجب أن يعرفوا أنه ماضٍ، وأن عالمنا يتطلب معتقدات متخلفةً ورغبات وقابليات مختلفةً عن تلك التي كانت تتطلبها عصور أكثر بساطةً من الناحية الفنية.

ويجب عدم التسامح مع أي مدرس يعلم العداء نحو جماعة ما، سواء منهم الزنوج أو الأثرياء؛ لأن الأشياء الطيبة لا تُحقق عن طريق العداء، وأنا شخصيًّا أعتبر وجود الأثرياء؛ بما ينطوي عليه ذلك من فوارق كبيره في المستوى المادي؛ أمرًا مؤسفًا، ولكني أعتقد أن ما تثيره حرب الطبقات من عداء وغضب جامح أمر أكثر إثارةً للأسف؛ فهناك دائمًا تقريبًا طريقة لتحقيق الأهداف دون عنف، وإن كانت طريقةً أشد بطئًا في بعض الأحيان؛ إن الثورتين الفرنسية والروسية لم تحققا؛ رغم أنهار الدماء التي سالت فيهما، الكثير مما تحقق في بريطانيا في السنوات الأخيرة -من دون أي عنف- في الاتجاه نحو المساواة الاقتصادية؛ فتعليم الحقد، أيًّا كان ما تسببه الطبقة التي يوجه إليها الحقد من ضرر اجتماعي؛ يؤدي دائمًا إلى بث السموم في النظام الاجتماعي، وعندما يتحقق الغرض المباشر من الحقد تظل عاطفة الحقد باقيةً بوصفها عادةً تبحث عن فرائس جديدة؛ فكل دعوة إلى التغير الاجتماعي يجب أن تكون إيجابيةً لا سلبيةً، ويجب أن تركز الاهتمام على الأشياء الطيبة في المستقبل القريب الاحتمال أكثر مما تركزه على الأشياء السيئة في الحاضر، ولست أقصد باعتباره مبدأً مطلقًا؛ فعندما يكتشف مثلًا أن كثيرًا من البيمارستانات تذيق مرضاها ألوانًا بشعةً من العذاب؛ يكون من الضروري في المقام الأول التركيز على الشر الذي يراد إزالته. بيد أن ذلك لا يكفي، وإذا اعتقد الناس أنه يكفي فسرعان ما سيظهر الشر مرةً أخرى؛ ربما في ثوب آخر.

فلا بد من التعمق في البحث لاكتشاف أسباب الشر ومصادر النزعة الشريرة لدى أولئك الذين يسيئون معاملة ضحاياهم، وسيوجد في جميع مثل هذه الحالات أن هناك تشويهًا ما -عقبة من عقبات النمو- شيئًا يتسبب في تنافر داخلي عميق لدى أولئك الذين يجدون لذةً في القسوة، وينبغي على كل مصلح ألا يتوقف عن البحث حتى يصل إلى مصادر هذه الأمراض النفسية المؤسفة، وإلى أن يعرف كيف يخلق للشباب عالمًا لا تحدث فيه هذه الأشياء، وهذه المهمة مهمة كبيرة، ولكنها ليست مستحيلةً على علم الاقتصاد وعلم النفس مجتمعين؛ إذ من الممكن خلال جيلين جعل العالم بحيث يتكون

من رجال ونساء سعداء وعاقلين؛ أشخاص لا يحملون للآخرين سوى أطيب النزعات لأنهم سعداء وعاقلون؛ حيث إنه ليست هناك نزعة تحدوه لاعتبار الآخرين أعداء ما دام لا يوجد دليل حاسم على ذلك؛ إن ما نعرفه عن مكونات الشخصية ظل حتى الآن معرفة لم تستعمل بما فيه الكفاية مطلقًا؛ ولا بد من استغلالها إلى أقصى حد ممكن إذا أردنا أن نخلق عالمًا يكون الناس فيه أكثر ميلًا إلى بعضهم البعض منهم إلى الشعور بالحقد المتبادل. بيد أني سأتحدث عن كل هذا بإسهاب أكثر في الجزء التالي.

لقد تحدثت في هذا الفصل على أساس أنه سيمكن تجنب حرب عالمية ثالثة. بيد أن ذلك أمر مشكوك فيه جدًّا؛ فقد تدهمنا الحرب الثالثة في أي يوم؛ وإذا حدث ذلك ستكون هذه الحرب أكثر بشاعةً بكثير من سابقتيها؛ وستؤدي إلى تأجيل تحقيق مثل تلك الآمال التي أتناولها في هذا الكتاب إلى أجل غير مسمى؛ ولكنها لن تؤجلها إلى الأبد، ويجب على أولئك الذين يريدون منا أن يروا نوع العالم الذي يستطيع الناس خلقه؛ ألا يفقدوا الإيمان والأمل إذا دهمتهم حرب عالمية ثالثة؛ فلن تكون نهاية العالم؛ إنها ستكون فترة مرض طويل، ولكنها لن تكون حكمًا بالموت، وسيكون واجبنا في خضم الظلام والآلام أيًا كانت أن نحتفظ بالأمل حيًّا وأن نوجه تفكيرنا؛ برغم الشقاء الحالي؛ إلى المستقبل الذي لعل هذا الشقاء هو مجرد آلام مولده؛ إن الناس يتعلمون ببطء؛ حتى عندما يكون كل ما هنالك أن يتعلموا كيف السبيل إلى السعادة، ولعلهم لا يستطيعون التعلم إلا من تجربة أشد مرارةً من تجارب الشقاء التي مرت بهم؛ ولكنهم إذا تعلموا وإذا جلب لهم العذاب عقلًا بدلًا من أن يقودهم إلى الجنون؛ فإن ذلك لن يكون إلا لأن بعض الناس قد احتفظوا بالعقل والأمل دائمًا، وكلما زاد مثل أولئك الناس كانت الفرصة أوسع في أن تجلب التجربة حكمةً، وكل واحد منا بمفرده يستطيع أن يُسهم في زيادة هذه الفرصة بالثبات والشجاعة، ونحن نمر بالأيام السوداء.

القسم الثالث
الإنسان ونفسه

الفصل السادس عشر

أفكار عفى عليها الزمن

لقد سمحت المخلوقات الآدمية للتقاليد بالسيطرة عليها منذ أن اخترع آباؤها اللغة، وكان هذا في الوقت نفسه السبب الرئيس للتقدم والعقبة الرئيسة أمامه، ولننظر فيه أولًا بوصفه سبب التقدم؛ أين كنا نكون الآن لو أن كل جيل اضطر لأن يخترع لنفسه القراءة والكتابة والحساب؟ وكيف كنا نسير في حياتنا لو لم يتلق الفنون والمهن جيل عن جيل؟ وحتى في أكثر العصور تقدمًا تقوم؛ ولا بد أن تقوم؛ الغالبية الساحقة من تصرفاتنا على التقاليد؛ فنحن قد نتمرد على ضيق أفق آبائنا، ولكننا لا نستطيع أن نسمو عليهم إلا بأن نقف فوق أكتافهم.

بيد أنه على الرغم من ضرورة احترام التقاليد وطاعة العرف، إلى حد ما؛ فإن معظم المجتمعات غالت فيهما، وبعضها قضى على نفسه بالدمار بسبب هذا النقص وحده. وتغير المخلوقات الآدمية طرقها أسرع بكثير مما تفعل الحيوانات؛ ويغير المتمدينون طرقهم أسرع مما كان يفعل غير المتمدينين من أهل العصور السابقة؛ فقد غيرت المجتمعات المتمدينة بيئتها الطبيعية خلال السنوات المائة والخمسين؛ وكذلك أساليب كسبها عيشها، ووسائل الراحة التي يسرتها لنفسها فوق الحد الأدنى الضروري للبقاء؛ تغييرًا حاسمًا، والسبب الأول في هذه التغيرات هو الزيادة الضخمة في المعرفة والمهارة.

وتتطلب الأساليب الفنية الجديدة في المجال المادي؛ إذا أريد لها أن تؤتي أكمل ثمارها في زيادة الرفاهة البشرية؛ أن تكون مصحوبةً بعادات عقلية جديدة، وفي هذا الميدان؛ أكثر من أي ميدان آخر؛ أخفق عالمنا فما برحنا نحتفظ؛ في عصر الآلة والإنتاج العلمي الذي يعتمد على المهارة؛ بالمشاعر التي كانت تتلاءم مع عصور الفاقة والزراعة البدائية وبكثير من معتقدات هذه العصور؛ فالأفكار السياسية تكاد تكون هي نفسها أفكار القرن الثامن عشر بالضبط؛ وقد كانت هذه الأفكار صالحةً؛ بصورة ما؛ للقرن الثامن عشر؛ أما الآن فهي مندفعة رأسًا إلى كارثة، ولا يتصورون أي شيوعي أنه بريء من هذه التهمة؛ بل على النقيض من ذلك؛ فأفكارهم السياسية عنيفة بصورة فريدة؛ إذ هي تماثل تمامًا أفكار فيليب الثاني في القرن السادس عشر، وأفكار لويس الرابع عشر في القرن السابع عشر. بيد أنه على الرغم من كون الشيوعيين أكثرنا رجعيةً من هذه الناحية؛ فإن بقيتنا أيضًا في حاجة – وإن كان بدرجة أقل – إلى طرق جديدة في التفكير والشعور.

وترجع الحاجة إلى أفكار سياسية واجتماعية جديدة إلى زيادة كفايتنا من الخير والشر على السواء؛ فكثير من الأشياء التي تعد الآن في حيز الإمكان؛ كان تحقيقها في الأيام الماضية غير ممكن بأي وسيلة من الوسائل المعروفة؛ إذ كان الفقر المدقع بالنسبة للغالبية العظمى؛ مثلًا؛ من الأمور التي لا سبيل إلى تجنبها؛ فقد كان الناس يقفون باستمرار على حافة المستوى الأدنى للبقاء؛ إلا عندما يقل عددهم بكارثة من كوارث المجاعة أو الأوبئة، وخلقت الحروب أرستقراطيات من الغزاة الذين كانوا يعيشون، دون أي وخز من ضمائرهم؛ على جهود المهزومين، ولم يبدأ هذا النظام في التغير ليحل محله نظام ينطوي على قدر أقل من الشقاء العام حتى الثورة الفرنسية، واليوم؛ كاد الفقر المدقع يختفي في دول معينة هامة من الدول الغربية؛ ولا تعرف فيها المجاعات، وضعفت حدة الأوبئة الواسعة الانتشار أمام العلوم الطبية، وجعل المعدل المنخفض في المواليد المحافظة على مستوى مرتفع من الرخاء عند بلوغه؛ في حيز الإمكان. وكل

هذا جديد في التاريخ البشري؛ فقد كان نصيب الغالبية العظمى من المخلوقات الآدمي - منذ أن كانت هناك مخلوقات آدمية - الصراع والقتال والموت جوعًا قبل الأوان، مثلما كان نصيب الحيوانات من قبلهم.

والمصدر الأساسي لهذه الثورة المفيدة، هو الإنتاج العلمي وعادات العقل العلمية التي أدت إليه، وهناك شيئان آخران؛ بجانب الأساليب العلمية والإنتاج؛ كانا ضرورين، وهما: الديموقراطية، ومعدل منخفض للمواليد.

بيد أنهما وحدهما ما كانا ليكفيان، وما كان تحققهما ممكنًا في الغالب، من دون العلم إلا لفترات قصيرة في ظروف استثنائية؛ ولكن رغم أنهما وحدهما غير كافيين لخلق مجتمع سعيد؛ إلا أنما ضروريان ومن دونهما كانت الصناعة الآلية تؤدي إلى ضرب جديد من الرق لا يقل في بشاعته عن أي شيء في سجلات الماضي المظلمة.

ونحن نسمع كثيرًا عن طريقة الحياة الغربية والحاجة إلى الدفاع عنها ضد الخطر الشرقي، ولكن قلةً في الغرب تعرف بوضوح العناصر الجوهرية لطريقة الحياة الغربية أو ما يجعلها جديرةً بأن ندافع عنها، ولو أننا كنا نعرف ذلك بوضوح لكانت دعايتنا أشد فعاليةً وكانت حاجتنا إلى الاعتماد على القوة العسكرية بوصفها الحماية الوحيدة أقل مما هي الآن.

إن ما اكتشفه الغرب -وإن كان تحقيقه لم يكمل حتى الآن- هو أسلوب يستطيع بواسطته كل إنسان تقريبًا أن يحصل على ذلك القدر من العروض المادية الذي يؤدي إلى السعادة؛ دون زيادة لا مبرر لها في ساعات العمل، ومع تلك الدرجة من الثقافة الفكرية التي يتطلبها الأمر حتى يكون وقت الفراغ ممتعًا، وقد صار ذلك ممكنًا بواسطة حقيقية أن عمل رجل واحد يمكن أن ينتج أكثر بكثير مما يحتاجه رجل واحد للبقاء.

بيد أن هذا النظام ما زال حتى الآن معرضًا للخطر؛ إذ يهدده من الخارج أولئك الذين يجعلهم الحسد مدمرين، ويهدده من الداخل أولئك الذين ما زالوا يعيشون تحت سيطرة معتقدات وانفعالات تنتمي إلى عصر مضى.

ولب هذه المعتقدات والانفعالات هو الصراع من أجل الحياة، وحيثما تكون هناك ضرورة لهذا الصراع يكون السبب فيها أن الناس يضللون وليس أن الطبيعة شحيحة؛ وكان في الأزمان الماضية إذا أراد رجلان أن يعيشا على نتاج قطعة أرض لا تغل إلا ما يكفي واحدًا منهما؛ فلا بد لهما إما أن يموتا جوعًا أو أن يتقاتلا حتى يُقتل أحدهما، ولم يكن القتال يدور بين أفراد، ولكن بين جماعات سُميت على التوالي: القبائل ثم الأمم ثم الأحلاف ثم الأمم المتحدة. وعلى الرغم من وجود المسيحية؛ التي كانت تدعو إلى السلام قبل اختراع الأساليب الفنية الصناعية الضرورية؛ كانت الضرورة تدفع الناس إلى الصراع، ولما كان المنتصرون هم الذين يتركون وراءهم ذريةً؛ فإن عقلية المنتصرين هي ما كانت تتوارثه الأجيال، ولعل المهزومين كانوا يندمون وهم يموتون على تهورهم، ولكن ندمهم كان يجيء بعد فوات الأوان لإنقاذ أطفالهم؛ وكان الشيء الذي ينتشر به الجيل التالي من آبائه هو أن الاعتداء الذي يتم بنجاح أمر مشروع؛ وهكذا أُحيطت الحرب بهالة من الفضيلة، وتظاهر الناس في أيام الآحاد بتصديق أن الضعفاء سيرثون الأرض، ولكنهم آمنوا في بقية أيام الأسبوع بنقيض ذلك تمامًا، وبصورة فعالة. ولقد استطاع الناس أن يتحلوا بالفضائل المسيحة؛ إلى حد ما، داخل القبيلة؛ ولكن في المعاملات المتصلة بمن خارجها كانت الشجاعة والقسوة والوحشية، متنكرةً في ثوب الوطنية؛ هي السجايا التي تُمجَّد.

ولم تَسُدْ سجايا الصراع في المجال الخارجي وحده؛ ففي المجتمعات التي كانت تعيش فيها قلة منعمة بينما تعيش الغالبية العظمى على حافة الإملاق؛ كان لا مندوحة أن يغرس أولئك الذين يتمتعون بالرفاهية والقوة معتقدات ومشاعر من شأنها أن تجعلهم موضع إعجاب الناس، وحيثما كانت حيازة الأرض هي المصدر الرئيس للثروة؛ كما كان الحال في كل مكان تقريبًا قبل مجيء التصنيع؛ صارت الصفات التي يغلب أن تُوجد بين ملاك الأراضي هي التي تحظى بالتقدير من وجهة النظر الأخلاقية، وفي هذا المجال نجد تاريخ الألفاظ مما يثير الاهتمام حقًا؛ فلفظ (Chivarlous) ومعناه

الفارس كان يعني في الأصل الرجل الذي يملك فرسًا، ولفظ (Noble) ومعناه النبيل كان معناه هو الرجل الذي كان أحد أجداده من القوة بحيث يكون له «شعار»، وبصفة عامة كان معظم أولئك الذين يحظون بالإعجاب على قوة غير عادية، وكان لا بد أن تكون الأخلاق السائدة في مثل هذا المجتمع أخلاق صراع حتى الموت؛ مهما تنكرت خلف أثواب من العبارات الجميلة.

ورغم أن مجيء التصنيع غيَّر من صورة الصراع في سبيل البقاء؛ فإنه لم يغير جوهره أو الأفكار الأخلاقية المرتبطة به، وصحيح أنه حدثت بعض التغييرات المهمة؛ فالاعتماد على الأرض كمصدر للثروة صار أقل مما كان، ولم تعد الوراثة هي السبيل الأول لانتقال الثروات.

بيد أن هذا لم يؤدِّ إلا إلى زيادة الصراع حدةً، حيث إنه أضعف الشعور بالأمن الذي يحس به الرجل الناجح؛ وبينما أدى التصنيع في مبدأ الأمر إلى زيادة ثراء الأغنياء؛ فإنه جعل الفقراء أكثر فقرًا مما كانوا؛ وكان من العسير في البلاد التي تعودت على الأرستقراطية أن ينتقل إلى الأغنياء الجدد ذلك الاحترام المقرون بالرهبة الذي أُضفي خلال قرون طويلة على «الدم الأزرق»، ولكن على الرغم من أن الإعجاب بالأغنياء الجدد كانت له حدود؛ فقد كان من السهولة بمكان خلق إعجاب خرافي بالنظام الذي جعلهم أغنياء، ومن ثم أُحيطت المنافسة بهالة كما لو كانت نوعًا من الآلهة، وهكذا جلب التصنيع، الذي كان يستطيع أن يجلب السلام على البشرية؛ السيف بدلًا من السلام.

وكان المفروض أن المنافسة؛ كما تصورها أنصارها الأوائل؛ ستظل داخل حدود معينة؛ فقد تصوروها على أنها ستكون مقصورةً على أصحاب الأعمال المتنافسين ومحدودة بما يسمح به القانون، ولكنها هربت من هذه القيود فكانت هناك منافسة بين الطبقات ومنافسة بين الأمم، وأدت الأولى إلى الاشتراكية كما أدت الثانية إلى الحرب، ولم تكن أي واحدة منهما مما قصده رسل المنافسة الأوائل مثل؛ كوبدن، ومع ذلك

فإن كليهما كان نتيجةً حتميةً لهذا المذهب، وكلاهما، في صورته الحديثة، نتيجة لعدم استعداد الأقل حظًّا من الناس للإذعان طواعيةً لوضعهم الأدنى؛ مقرونًا بعدم استعداد الأكثر حظًّا للسماح بأي اتجاه نحو المساواة؛ إلا إذا أُرغموا عليه قسرًا بالقوة؛ وعدم استعداد الأكثر حظًّا يرجع إلى عدم إدراكهم لإمكانيات عصر الوفرة الحديث، أو للكوارث التي يمكن أن يجرها وراءه صراع يتسم بالكفاية الفنية، وكلما زاد التصنيع كفايةً تصير وجهة النظر التنافسية أقل قابلية للتطبيق وأشد ضررًا في الوقت نفسه؛ حيث إن كلًّا من الوفرة والتدمير نتيجة محتملة من نتائج المهارة البشرية.

وأود أن أكرر أن كل أساس ما يتطلبه الأمر من تغيير في وجهة النظر متعلق بالأساليب الفنية؛ فهناك في الوقت الحاضر ربح أكثر بكثير في التعاون على نطاق واسع مما كان من قبل؛ فطعام المناطق الصناعية يأتي عبر البحار، كذلك -كقاعدة عامة- كثير من المواد الأولية، وعمليات التوحيد الضخمة مربحة؛ بينما القلقلة التي تنجم عن عن الحروب أو الإضرابات تسبب أضرارًا أكثر مما كانت تفعل فيما مضى؛ فكل إنسان في جميع العالم يستطيع، عن طريق الأساليب الفنية الحديثة؛ أن يتمتع بالرفاهية المادية إذا توفر التنظيم السياسي المناسب. إن عادة التنافس تأصلت؛ بسبب ما تركته من أثر في الفترة التي تدر فيها الربح؛ بحيث إن معظم الناس ما برحوا مقتنعين بأن ما يؤدي إلى فقر الآخرين لا بد أن يؤدي إلى ثرائهم؛ فقبل الحرب الكبرى كان البريطانيون يرتجفون هلعًا من المنافسة الألمانية، وكان الألمان بدورهم يعتقدن أن إفلاس إنجلترا مما يعود عليهم بالنفع، وكان الإفلاس من نصيب الألمان؛ ولكن من بين رجال الصناعة البريطانيين من كل يستطيع أن يدعي أن الحرب جعلته أكثر ثراءً؟ فبالرغم من أن الألمان حل بهم الخراب فإن البريطانيين حل به الفقر؛ ولو أن الجانبين عقدا صفقةً وتعاونا بوصفهما وحدةً واحدةً لصارا أكثر ثراءً مما كانا بكثير.

ونفس هذه الاعتبارات بالضبط تنطبق الآن على التوتر بين الشرق والغرب؛ فالروس يعتقدون؛ سواء كانوا مخلصين في ذلك أم لا؛ أنهم لن يحظوا بالرخاء إلا إذا أنزلوا

الخراب بالغرب أولًا، ويعتقد الغرب، بطبيعة الحال؛ أن لا بقاء له إلا بإنزال الخراب بروسيا أولًا، ولن أنكر مطلقًا أنه ما دامت هذه المشاعر المتبادلة قائمة فإنها ستجعل من نفسها حقيقة، فإذا كان من (أ) و(ب) يعرف أن الآخر يقف له بالمرصاد، فإنهما قد يعتبران الأقوال المأثورة من التعاون بصفة عامة غير ذات موضوع، فالموضوع بالنسبة لكل منهما يصير ببساطة (من منا سيقتل الآخر أولًا؟).

بيد أن التعارض بين مصالحهما سببه مشاعرهما، وليس أي عامل خارجي من عوامل الطبيعة، وهذا هو الحال في العداوات العامة في العالم الحديث. فليس هناك ما يبررها من الواقع الاقتصادي أو المصلحة الذاتية الحصيفة، ولكنها مجرد نتيجة من نتائج ما بقي من روح العدوان في الجنس البشري، وهي الروح التي كانت تخدم غرضًا معينًا في وقت من الأوقات، ولكن لم يعد لها محل الآن.

إن انقسام العالم إلى أمم له وجهان: أحدهما حضاري والآخر سياسي، ولست أرى في الانقسام الحضاري ما يدعو للأسف؛ فالأمم المختلفة تتميز بفضائل متباينة، وليس من المرغوب فيه أن يكون العالم كله متماثلًا، ولكن لا يوجد أي سبب لأن ينطوي الاختلاف الحضاري على عداء سياسي، إن الإنجليز والفرنسيين ظلوا يقاتلون بعضهم بعضًا سبعمائة وخمسين سنة متأثرين بفكرة أن مصالحهما متعارضة، وأخيرًا اكتشفوا أن ذلك كان خطأً، ومنذ سنة ١٨١٥م؛ صاروا أصدقاء طيبين، وليس هناك من سبب؛ سوى طغيان العادات القديمة؛ يدعو إلى عدم حدوث ذلك في حالات أخرى. ولنأخذ مرةً أخرى الموقف بين روسيا والغرب؛ فلو أن كلًّا منهما اقتنع بأن الآخر لا يضمر له العداء لوفر كل منهما نفقات التسليح، ولكسب كل منهما منافع التبادل التجاري؛ ولتخلص كل منهما من رعب القنبلة الذرية وفناء أقسام كبيرة من السكّان؛ إن دوافع المصلحة الذاتية التي تثير المشاعر العدائية في كل جانب هي مجرد انعكاس لدوافع مماثلة تمامًا لدى الجانب الآخر؛ وهي تقوم في كلتا الحالتين على افتراض أن الجانب الآخر تحدوه دوافع لا عقلية، وبطبيعة الحال؛ لما كانت الطبيعة البشرية هي ما هي؛ سيبدو هذا التحليل السافر

مزعجًا لكلا الجانبين؛ لأن العداء حينما وجد؛ مهما كانت مصادره قديمةً؛ يبدو لكلا الجانبين جهادًا مقدسًا يجب على كل رجل صادق الرجولة أن يناصر فيه المثل الأخلاقية العليا.

بيد أن كل ذلك ليس سوى جزء من جهاز التعمية النفسية الذي يُخفي بواسطته (النوع البشري) عن نفسه عدم كفاية ما يتحلى به من حكمة، ولو افترضنا أن هناك دواءً اكتُشف يزيل الضباب العقلي ويحرر العقل منه؛ وافترضنا أن الشخصين الوحيدين اللذين استعملا هذا الدواء هما (ستالين) ومستر (تورمان)، فماذا تظن سيحدث؟ المفروض أنهما ستقابلان في بقعة محايدة ويتصافحان ويتبادلان الأنخاب وسيقول كل منهما للآخر: «يا صديقي العجوز؛ يبدو لي أنك لست في الحقيقية أسوأ مني»؛ ثم يجدان؛ في خلال نصف ساعة على الأكثر؛ حلولًا منصفةً لكل المشاكل التي يسود الاعتقاد عند الناس بأن مصالح أمتيهما فيها متعارضة، ويعودان أدراجهما مستبشرين، ولكن ستالين يغتاله مولوتوف ومستر ترومان يلقى من سناتور ماك آرثي ما يجعله عاجزًا مغلول اليدين: وبعد ذلك تعود كل من الأمتين إلى حماقتها الأولى.

إن ما أريد توضيحه بواسطة هذه القصة الخرافية اللطيفة هو أننا لا نستطيع أن نلوم الحكومات على ما نحن فيه من مشاكل؛ فهي مشاكل لا يمكن أن تحل بعمل حكومي بحت؛ إن ما يتطلبه الموقف هو تغيير وجهة النظر العادية لدى الناس العاديين؛ ويعتقد البعض أحيانًا أن التغيير المطلب تغيير معنوي.

بيد أني أعتقد أن كل ما هو مطلوب لا يخرج عن التقدير السليم للمصلحة الذاتية، وأنا أعلم أنه من العسير إثارة الحماسة لمثل وجهة النظر هذه، ولنفترض أنك قلت لسكَّان بلد ما: (إذا اتبعتم هذا السبيل فإن نصفكم سيموت معذبًا والنصف الآخر سيعيش في بؤس؛ بينما إذا اتبعتم ذلك السبيل ستنعمون جميعًا بالرخاء)، ولنفترض أنك قمت بحملة سياسية عظيمة على هذا الأساس؛ فما الذي تظنه يحدث؟ سيقوم جميع الأخلاقيين المتحمسين ويقولون: (سيدي، إن هدفك حقير؛ فهناك أمور أكثر

أهميةً من الرخاء المادي؛ هل تتراجع الأمة العظيمة أمام الشقاء إذا كان في سبيل قضية نبيلة؟ هل جعل أجدادنا أمتنا عظيمةً بمثل هذه الأنانية؛ اللعنة على هذا التفكير! ولنتخلص من دعاة المادة النفعيين؛ فلنقاتل كأبطال؛ ولنمت كأبطال إذا شاء لنا القدر ذلك)، وعندئذ ستجد نفسك عاجزًا تمامًا ضد الهستيريا الجماعية التي تُستثار بهذه الطريقة، وستجد أشخاصًا يشيرون إليك بازدراء باعتبارك جبانًا، وستكون سعيد الحظ إذا لم ينتهِ بك (جبنك) إلى المشنقة على أيدي الآلاف من الجماهير التي تقارن بين شجاعتها، وهي تشنقك، وبين نذالتك الوضيعة.

ولست أريد أن أخرج مما ذكرته الآن بنتائج متشائمة؛ إن هناك نوعًا من مدعي الحكمة سيقول لك محذرًا: إنك لن تنجح أبدًا في تغيير الطبيعة البشرية؛ وإن الطبيعة البشرية تحب القتال، وسيقول لك متظاهرًا بالحزن، وإن كان في قراراته يحس لذةً: إنك لن تفلح أبدًا في وضع حد للحرب. وقد تجيب: سيدي العزيز؛ يخيل إليَّ أنك تجهل بعض الشيء عن فن الحرب الحديث، ألا تعلم أنه إذا لم يوضع حد للحرب خلال السنوات الخمسين المقبلة بالاتفاق؛ فسيوضع حد للحرب بأسلوب آخر أبلغ أثرًا... هو فناء الجنس البشري، وعندئذ؛ كل ما يفعله مدعي الحكمة هو أن يثير الصخب والضوضاء.

إن القول بأن الطبيعة البشرية لا يمكن تغييرها هو أحد تلك العبارات السطحية المملة التي تُخفي عن الجاهل مدى عمق جهله؛ فليس من بين أولئك الذين يقولون هذه العبارة من يعرف أي شيء عن أبحاث علماء النفس فيما هو خلقي وما هو مكتسب في شخصية البالغين، وأولئك الذين يعملون في حقل التجارب الخاص بالأطفال الحديثي الولادة يقولون إن هؤلاء الأطفال لديهم ثلاث غرائز إلى جانب غريزة البحث عن الطعام؛ فهم يخافون إذا وجدوا أنفسهم من دون سند؛ وهم يغضبون إذا قيدت حركات أطرافهم، وهم يسرون إذا دغدغوا بمهارة، وهذا فيما يبدو هو جماع ما لديهم، ومن السهولة بمكان أن يرى المرء كيف تنمو الشعارات السياسية من هذه المادة، ولكنه من السهلِ أيضًا أن يرى أن الشعارات ستكون مختلفةً تمامًا في بيئة ما عنها في أخرى،

فدارسو الأنتروبولوجيا يعرفون أن ما يحدث في حضارة ما يبدو للناس الذين نشأوا في أحضان حضارات أخرى مناقضًا تمامًا، لما يتصورون أنه الطبيعة البشرية، وعندما يقال إن حب القتال جزء من الطبيعة البشرية قد يعني ذلك أحد شيئين:

فمن ناحية قد يعني أنه يمكن إثارة الغضب في أي إنسان بواسطة أنواع معينة من الإثارات: فقليل من الناس بلغ بهم التسامح حدًّا يجعلهم لا يظهرون غضبًا إذا عرك شخص ما أنوفهم، ومن ناحية أخرى قد يعني أن بعض الناس لديهم نزعات اعتدائية ويحسون بلذة إيجابية في القتال؛ وهؤلاء الناس وحدهم الذين يخلقون مشكلةً؛ حيث إنه يمكن مراضاة الآخرين بسهولة بألا نعرك أنوفهم.

بيد أنها نزعة تكونت إبان نشأتهم ،وهي ليست بأي حال من الأحوال جزءًا محتومًا من مكونات شخصية البالغ، ولتأمل المبارزة مثلًا: فعندما كانت المبارزة من الأمور المسموح بها كان يُقال: إن كل سيد مهذب يجب ألا يقبل الإهانة؛ وانطوى ذلك ضمنًا على أن لأي سيد مذهب أن يوجه ما شاء من الإهانات؛ على أن يكون مستعدًّا للمبارزة التي تترتب عليها، ونتيجة ذلك أن الناس الذين كان يفترض فيهم كمال السلوك كانوا يستطيعون معاملة الآخرين بفظاظة؛ وأن الآخرين يوصمون بالجبن إذا رفضوا أن يموتوا في سبيل ما يعتبر أنه السلوك المهذب إظهارًا لعدم قبولهم الإهانة، ومنذ أن انقضى عهد المبارزة أصبح الرجل الذي يهين آخر يعتبر غير مهذب يستحق الازدراء من المجتمع؛ وهكذا أدى إلغاء أسلوب معترف به للرد على الإهانة إلى اعتبار الإهانة نفسها أمرًا غير جائز، ويصور لنا هذا نوع التغيير المطلوب إذا أريد للعالم أن يكيف نفسه مع الظروف الحديثة.

ولا تزال بعض البلاد يسود فيها إعجاب لا عقلي تمامًا، وليس له ما يبرره بالرجل الذي يتمتع بقوة جسمانية كثيرة، ويؤثر هذا الإعجاب في تربية الأولاد من سن الرابعة؛ فالولد يكون محل إعجاب لخشونته، أي لأنه على استعداد في أي لحظة لفرض رغباته الخاصة على أولاد أقل منه استعدادًا، أو أقل منه كفايةً، في استعمال قبضتيه. ويعتبر قبول المرء

للحجة العادلة، عندما تكون مصالحه الخاصة موضع نظر؛ علامة ضعف، والولد الذي حظي بالإعجاب من أبويه ومدرسيه وأخواته البنات لخشونة مسلكه يصبح عندما يكبر «بلطجيًّا»، فيجد لذةً في التغلب على أقرانه بالمنافسة غير المشروعة، وفي نفس الوقت يحب أن يرى الطبقة التي ينتمي إليها متكتلةً ضد بقية الأمة للإبقاء على حيازتها للامتياز، وفي العلاقات الدولية يعامل الأجانب بازدراء ويعتبرهم ضعافًا وملتوين؛ فيفضل إرغامهم على عقد اتفاقات يكرهونها على أن يعقد معهم اتفاقًا فيها مصلحة للطرفين.

وتقابل فكرة «الرجل الخشن» فكرة «المرأة الأنثى» التي لا تقل عنها سوءًا؛ فهي المرأة التي تحب القسوة في الذكور، وتحس بأنها بلغت شاطئ الأمان في عالم خطر؛ عندما تتزوج رجلًا على استعداد لاستعمال قبضتيه مع الناس لأتفه الأسباب، وهي لا تخشى قسوة زوجها لأنها تعلم أنه غبي؛ فهي مقتنعة بأن في مكنتها دائمًا أن تتغلب عليه بواسطة الخدع النسائية، وكل إظهار لروحه العدوانية يتيح لها فرصةً للإطراء، هكذا كلما زاد حبهما بعضهما لبعض كانا أسوأ.

ولا يمكن القول بأن مثل هؤلاء الأشخاص يفيدون المجتمعات التي ينتمون إليها في الظروف الحديثة؛ ففي الماضي استطاع جنكيزخان وتيمورلنك أن يوفرا الثروة والرخاء لأتباعهما بعملية بسيطة هي القضاء على سكَّان البلاد التي غزوها، واتبع الروس خطةً مشابهةً لهذه بعض الشيء في بروسيا الشرقية، ولكنها صارت الآن أقل فائدةً من الأساليب الأكثر إنسانيةً، وما في مدنيتنا من تعقيد هو أكثر شيء يغيظ «الرجل الخشن»، الحديث؛ إذ يجعل هذا التعقيد مستحيلًا على المرء أن يعرف ما فيه من فائدة، إلا إذا كان على استعداد لأن يبذل شيئًا ولو يسيرًا من التفكير الذكي. والذكاء؛ كما يعرف كل «رجل خشن»، صفة تدعو إلى الازدراء؛ فالأولاد الذين يتفوقون في دراساتهم قلما يبرزون في الألعاب الرياضية، ويمكن الاعتداء عليهم عادةً دون خوف من انتقامهم؛ ومع ذلك فإن أمورًا كثيرةً واضحة الأهمية لا يستطيع فهمها إلا أولئك الذين يتمتعون بقدر ما من الذكاء، وأحد هذه الأمور الشئون المالية.

وهذا هو السبب في أن «آندرو جاكسون» -وهو نموذج «للرجل الخشن»- لم يستطع فهم المصارف؛ فقد كان يعرف كيف يتغلب على مدير مصرف، وهكذا؛ في سنة ١٩٢٠م تولى «الرجال الخشان» السيطرة على الشئون المالية في أمريكا. وما إن جاءت سنة ١٩٣٢م، حتى كانوا قد دفعوا أمريكا وبقية العالم إلى حافة الخراب، ومع ذلك فقد ظلوا ممتعضين من السياسة التي أمكن بواسطتها تجنب استمرار الخراب؛ لأنها سياسة يتطلب فهمها قدرًا من الذكاء أكبر مما أرادوا في أن يستعملوه. وكراهية الذكاء خطر من الأخطار الكبرى في العالم الحديث؛ لأن كل تقدم جديد في الأساليب الفنية يجعل من الضروري استعمال قدر أكبر من الذكاء، وقد تحدثت عن الشئون المالية، ولكن الذكاء ضروري في كل شيء آخر على السواء؛ فالتقدم في الأساليب الفنية الصناعية يعتمد على المخترعين، والتقدم في الحرب يعتمد على علماء الطبيعة النووية، وليس من بينهم عالم واحد يستطيع أن يكسب احترام معاصريه من «الرجال الخشان»، والحكمة في الشئون الدولية تتطلب معرفةً بالجغرافيا، ودرايةً بعادات الأمم المختلفة، وقدرةً على رؤية كيف تنظر إلى الدنيا من وجهة نظر غير وجهة نظرك، وليس من بين هذه الأشياء جميعًا ما يمكن الحصول عليه دون ذكاء، وما زالت ديموقراطياتنا الكبرى تميل إلى اعتقاد أن الرجل الغبي أقرب إلى الأمانة من الرجل الماهر، ويستغل ساستنا هذا الاعتقاد بأن يتظاهروا بأنهم أغبى حتى مما خلقتهم الطبيعة.

إن هذا الخوف السائد لهو من الذكاء من الأخطار الكبرى في عصرنا الحاضر؛ وهو: مثل الأحكام الأخرى التي لا تقوم على أساس والتي كنت أتحدث عنها؛ أمر يتعلق بالمدرسة؛ فلو أن المدرسين والسلطات التربوية لديهم معرفة أكثر بنوع الشخص الذي يحتاجه العالم الحديث؛ لاستطاعوا أن يكفلوا لنا في جيل واحد وجهة نظر تغير العالم.

بيد أن مثلهم الأعلى فيما يتعلق بالشخصية عتيق بال؛ فهم يعجبون أكثر ما يعجبون بذلك النوع من الشخصية الذي يجعل من الرجل زعيمًا في عصابة من القراصنة، وإذا قلت لهم إن التجارة شيء يختلف عن القرصنة، اتهموك بالضعف وأملوا أن

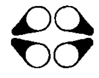
تكون مخطئًا، ويرجع كل ذلك إلى بقاء أفكار قديمة تمجد الحرب هبطت إلينا من العصور السابقة. وأكرر مرةً أخرى؛ إن هذه الأفكار كانت تناسب عصر ندرة لا يمكن تجنبها، ولكنها لا تنطبق على عصرنا الحاضر الذي لم يعد فيه ندرة سوى تلك التي ترجع إلى غباء الإنسان ولا شيء آخر، وعلى الرغم من أن الأمر كذلك فإن معظمنا ما زال يفضل الانفعال على الذكاء؛ فنحن نحب أن تُستثار مشاعرنا ونُحب أن نهتف محبذين ومنكرين، ونحب أن نُعجب ببعض الأشخاص وأن نكره آخرين، ونُحب أن نرى الأشياء سوداء أو بيضاء، إن جهازنا العقلي كله هو ذلك الذي يلائم الاندفاع في غمرة المعركة وعلى شفاهنا صيحة القتال.

وتأمل تطبيق مثل هذه العقلية على العمليات المصرفية الدولية، وعندئذ لن تعجب للأزمة الكبرى التي أدت إليها عندما كانت تسيطر بلا ضابط، ولا للمعتقد النازي وهو أنه يمكن القضاء على الأزمة إذا أمكن فقط إفناء العدد الكافي من اليهود، ولا للمعتقد الروسي وهو أننا جميعًا نكون أغنياء إذا قُضي على جميع الأغنياء؛ فما كان ليقع في أي خطأ من هذه الأخطاء رجال استطاع ذكاؤهم السيطرة على انفعالاتهم، وما كان أي خطأ منها ليقع من رجال أدركوا أنه عندما تختلف مصالح الجماعات المختلفة يكون السبب في ذلك هو الانفعالات غير الحكيمة وليس أي واقعة مادية.

إن العالم يواجه كارثةً محتملةً، ويسأل نفسه في حيرة لماذا يبدو أنه ليس هناك مخرج من مصير مؤلم لا يرغب فيه أحد؛ والسبب الأساسي هو أننا لم نُكيِّف عقلياتنا لأساليبنا الفنية؛ فما زلنا نسمح لأنفسنا باتباع أساليب في التفكير والشعور كانت تلائم عصرًا أكثر بساطةً من عصرنا من الناحية الفنية.

بيد أننا إذا أردنا أن نعيش في سعادة مع الأساليب الفنية الحديثة -ومن الممكن أن تجلب الأساليب الفنية الحديثة مستوى من السعادة أعلى بكثير مما كان ممكنا في الماضي- فيجب علينا أن نستبعد بعض الأفكار المعينة ونحل محلها محل حب الانتصار، وأن نحل الذكاء محل الوحشية، وأن نحل التعاون محل المنافسة، ويجب

علينا أن نتعلم التفكير في الجنس البشري بوصفه عائلةً واحدةً، وأن نعمل على تحقيق مصالحنا المشتركة باستعمال المصادر الطبيعة استعمالًا قائمًا على الذكاء، سائرين معًا نحو الرخاء، لا سائرين منفصلين نحو الموت والدمار؛ إن ما يتطلبه الأمر من تغيير عقلي عسير؛ لن يتحقق في لحظة، ولكن إذا أدرك المربون ما يحتاج إليه الموقف، وإذا رُبِّي النشء ليكونوا مواطنين في هذا العالم، وليس في عالم المحاربين السلابين الذي انقضى عهده؛ لأمكن تحقيق التغيير في جيل واحد بحيث يكون لدينا الأمل في إنقاذ جزء على الأقل من الجنس البشري من الدمار الشامل؛ الذي يهددنا به تمسكنا بأفكار لم تعد ذات موضوع.



الفصل السابع عشر

الخوف

إن «الخوف» هو أكبر عقبة تحول في الوقت الحاضر دون قيام عالم طيب، ولم يكن الأمر كذلك دائمًا، ولم يكن من الممكن لحياة الإنسان البدائي إلا أن تكون شاقةً ومؤلمةً -أو بالعبارة المأثورة «خشنة ووحشية وقصيرة»، وحتى وقتنا الحاضر كانت الغالبية العظمى من الجنس البشرى مضطرةً أن تشقى في العمل بصورة لا تتفق والنمو السعيد الحر، ولا يزال الأمر كذلك في أجزاء كبيرة من العالم، ولكن لم يعد هناك ما يستلزم ذلك؛ إذ نعلم الآن ما الذي يتطلبه الأمر إذا أُريد للإنسان أن يهرب من هذه الشرور القديمة، وقد انعكست الشرور القديمة داخليًّا في صورة مخاوف، وكانت هذه المخاوف تقابل إلى حد بعيد أخطارًا خارجيةً حقيقيةً، ولكن أقصى ما استطعنا الرجوع إليه من الماضي في دراسة الإنسان يدلنا على أنه كانت هناك أيضًا مخاوف خرافية؛ لم تكن تُعبِّر إلا عن مجرد طغيان عادة الخوف، وقد تجاوزت ما تتطلبه الظروف.

بيد أن الخوف قد تجاوز في العالم الحديث المستوى الذي يمكن أن يطلق عليه؛ المستوى العقلي؛ بصورة أوضح مما كان في أي وقت مضى؛ لأن عادة الخوف متشبثة بالبقاء؛ بينما قلت إلى حد كبير المناسبات التي تدعو إلى الخوف.

إن العقل البشري هو العالم مصغرًا، ولكن ليس العالم كما هو الآن بل العالم كما

كان، والعقل البشري يتكون من طبقات مثل الطبقات الجيولوجية. والمشاعر التي يتعرض لها هي المشاعر التي كانت تلائم أسلافنا في مختلف مراحل نموهم. فأعمق المشاعر؛ وهي التي تنتمي إلى مناطق الشعور الباطن التي يكتشفها التحليل النفسي؛ من ذلك النوع الذي كان؛ إلى حد كبير؛ يتفق مع الرجل البدائي، أو حتى على أسلافه في مرحلة ما قبل ظهور الجنس البشري، وتأتي فوق هذه الطبقة السفلى المشاعر التي تناسب البرابرة، ثم تلك التي تُناسب أول إنسان متمدين، ثم تلك التي تناسب العالم الإغريقي-الروماني، ثم تلك التي تتناسب مع أولئك الذين دمروا العالم الإغريقي الروماني، وعلى مستوى التفكير الواعي بلغ المفكرون التقدميون في بعض الأحيان أفكارًا تتناسب مع القرن الثامن عشر.

بيد أن التفكير الواعي غير كاف؛ فمن الصعب أن نبالغ؛ كما يعرف كل إنسان الآن، في مدى ما تصل إليه المشاعر من إملاء للمعتقدات، وما دامت المشاعر لا شعورية لا يمكن التغلب بصورة فعالة على تأثيرها في عرقلة الاعتماد على العقل. والعقل البشري، مثل الجسم البشري، نتاج نوعين من العوامل؛ العوامل الخلقية والعوامل التي ترجع إلى البيئة؛ ففيما يتعلق بالجسد تتغلب العوامل الخلقية على البيئة؛ فأنت لا تستطيع أن تحول الإنسان إلى فرس بحر بالتربية أو بنظام خاص في التغذية.

بيد أنه فيما يتعلق بالعقل تتغلب العوامل البيئية؛ على الخلقية، وليس ذلك مما يدعو إلى التعجب، حيث إن أهم عامل خلقي يميز عقل الإنسان عن عقل الحيوان هو القدرة على التعلم من التجربة، أي التأثير بالبيئة. وكثير جدًّا من سمات معظم العقول في الوقت الحاضر نتاج البيئة اليومية لكل فرد؛ رغم أنها تاريخيًّا متصلة بظروف الحياة في عهود بدائية جدًّا؛ فقد نمت بعض العادات الفكرية والشعورية المعينة منذ زمن بعيد، وانتقلت من عصر إلى عصر عن طريق أمثولة الآباء وتعليمهم، ومن الأهمية بمكان أن نكون واضحين فيما يتعلق بهذه النقطة؛ لأنه يمكن بسرعة تغيير ما هو خلقي إلا بواسطة عملية الانتخاب الطبيعي البطيئة، وهذا صحيح في الوقت الحاضر على الأقل؛ فقد يكتشف

العلم في المستقبل أساليب لتغيير العوامل الخلقية.

بيد أن مثل هذه الاحتمالات تمتُّ في الغالب إلى المستقبل البعيد؛ أما في الوقت الحاضر؛ فليس أمامنا سوى العوامل البيئية نسعى فيها وراء احتمالات التغيير والتحسين.

وتنقسم المخاوف بصورة عامة إلى ثلاثة أنواع: فهناك الخوف من الطبيعة الخارجية؛ وهناك الخوف من الأشخاص الآخرين، وهناك الخوف من نزعاتنا الخاصة.

وكان الخوف من الطبيعة المادية بالضرورة يكوِّن جزءًا كبيرًا جدًّا من الحياة البشرية البدائية؛ فالناس كانت لا تستطيع البقاء على قيد الحياة إلا باليقظة والحذر الدائم من الكوارث المحتملة، وأنت إذا وضعت بعض فتات للطيور على حافة نافذتك في جو شديد الصقيع؛ فسترى في الطيور صراعًا شديدًا بين الجوع والخوف، وشيئًا فشيئًا تهجم الطور الأكثر جرأةً لتخطف قطعةً من الفتات ثم تعود أدراجها مسرعةً، ويشجع ذلك الطيور الأخرى، وبعد مضى بعض الوقت تدرك الطيور التي تعيش في جيرتك أنك غير مؤذ، ولكن حتى عندئذ سترى أنها وهي تلتقط الفتات تتلفت يمنةً ويسرةً في استعداد دائم لملاحظة أي خطر مقترب، ولا بد أن هذا ما كان الإنسان الأول يشعر به، ولم يحفظ الإنسان في الوقت الحاضر درس أن البيئة ليست خطرةً كما يميل إلى الاعتقاد حفظًا كاملًا، وإنما حفظه نصف حفظ.

وهناك بطبيعة الحال أخطار مادية؛ فهناك زلازل وسفن تغرق، وفي أودية الأنهار العظمى يحدث من وقت لآخر فيضانات تكتسح أمامها عددًا كبيرًا من السكَّان بمنازلهم وكل ما يملكون، وهناك أخطار فردية أكثر؛ فأنت قد تموت عطشًا في صحراء، أو من البرد في عاصفة ثلجية.

بيد أن الإحصاءات تدل على أن هذه الأمور ليست كثيرة الحدوث؛ بوصفها أسبابًا للموت في المجتمعات الحديثة المتمدينة. ومع ذلك فهي ما زالت تلعب دورًا؛ لا يتناسب مع أهميتها، في الأحلام والأوهام؛ فكل إنسان تعرض في وقت أو في آخر لحلم مزعج (كابوس) يسقط فيه من عل؛ مما يبدو أنه يوحي بأن أصله يرجع إلى حياة أسلافنا من

سكّان الأشجار؛ وإن كان هذا قد يكون وهمًا، ويغلب على التراتيل والأساطير أن تتحدث عن الملاذ في العاصفة وعن سراب الماء في الأرض القاحلة، ونجد أن قصة «موسى» إذ يفجر الماء من الصخر؛ تحظى بوقع حسن عام حتى لدى أولئك الذين لم يعرفوا العطش الشديد في حياتهم، وتمثل التراتيل الجنة بوصفها ملاذا من عواصف الحياة، وليس بوصفها ملجأً يجد فيه المرء مهربًا من خطر الوقوع تحت عجلات (الأوتوبيسات)، وإن كان الخطر الأخير أكثر حدوثًا بكثير من الخطر الأول في حياة المدن الحديثة.

ونحن في الواقع؛ مهيأون من ناحية المشاعر لحياة من الخطر المادي إلى حد أن كثيرًا من الناس يجدون الحياة من دونه مملة أكثر مما ينبغي؛ فنرى مدرسين يهربون من رتابة ظروف حياتهم المدرسية إلى مخاطر تسلق جبال الألب. ويقود الشبان السيارات؛ في حدود ما تسمح الشرطة؛ بطريقة تعرض حياتهم وحياة الآخرين للخطر. ويوجد عنصر خاص من المخاطرة في كثير من المتع التي يسعى الناس وراءها في أوقات فراغهم. ويصور لنا ذلك قاعدةً عامةً هي أحد أسباب الصعوبة في العالم الحديث، وهذه القاعدة هي أن الناس لديهم حاجات عاطفية تمتُّ إلى نوع من الحياة أسبق عهدًا، وأنهم لم يعودوا مكتفين بطريقة طبيعية بأسلوب الحياة الذي يتعين عليهم أن يتبعوه؛ فالرجل الذي يضطر إلى أخذ القطار من الضاحية التي يسكن فيها إلى المدينة كل صباح ويعود مساءً في وقت الازدحام؛ لديه طبيعة عاطفية مهيأة لصيد الغزلان في الغابات؛ فإذا نجح في عمله نجاحًا كافيًا يستأجر في آخر الأمر غابةً من الغابات التي تكثر في هضابها الغزلان، ويعيش الحياة التي كانت الطبيعة تحثه إليها طوال السنوات الجافة التي قضاها في المدينة. وهكذا؛ إذ أريد للناس أن يحسوا باستكمال إمكانياتهم العاطفية في الحياة الحديثة؛ لا بد من السماح لهم بقدر معين من الخطر؛ بين الفينة والفينة، وليكن؛ إذا أمكن، خطرًا ينصب عليهم وحدهم؛ كما في تسلق جبال الألب، ولكن عندما يأخذ الخطر صورة الحرب فإن الأمر يكون أخطر مما ينبغي بعض الشيء، وتتعدى آثاره دائرة أولئك الذين يبحثون عن المتعة في المخاطرة، فإذا أريد لأي مجتمع أن يكون مستقرًا رغم التخلص

من عنصر المخاطرة في الحياة اليومية؛ فيجب إتاحة الفرص من الإجازات التي تتوفر فيها المخاطرة لأولئك الذين لا يستطيعون تحمل حياة آمنة باستمرار.

وأصل الآن إلى الخوف من الآخرين، وهو من الناحية الاجتماعية أكثر أهميةً بكثير من الخوف من الطبيعة، والخوف من الآخرين عقلي تمامًا من بعض الوجوه؛ فمعظم الناس تنطوي طبيعتهم على قدر معين من الشر، ولا يترددون في إيذاء الآخرين إذا أمنوا العواقب، ولست أفكر الآن في العداوات الجماعية، مثل العداوات بين الأمم والطبقات والشيع المذهبية؛ بل أفكر حاليًا في الشر الشخصي، ذلك النوع الذي تذهب الأمثال إلى أنه قائم بين «الحماوات» وكنَّاتهن، وبين المتنافسين في مكتب واحد؛ فالتنافس متأصل الجذور بعمق في الطبيعة البشرية كما نعلم؛ وإن كنت أعتقد أن الطبيعة البشرية في المستقبل ستتخلص منه. إن مسز «براون»، تريد سيارةً أحسن من سيارة مسز «جونز»، وبين الرجال الذين بلغوا مرتبةً كبيرةً في عمل ما تتيح لهم الاستئثار بغرف خاصة لكل منهم؛ قد تكون هناك منافسة محكمة حول الاستئثار بأفضل غرفة. ويوجد هذا النوع من التنافس بصفة خاصة في أمريكا؛ حيث لا يكاد يوجد شيء آخر للدلالة على التفوق الاجتماعي؛ فالرجل هناك عليه أن يغيِّر سيارته بأخرى قبل أن يستهلكها بوقت طويل؛ حيث إنه إذا لم يفعل ذلك ستخجل زوجته من الظهور أمام زوجات الجيران: إنك تستطيع أن تقرأ عن ذلك في أي قصة أمريكية رخيصة.

والتنافس يصحبه الحسد؛ ففي اجتماعات كبار المؤلفين قد يظن بعض المؤلفين الجدد أن ما سيدور فيها سيكون محادثات شائقةً حول موضوعات أدبية، ولكنهم للأسف يصابون بخيبة الأمل؛ إذ يكاد يكون من المؤكد أن المحادثات ستكون في الواقع مباراةً في المباهاة بالأجور التي يتقاضاها هؤلاء المؤلفون؛ فالمؤلفون الكبار قد يكونون موضع إعجاب الجمهور، ولكن يكاد يكون من المؤكد أن شعور المؤلفين الأقل مكانةً نحوهم هو الكراهية، وإذا تعرض أحد الكبار لفضيحة تقلل من شأنه؛ فإن جميع المؤلفين الصغار ينبحون جذلًا. وينطبق نفس الشيء على رجال السياسة؛ ففي

سنة ١٩١٠م، عندما كنت أصغر من الآن بعض الشيء، ولذلك كنت أكثر بساطةً، راودني إحساس عميق بأهمية انتصار «الأحرار» في النضال حول «الميزانية»، و«مجلس اللوردات»، وكان زعيما النضال في انتخابات سنة ١٩١٠م، الأولى هما «لويد جورج» و«ونستون تشرشل»، وكنت أعجب بكليهما لما قام به مجهود في سبيل القضية المشتركة، وظننت بغباء أن كلًّا منهما معجب بالآخر، ولكن عندما أصبحت صلتي بدوائر الأحرار السياسية أوثق بعض الشيء عن ذي قبل عرفت أن هناك، على نقيض ما ظننت؛ تنافسًا مريرًا بين أتباعيهما، وأن كل جماعة كانت تجد سرورًا في سقوط الجماعة الأخرى بقدر ما تجده في نجاحها هي تقريبًا.

ويقوم التنافس والحسد على الإحساس بعدم الأمن، ومن ثم على الخوف؛ فعندما ينقص قبيلة متوحشة الطعام يكون رئيسها آخر من يقاسي من هذا النقص، ومن ثم فإن كون المرء رئيسًا شيء حسن، والعقلية البدائية التي تتولد من مثل هذا الموقف الأول مثل المنافسة بين شخصين على رئاسة الوزارة، والطريق الوحيد الذي يستطيعون التفكير فيه للإحساس بالأمن هو الطريق يجعل في مكنتهم التسلق فوق أكتاف الآخرين.

والخوف هو الذي يؤدي إلى التطابق الاجتماعي[١]؛ لقد عرفت مرةً شخصًا نابه الذكر جدًّا ويتمتع بشهرة عالمية وتولى منصبًا كبيرًا وصار من ذوي الألقاب، ولكنه في أول مرة تناولت الطعام معه جعل يتلفت حول المائدة بعناية ليعرف الطريقة الصحيحة للتصرف في هذه المرحلة؛ فهناك إحساس عميق في مكان ما من أغوار لا شعوره بأن القطيع قد ينقض عليه إذا لم يثبت أنه عضو كامل تمامًا من أعضائه، ومما لا ريب فيه أن بلوغ مكانة كبيرة تقلل من هذا الخوف.

بيد أني عندما عرفته في أول الأمر لم يكن نابهًا بعد، والأولاد في المدارس قمينون بأن يتحملوا ألمًا جسمانيًا وعقليًا إذا اعتبرهم الأولاد الآخرون شاذين، وهذا يعني أن معظم الأولاد الذين يتمتعون بذكاء غير عادي عليهم أن يتعلموا أساليب محكمة في

---

(١) Sorial Conformity.

التستر، وهي أساليب قمينة بأن تظل ملتصقةً بهم طوال حياتهم بعد ذلك؛ فعليهم أن يتظاهروا بأنهم أكثر خشونةً وأقل ذكاءً مما هم في الواقع، وعليهم أن يتعلموا إخفاء أي متعة قد يستمدونها من الشعر والموسيقى، وفوق كل شيء عليهم أن يخفوا تمامًا بقدر ما يستطيعون أي ملكات في الخيال تكون لديهم؛ فإذا تعلموا كل ذلك بنجاح قد يمرون دون معاناة خارجية حتى يبلغوا السن التي يدخلون فيها الجامعة.

بيد أن كثيرين منهم يكونون في أثناء ذلك قد اكتسبوا درعًا من السمك؛ بحث لا يكاد يستطيع الكائن الحي الذي تحتها أن يطل منها.

وتبلغ المطابقة الاجتماعية نفس الأهمية في حياة النساء، وإن كانت تأخذ معهن صورًا مختلفةً اختلافًا طفيفًا؛ فجميع النساء الأمريكيات المثريات لديهن نفس الكتب ملقاةً على موائدهن، ويقرأن نفس مقالات النقد التي تصدر عن هذه الكتب، ويلتقطن نفس الملاحظات التي تضمنتها هذه المقالات ويعتبرونها المعبرة عن آرائهن الشخصية، ويتطلب الانضمام إلى «الديموقراطيين» في الجنوب أو «الجمهوريين» في الشمال قدرًا من الشجاعة يندر توافره فيمن يتمتعون بدخول طيبة، والأثاث المناسب ومائدة العشاء الحافلة بالأدوات المناسبة؛ فإذا توافرت هذه الأشياء جميعها للسيدة قُبلت على قدم المساواة مع جاراتها، ولكنها لو حاولت شيئًا من الإصالة، من أي نوع كان، تحل عليها الكوارث والخوف -الخوف من عداء القطيع- هو الذي يملي عليها هذه المطابقة كما يملي على جاراتها عداءهن نحوها إذا خرجت عليهن، وهذا الخوف عميق جدًّا في معظم المجتمعات؛ فهو يقف في سبيل الإصالة ويدفع إلى الاضطهاد؛ وهو يحول دون نمو فردية الفرد، ويجعل تكيفه مبتسرًا، يجنح إلى جعل المجتمعات عقيمةً قاسيةً وعلى نمط واحد.

ورد الفعل الغريزي للخوف سريع وأكيد إلى أقصى حد؛ فافترض مثلًا أن شخصًا ما تقدم برأي بدا لك هدَّامًا، لكونه ليس رأي الغالبية في جماعتك الاجتماعية؛ فستشعر على الفور إذا لم تكن على حذر من مثل هذا الشعور بأن أي رأي من هذا النوع سيطلق

فيضانات ثوريةً من عقالها، وسيحرمها من مورد رزقك، ويقضي على الروابط الأخلاقية التي تربط المجتمع بعضه ببعض افترض مثلًا أنك تعيش في الجنوب في الولايات المتحدة، وأن زنجيًّا ما حكم عليه بالإعدام في قضية اغتصاب هو بريء منها، إنك إذا وقفت تدافع عنه ستعتبر على الفور هدَّامًا، وأنك لا تحس كما يجب بالاستقطاع المناسب لهذه الجريمة؛ فإن ذلك يؤخذ دليلًا آخر على أنك لا تستهجن الجريمة كما ينبغي، ويبدأ الناس في التهامس حولك ويتابعونك بنظراتهم، وفي نهاية الأمر تجد نفسك في مواجهة عداء على نطاق واسع جدًّا، وقد يكون أولئك الذين يتصرفون قبلك بهذه الطريقة العدائية متفقين معك في قرارة أنفسهم، لكن الخوف يجعلهم يتظاهرون بأنهم ليسوا كذلك، ومثل هذه الظروف تنشأ في جوهرها، في كل مكان.

وأصل الأن إلى نوع آخر من الخوف، وأعني به الخوف من الجماعات الأجنبية عن المرء، وأشد ما يكون هذا الخوف هو في أولئك الذين لديهم أقل تجربة عن الجماعات الأخرى غير جماعتهم؛ فالشيء الغريب يخيف ما دام غريبًا؛ فإذا كنت لم تقابل أي إنسان غير مسيحي؛ فإن المسلمين سيخيفونك. وإذا لم تكن قد قابلت أي إنسان غير مسلم؛ فإن المسيحيين سيخفونك.

وإذا لم تكن قد قابلت اشتراكيًّا؛ فإنك ستشك في أنه يحمل قنابل في جيوبه أو في أنه ينوي سرقة ملاعقك. وإذا لم تكن قابلت أي (مفكر حر)، فإنك ستفترض أن المفكرين الأحرار لا يأبهون مطلقًا لجميع ما تعارف عليه المجتمع، وهكذا.

ولن أذهب إلى أن مثل هذه المخاوف لا عقلية تمامًا؛ فالمجتمعات يربط بعضها بالبعض عمليًّا معتقدات يجد العقل صعوبةً في تبريرها، والأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمع مختلف مصدر تهديد لمثل هذه المجتمعات؛ إن تشكك الفلاسفة الإغريق كان بمثابة صدمة شديدة «لكاْتو» الأكبر، الذي كان شديد الإيمان بالفضائل الرومانية القديمة؛ فقال بوجوب عودتهم من حيث أتوا، وقد كان على حق من بعض الوجوه؛ فالمجتمع الروماني فَقَدَ تجانسه الموحد تحت التأثير الانحلالي للحضارة الإغريقية،

ووجد نفسه في خضم حرب أهلية.

بيد أن وجهة نظر مثل تلك التي قال بها «كاتو» الأكبر تجعل التكيف مع الظروف الجديدة مستحيلًا، وتفرض عقبات كأداء ضد أي نوع من الإصلاح؛ إن الحياة لا يمكن أن تخلو تمامًا من كل خطر، وإذا أمكن ذلك فإنها تكون حياةً رتيبةً بصورة لا تحتمل.

لا بد أن تكون هناك مخاطر؛ أما أولئك الذين يرتجفون هلعًا أمام مقدم أتفه الأخطار إنما يحكمون على المجتمع؛ إذا تم لهم ما يريدون، بالجدب والتحجر؛ كما أن ذلك النوع من الاستفظاع؛ الذي يحس به المحافظون المتطرفون عندما يواجهون أي شيء لم يألفوه؛ هو أحد الأسباب الكبرى في قيام الحروب والاضطهاد وألوان القسوة التي ترتكب على نطاق كبير؛ إن اليهود جماعة غريبة، ومن ثم يسببون مخاوف يحس الناس أنها تبرر المذابح. والزنوج جماعة غريبة، ومن ثم فإن الاحتجاج على شنق بعضهم بين الفينة والفينة يكون هراءً غبيًّا، وكان اليابانيون جماعةً غريبةً، ومن ثم فإن استعمال القنبلة الذرية ضدهم لم يصحبه من وخز الضمير ذلك القدر الذي كان يثيره استعمالها ضد الألمان؛ إذ إنه على الرغم من أننا لم نقبل النازية؛ فإن معظمنا كان يعرف الكثيرين من الألمان، و يدرك أن لهم عينين وأنفًا وفمًا مثل بقية الناس؛ ولكن فيما يتعلق باليابانيين فلم نكن متأكدين من ذلك تمامًا. وأساس أمثال هذه العدوات هو الخوف، والسبيل إلى الإقلال من تأثير المخاوف التي من هذا النوع هو حث الناس على إدراك السمات البشرية المشتركة بينهم وبين الآخرين الذين نعتقد لأول وهلة أنهم مختلفون عنا تمامًا، وكذلك جعلهم يدركون أن الصراع بين المصالح لا ضرورة له في العالم الحديث، ويمكن تحقيق الأمر الأول من هذين الأمرين بواسطة السينما، أما الثاني فبالتربية المدرسية.

وأحد الآثار التي تترتب على الخوف؛ الخضوع للزعماء؛ فأي جماعة اجتماعية تشعر بخطر شديد تتطلع بالغزيرة إلى زعيم تحس بأنها تستطيع أن تضع فيه ثقتها، وأحيانًا يكون الزعيم طيبًا، وأحيانًا أخرى يكون سيئًا.

بيد أن الدافع الغريزي واحد في الحالتين؛ إن النزعة التي جعلت الإنجليز يتطلعون إلى «تشرشل» في سنة ١٩٤٩م، هي نفسها التي جعلت الألمان يتطلعون إلى «هتلر» في الأزمة الكبرى؛ فكثيرًا ما كان الخضوع للزعماء في أوقات الخطر ضروريًّا؛ ومن الواضح أن خير ما يفعله الناس في حالة غرق مركب هو أن يطيعوا الربان.

بيد أن هناك بعض الشرور التي لا مفر منها في الخضوع للزعماء بحث يكون أمرًا مؤسفًا حينما يجلب الخوف مثل هذا الخضوع بغير ضرورة؛ فالخضوع للزعماء ينزع من المرء مسئوليته الفردية وعادة التفكير الفردي؛ فإذا لم يكن الزعيم الذي وقع عليه الاختيار سامي الفكر بصورة غير عادية؛ فإنه سينزع إن آجلًا أو عاجلًا إلى خيانة أتباعه لمصلحته الخاصة؛ كما حدث مع جميع «طغاة» الإغريق بلا استثناء تقريبًا. ولما كانت قوته تقوم على خوف منتشر بصفة عامة فمن المحتمل أنه لن يحاول تبديد مثل هذا الخوف؛ بل على العكس من ذلك سيشجع الاعتقاد بخطر الأعداء، وتكون النتيجة محارق للخوارج في الداخل وحربًا في الخارج، وهذه المآسي كلها ليست سوى نتاج الخوف الذي يحسه الناس تجاه بني جلدتهم من البشر.

وأصل الآن إلى خوف الإنسان من نفسه؛ الذي أصبح في العالم الحديث الأساس الذي تقوم عليه المخاوف الأخرى إلى حد كبير؛ إن كل إنسان لديه نزعات تدفعه إلى التعرض للمخاطر؛ فأحيانًا يصل به الغضب حدًّا يفقده السيطرة على نفسه؛ فقد يوجه إلى صاحب العمل الذي يعمل لديه إهانةً، أو يتصرف بصورة غير لائقة مع عمه الذي يتوقع أن يترك له شيئًا في ميراثه؛ بل إنه إذا فقد سيطرته على نفسه بدرجة كافية؛ قد يعمد إلى مسدسه ويقتل رجلًا في نوبة غضب أهوج؛ فالقانون وحسن السلوك يتطلبان درجةً من الخضوع؛ كثيرًا ما تكون عسيرةً، والشخص الذي يدرك شعوره الغضب أو التمرد وهما يعتملان في نفسه، يحاول بشدة أن يسيطر عليهما، وهناك مجموعة أخرى من النزعات التي يجد الناس صعوبةً في الملاءمة بينها وبين الحياة المتمدينة، وهي النزعات المتصلة بالجنس (Sex)؛ وليس الأمر مقصورًا على الجاذبية الجنسية بل هناك

الغيرة أيضًا؛ فهاتان النزعتان المتضادتان؛ الجاذبية الجنسية والغيرة؛ هما النزعتان اللتان تبين أن إخضاعهما لقواعد الأخلاق الاجتماعية المفروضة أصعب ما يكون، وهذا هو السبب في أن الفكرة في معظم القصص والتمثيليات تتكون منهما؛ فعندما يقع الرجل في غرام زوجة رجل آخر؛ يتعرض للقتل على يد هذا الآخر؛ كما أن الآخر يتعرض للعقوبة القانونية بسبب هذا القتل، ومن ثم فإن نزعتي الجاذبية الجنسية والغيرة خطرتان، وإذا أردت أن تعبر الحياة بأمان فعليك أن تتعلم السيطرة عليهما.

إن هناك نوعين من الأخلاق يمكن أن تطلق عليهما «أخلاق الخوف» و«أخلاق الأمل» على التوالي؛ فأخلاق الخوف همها أن تجنب الكوارث؛ بينما أخلاق الأمل تسعى إلى خلق شيء طيب أو سار. وقد ظلت أخلاق الخوف تلعب حتى الآن الدور الأكبر في خلق القواعد الأخلاقية وفي الوعي الأخلاقي لدى الأفراد؛ فالإحساس بالخطيئة، أو بالذنب كما يفضل المحللون النفسيون أن يطلقوا عليه، هو في جوهره الخضوع لنزعات تؤدي إلى التعرض للخطر، وتعتبر أخلاق الخوف منع الظروف التي تؤدي إلى هذه النزعات، أو إيجاد متنفسات غير مضرة لها؛ مستحيلًا، وتبدأ في علاجها لها بزيادة الخوف الذي تثيره هذه النزعات، وبالتهديد بكوارث أخرى إلى جانب تلك التي تتمخض عنها النزعات بطبيعتها؛ فأنت يجب ألا تستسلم للغضب؛ لا لأن الاستسلام له في الواقع يعرضك للمخاطر؛ ولكن لأن هناك أيضًا شيئًا للغضب مثلًا من أمثلة الخطيئة، وصحيح أن الأخلاقيين يقتصرون أحيانًا على التحذير من الأخطار الحقيقية؛ فكما تقول الأناجيل: «كن مراضيًا لخصمك سريعًا ما دمت معه في الطريق؛ لئلا يسلمك الخصم إلى القاضي، ويسلمك القاضي إلى الشرطي فتُلقى في السجن؛ الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير» (إنجيل متى الإصحاح الخامس ٢٥، ٢٦) وقبل ذلك بثلاث آيات وردت آية مختلفة تقول: «وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلًا يكون مستوجب نار الحكم، ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم».

بيد أن كل ذلك ليس سوى توسيع نطاق تحريم القتل، والإشارة إلى نار الجحيم يزيد من الخوف الذي يمنع المرء بصورة طبيعية من الاعتداء على جاره، دون أن يكفل أي دافع آخر سوى الخوف لصرف الإنسان عن السلوك العدواني.

وهناك بطبيعة الحال وصية إيجابية هي: «حب جارك كما تحب نفسك»؛ فأنت إذا أحببت جارك كان كل شيء على ما يرام.

بيد أنه من المستحيل أن يحس المرء بأي شيء جدير باسم «حب» لمجرد أن القانون الأخلاقي يقول إنك ينبغي أن تحس بذلك؛ فمشاعرنا لا تخضع لسيطرة إرادتنا إلى هذا الحد، والرجل الذي تعتمل فيه النزعات الاعتدائية، ولكنه يقبل تعاليم المسيحية؛ يكون منافقًا إذا تظاهر بأنه يحب جاره حقيقيةً؛ إذ إن هناك في الواقع نوعين من العواطف مختلفين تمامًا من الناحية النفسية يمكن أن نطلق عليهما «حب الجار»: أحدهما: ذلك النوع من العواطف الذي يوحي به الخوف؛ وهو شعورك بأن سلوكك نحو جارك بطريقة عدائية خطر لخوفك من الانتقام، وليس هذا الشعور جديرًا باسم حب؛ فهو مجرد إجراء من الحرص العملي يترك نزعاتك الاعتدائية كما هي من حيث شدتها؛ حتى إذا نجحت في كبحها، ولكن هناك عاطفة أخرى يمكن أن يحس به المرء أحيانًا نحو بعض الناس بذاتهم؛ هي تلك التي تجعلك تجد في صحبتهم متعةً؛ فأنت قد تجد متعةً في صحبة من تقع في غرامها؛ وقد تجد متعةً في صحبة أطفالك، خاصةً إذا كانوا حسانًا ومرحين وعطوفين، وهذا أمر مختلف تمامًا عن ذلك النوع من الحب الذي تستطيع أن تحس به طاعةً لوصية أخلاقية؛ إنه أمر لا يلعب فيه الخوف أي دور؛ إنه أمر يبدد نزعات الاعتداء تمامًا؛ إذا كان قويًّا وفيه إشباع؛ فعندما تتأمل منظرًا طبيعيًّا جميلًا أو صورةً جميلةً فإنك إذا كنت متمتعًا بقواك العقلية؛ لا تحس بنزعة لتدميرها؛ كما لا تقول لنفسك: «يجب أن أحب هذا المنظر الطبيعي الجميل حتى لا يقوم ويصفعني»، وعندما تحس بمثل هذا الإحساس نحو كائن آدمي يسهل عليك أن تسلك حياله سلوكًا طيبًا دون حاجة إلى السيطرة على النفس ودون خوف من نيران الجحيم إذا نعته بأنه

«أحمق»، وهذا النوع من العواطف؛ كلما وجوده ممكنًا؛ فهو طيب من جميع نواحيه.

بيد أنه، مثل جميع العواطف؛ مما لا يمكن تولده من مجرد إدراك أنه طيب، ويمكن تنميته؛ فيما أعتقد، بواسطة أسلوب خاص من الحياة، وكذلك بالحكمة في التربية، ولكنْ ذلك موضوع سأتناوله في فصل آخر، إن ما يهمني في هذا الفصل هو عنصر الخوف فيما يُسمَّى أحيانًا؛ خطأً؛ حبًّا؛ إنه في جوهره إجراءات الحرص قُصد به الإقلال من مخاطر الانتقام المحتمل.

وأصل الآن إلى الخوف بوصفه عنصرًا من عناصر أخلاقيات الجنس؛ لقد ظلت النظم الأخلاقية حتى اليوم تهتم دائمًا بالجنس (Sex)، أكبر من اهتمامها بأي شيء آخر تقريبًا، وهناك أولئك الذين يعتبرون الجنس، مثل «المانويين» (Manicheans)، شرًّا في كل الظروف.

بيد أن معظم النظم الأخلاقية اعترفت بأنه يجب المحافظة على بقاء الجنس البشري؛ ومن ثم اضطرت لاعتبار بعض أنواع «الجنس» بريئة، وأعتقد أن أخلاقيات الجنس مدينة بأصلها للخوف من الغيرة، ومن المحتمل أن أول جزء من أخلاقيات الجنس هو تحريم نكاح الأقارب، إذ من الواضح أنه ضروري إذ أريد ألا تمزق الغيرة الحياة العائلية، وكان الجزء الثاني الذي له تأثير حقيقي من أخلاقيات الجنس قبل العالم المسيحي هو تحريم الزنى مع زوجة رجل آخر؛ فلم يكن الناس يشعرون بأن الرجل الذي يتصل بامرأة غير متزوجة يستحق الاتهام؛ اللهم إلا إذا كان آباء تلك النسوة من الأقوياء، ولكن الاتصال الجنسي بامرأة متزوجة يثير النسوة من الأقوياء، ولكن الاتصال الجنسي بامرأة متزوجة يثير زوجها إلى العنف، ومن ثم كانت نزعة الاتصال بالمرأة المتزوجة تثير الخوف، وهكذا اعتبرت سببًا من أسباب الخطيئة، مثل النزعات الأخرى التي تعرض الرجال للمخاطر، أي أن السبب في تحريمها لم يعد ما قد تثيره من عنف فحسب؛ ولكن أيضًا أن الزنى اعتُبر في ذاته عملًا سيئًا بصرف النظر عن نتائجه، ويبدو أن ذلك يؤيد وجهة النظر العامة من أن النزعات التي يمكن أن تُسمَّى «خاطئة» هي تلك

التي تعرض الإنسان للخطر، والتي من ثم؛ تجعل هناك سببًا للخوف؛ وبذلك يكون مفهوم الخطيئة كله مستمدًّا من خوف المرء من جزء من نفسه، ويمثل صراعًا بين الرغبة والحرص.

ونستطيع أن نلخص هذه المناقشة بأن نقول إنه لما كان القتل والزنى على السواء خطرين؛ فإن القانون الأخلاقي يطالبك بأن تحب جارك، ولكن ليس زوجة جارك.

إن القواعد الأخلاقية التي نمت أصلًا من مخاوف عقلية؛ كانت تدعم دائمًا بمخاوف لا عقلية؛ فقد كانت هناك أشباح؛ وكانت هناك عفاريت؛ وكانت هناك آلهة غضبى؛ إنك إذا أسأت لرجل ميت قد تعتقد إنك في أمان؛ كلا؛ إن شبحه سيعود في منتصف الليل وينتقم، وإذا قتلت رجلًا فإنك تكون نجسًا ملطخًا بالدماء، وإذا عاملك مجتمعك كما لو كنت بريئًا فإن الآلهة ستغضب على مجتمعك، ومن ثم يصبح عقابك من مصلحة المجتمع.

بيد أنه إذا كان الشخص الذي قتلته ممن لا يهمون المجتمع، وبالتالي آلهته، بصفة خاصة، سُمح لك بالنجاة بعد القيام ببعض الطقوس التطهرية التي لا ضرر فيها نسبيًّا، ولكن أحيانًا عندما تقع قوى الأرض في حيرة؛ كما في حالة «أورستيز (Orestes)» تتولى قوى ما فوق الطبيعة الأمر.

وجعلت المسيحية من هذه الأوضاع عقيدةً؛ فأنت إذا ارتكبت بعض الخطايا المعينة دون أن تتطهر منها بالتوبة والحصول على الغفران؛ فإنك ستُصلى عذابًا أبديًّا بعد الموت، وكما رأينا فيما سبق؛ قد ينزل بك هذا العقاب لأنك قلت لأخيك أنه «أحمق»، والمفروض أن الناس الذين يؤمنون بذلك سيبذلون عنايةً في أن يخاطبوا إخوتهم بأدب.

بيد أن التجربة أثبتت أن هذا الاعتقاد لا يترتب عليه هذه النتائج، وهذا أحد الأمثلة على عدم قدرة الناس على التصرف بالطريقة التي يعتقدون أنها خير طريقة تؤدي إلى سعادتهم.

بيد أن هذا المذهب ترك فعلًا أثرًا فعالًا في الإقلال من حدوث الخطايا المميتة التي نصيبها من التعمد أكثر مثل زواجك من أرملة أخيك، وأيًّا كان الأمر فيجب علينا أن نعترف بأن الأخلاقيين التقليديين لم يعتمدوا الاعتماد كله على الخوف من الجحيم فحسب؛ بل لقد اخترعوا أيضًا العبارات، مثل: «الأمانة هي خير سياسة»، التي تكفل للقانون الأخلاقي في جزاء أقرب.

بيد أن هذا المذهب، مثله مثل مذهب نار الجحيم، يعتمد في جوهره على الخوف، ولا يهيئ أي وسيلة أخرى غير السيطرة على النفس لتحقيق السلوك المطلوب.

ورغم أني لا أنكر مطلقًا ضرورة السيطرة على النفس عند الضرورة، إلا أنها ليست أفضل طريقة لجعل الناس يسلكون سلوكًا طيبًا؛ ففيها عيب أنها تقلل من الطاقة والخلق؛ فهي بمثابة لبس درع ثقيلة، قد يمنع ذراعك من لطم الآخر به؛ إلا أنه يجعله أثقل من أن يقوم بحركة مفيدة أيضًا، وأولئك الذين يعتمدون اعتمادًا كليًّا على السيطرة على النفس يصيرون جامدين وهيَّابين عن طريق خوفهم من أنفسهم، ولكن النزعات التي لا يعرفون لها متنفسًا تبقى؛ ولا بد لها أن تفيض؛ إن آجلًا أو عاجلًا كالأنهار التي تقام عليها السدود؛ فالطاقات التي لا نسمح لها بمتنفسها الطبيعي بما ينمي حياتنا إما أن تذوي أو تجد لها متنفسًا في إحباط حياة الآخرين؛ فتلجأ إلى متنفس من النوع الذي لا خطر فيه علينا؛ كالطغيان الأبوي مثلًا، وإذا لم يكن ذلك كافيًا بوصفه متنفسًا يمكن الالتجاء إلى إجراءات أخرى؛ فهناك بعض الناس ممن ينبذهم المجتمع ويتسامح مع من يعذبونهم، ومن ثم فإن تعذيبهم لا خطر منه، وأحيانًا يكون هؤلاء المنبوذون مجرمين، وأحيانًا أخرى يكونون عبيدًا.

والقانون الجنائي؛ من وجهة نظر الفضيلة المكبوتة له ميزة أن يسمح بمخرج لنزعات العدوان التي منعها الجبن من الظهور في صورتها الطبيعية متنكرًا في ثوب الأخلاق، وللحرب نفس الميزة؛ فأنت يجب ألا تقتل جارك؛ الذي لعلك تكرهه حقيقةً؛ ولكن بشيء بسيط من الدعاية يمكن تحويل هذه الكراهية إلى أمة أجنبية ما، وتصبح نزعاتك

الاغتيالية حماسةً وطنيةً عندما توجه ضد هذه الأمة، ولكن ليس هناك ما يشفي النفس سواء في تعذيب المجرمين أو قتل الأجانب؛ لأن النزعة الأساسية هي نزعة كراهية جزء من نفسك والخوف الذي تحس به؛ لأن هذا الجزء موجود.

إنك لن تستطيع استعادة الاتزان الداخلي بمجرد القيام بأعمال خارجية؛ فلا يتمتع بالاتزان الداخلي سوى أولئك الذين تستطيع نزعاتهم أن تجد متنفسات خلاقةً غير مدمرة؛ إن الرجل الذي يدفعه ما به من عدم اتزان نحو أعمال عدوانية خفية ضد أولئك الذين يسمح له المجتمع بأن يعتبرهم أشرارًا؛ يظل بينه وبين نفسه؛ عندما يستيقظ ساهرًا مع نفسه في المساء أو في أي وقت تقتحم معرفة الذات عليه تفكيره؛ يظل كائنًا من نوع مختلف تمامًا عن ذلك البطل المتباهي المدعى الذي يظهر أمام أنظار الجماهير؛ فهو يحس في قرارة نفسه أنه رجل ضئيل مذعور؛ لعله ما برح طفلًا؛ معرضًا لتأنيب أبيه أو مدرسه أو نظرات أمه الشديدة؛ وكلما اشتد خوفه من نزعاته الخطرة، صار أقل إحساسًا بالارتياح وزاد سعيه في الهرب بأن يلقي الذنب على الآخرين؛ إن أقصى ما وصل إليه في معرفة الذات هو قوله: «هكذا؛ لولا رحمة من الله لهلكتُ».

بيد أنه لا يسمح لنفسه بالشك في رحمة الله؛ لأن رحمة الله هي التي تجعل الرجل الضئيل المذعور يشعر بالأمن، وعندما يتحول ذعره إلى عدوان؛ كما يتحول الذعر دائمًا؛ يعتقد أن العدوان سيفلح بعون الله.

وإحدى ميزات القانون الأخلاقي أنه يكفل مجموعةً من القواعد يمكن بواسطتها تجنب عداوة الأقوياء وفي نفس الوقت يجعل من العداء ضد المنبوذين مأمون العاقبة حتى لأكثر الناس جبنًا.

والسبيل الوحيد لإدخال تحسين أساسي في سيكولوجية الخوف والذنب والعقاب والانتقام؛ هو أن يخلق في الناس، وهم لا يزالون صغارًا؛ نزعات وقابليات تقودهم إلى حياة لا تنطوي على أي صدام عنيف مع الآخرين؛ لأن الأشياء المرغوبة توجد في نمو الإنسان نفسه وفي أعماله البناءة، وليس في أشياء تعتمد في جوهرها على إقامة العقبات

في سبيل الآخرين.

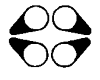
وأعتقد أنه يمكن تطبيق هذا المبدأ على أخلاقيات الجنس أيضًا، وإن كنت أعترف بأن هناك عقبات ترجع جزئيًّا إلى الطبيعة وجزئيًّا إلى عصور طويلة من التقاليد؛ إن الأخلاق التقليدية تحبذ الغيرة في (حدود)، حيث إنها قوة تعمل على زيادة خطر السلوك المراد منعه، ومن ثم تخدم نفس الأغراض التي تخدمها نار الجحيم، ولكن بصورة مباشرة أكثر ومحسوسة أكثر.

بيد أن الغيرة مرتبطة بالإحساس بالتملك (Possessiveness) ويرجع بعض سببها إلى فقدان الحب، وبعضه إلى الإحساس بأنه ما دام التملك في أمان فإن وجود الحب وعدمه أمر لا يهم؛ فلا أظن أن «سليمان» كان ينتظر من كل زوجاته الستمائة أن يحببنه؛ ولكنه كان ينتظر منهن أن يقبعن جميعًا في «حريمه» في أمان بوصفهن من ممتلكاته الخاصة، ولم يعد العرف الحديث يقر الغيرة في هذا الوضع المغالي فيه.

بيد أن العملية السيكولوجية ظلت كما هي؛ فإذا كنت محبوبًا فارفع رأسك إلى السماء شاكرًا كما لو كنت في يوم مشمس، وإذا لم تكن محبوبًا؛ فلك أن تحزن، ولكنك لن تحصل على الحب بالإصرار؛ فإذا كنت سيئ الحظ فقد لا تستعيد الحب الذي فقدته بالذات، ولكن العلام لا ينتهي لسوء حظ واحد يمر بك؛ وإذا كنت قد عرفت السبب الذي جعلك تفقد حبك هذه المرة؛ فقد تستطيع أن تتجنب سوء حظ مماثل في مرة قادمة؛ بل إن سوء الحظ هذا قد يفتح أمام قلبك وعقلك آفاقًا جديدةً، ويهيئ لك بهذه الطريقة في نهاية الأمر حياةً أسعد مما كنت تعتقد أنه ممكن؛ إن إلقاءك الشخص الذي لا يحبك في سجن سواء كان «الحريم» أو الاحترام الاجتماعي؛ ليس السبيل إلى الحصول على أي شيء له قيمة في نظر الرجل المحترم؛ إن الحب شيء جميل ولا يمكن الإبقاء على حياته بوضعه في الأغلال، والغيرة سببها الخوف من عدم القدرة على الاحتفاظ بالحب، وعلاج ذلك ليس بعقاب من لا يحبوننا، ولكن بأن نجعل أنفسنا جديرين بالحب. وكل منا يستطيع أن يكون جديرًا بالحب، وعندما نفشل في

ذلك يكون معظم السبب أننا سمحنا للخوف بالسيطرة علينا أكثر مما ينبغي، وتأمل فيما يجعل بعض الأطفال جديرين بالحب؛ إننا نحبهم لتلقائيتهم وتفتح نفوسهم ومتعتهم بالحياة؛ والحياة قمينة بتدمير هذه الأشياء بسهولة، وهي تدمرها بالتأكيد عندما نحرم الحب؛ إن الأناجيل تطلب إلينا أن نصير كالأطفال الصغار، وهي وصية حكيمة فيما يتعلق بالأمور التي نفكر فيها. وأولئك من بيننا الذين تخطو حدود الشباب قمينون بأن يسمحوا لأنفسهم؛ بأن يصيروا جامدين كثيري الانتقاد وعبوسين محدودي الأفق في اهتماماتهم بصورة لا تميليها ضرورة؛ وإذا سمحنا لأنفسنا بأن نصير كذلك؛ فقد نكتشف بصورة لا تمليها ضرورة؛ وإذا سمحنا لأنفسنا بأن نصير كذلك؛ فقد نكتشف أن الناس لا يرونا جديرين بالحب، وإذا لم نفهم الأمر على وجهه الصحيح؛ قد يدفعنا ذلك إلى التوغل في الاتجاهات نفسها التي تسبب عدم سعادتنا، ونستطيع؛ بدلًا من ذلك؛ أن نبحث عن تنفسات تمنحنا إشباعًا عميقًا، ومن ثم نستعيد تلقائية الأطفال السعيدة مرةً أخرى، وعندئذ سنجد أنفسنا أقل تعرضًا للغيرة، وسندرك أننا لا ندفع الآخرين إلى حبنا بإبقائهم بين جدران السجن.

بيد أننا سندرك أيضًا أن في وسعنا الحصول على الحب؛ فالحب؛ لكي يكفل إشباعًا؛ ينبغي ألا يكون مشوبًا بالخوف من فقد من نحب؛ بل يجب أن يسعد بما تمنحه الآلهة، لا أن يدمر منحتها بخوف الغيرة المهلك.



الفصل الثامن عشر

الجَلَد

إن الخوف الذي بحثناه في الفصل السابق شيء ما كان ليوجد في مجتمع حكيم إلا نادرًا؛ لأن المناسبات التي تثيره تكون قليلةً، ولكن العالم الذي نحن مرغمون على العيش فيه في الوقت الحاضر؛ يزخر بمناسبات المخاوف التي يتطلب منا احتمالها جلدًا كبيرًا ولا أريد في هذا الفصل أن أتحدث عن الطريقة التي نقضي بها على المناسبات الخارجية للخوف، ولكن سأتناول كيف ندرب عقولنا ونجعلها تعرف أننا قد نستطيع؛ حتى عندما توجد مناسبات الخوف، أن نسمو فوقها ونحتفظ في نفس الوقت بالهدوء فيما يتعلق بمصيرنا نحن وبالأمل بما يتعلق بمصير الجنس البشري.

وهناك -للأسف- أسباب أكثر مما ينبغي تدعو للخوف من أن المدنية الغربية؛ إذا لم يكن العالم كله؛ معرضة لفترة من الحزن الشديد والشقاء والألم - فترة قد ننسى خلالها تلك الأشياء؛ التي نحاول الاحتفاظ بها؛ في غمرة من المرارة والفقر والفوضى؛ إذا لم نبذل عنايةً كافيةً حتى لا ننساها، وستكون الشجاعة والأمل والإيمان الذي لا تتزعزع ضروريةً إذا أردنا أن نمر بالأوقات السوداء دون أن تتصدع أرواحنا، ومن ثم فإن مما يفيدنا أن نستجمع أفكارنا ونشحذ آمالنا ونزرع في قلوبنا إيمانًا عميقًا بمثلنا قبل أن يدهمنا الخطر مثلًا.

وليست هذه أول مرة تهدد مثل هذه الكوارث العالم الغربي؛ إن سقوط روما كان

ينطوي على مثل هذا الموقف، وفي ذلك الوقت؛ كما في وقتنا؛ تمثلت في كتابات النابهين من الناس حالات مختلفة من اليأس المرير والإيمان القوي، وكانت الكنيسة المسيحية هي ما انبثقت عنه هذه الفترة وصار نواةً للمدنية الجديدة، وكان كثير من الوثنيين نبلاء في تفكيرهم وآمالهم، ولكن كانت تنقصهم القوة الديناميكية.

وقد كان أفلوطين، مؤسس الأفلاطونية الجديدة **Neo Platonism** أعظم وثني في ذلك الوقت، وكان يأمل في شبابه أن يلعب دورًا ما في الشئون الدنيوية؛ فصحب الإمبراطور في حملته ضد فارس.

بيد أن الجنود الرومانيين قتلوا الإمبراطور وقرروا العودة إلى بيوتهم، وعاد أفلوطين إلى بلده وقرر أن ينفض يده من الشئون العملية، وتقاعد بعد ذاك ليخلو لتأملاته، وألَّف كتبًا زاخرةً بكل جميل يمجد فيه العالم الأبدي وما فيه من تأمل لا يتطلب مجهودًا.

بيد أن مثل هذه الفلسفة مهما كانت جميلةً في ذاتها لم تكفل علاجًا لما كانت الإمبراطورية تعانيه من أمراض.

واعتقادي أن أفلوطين كان محقًّا في حثه الناس على تأمل الأشياء الأبدية، ولكنه كان مخطئًا إذ اعتقد أن ذلك وحده يكفي لتوفير حياة طيبة؛ فالتأمل يجب؛ لكي يكون سليمًا وذا قيمة؛ أن يكون مصحوبًا بالعمل؛ إذ يجب أن يلهم التأملُ العملَ، ويضفي على أهداف السياسة العملية نبلًا، وهو إذا ظل حبيس الجدران لا يخرج عن كونه وسيلةً للهرب.

وكان «بويثيوس (**Boethuis**)»، الذي يمثل آخر تفتح في المدنية الرومانية، شخصيةً أكثر نفعًا لعصرنا؛ فبعد حياة قضاها في الخدمة العامة وفي محاولة تثقيف ملك قوطي؛ غضب عليه وحكم عليه بالموت، وألَّف في السجن كتابه العظيم «عزاء الفلسفة» الذي يسرد فيه؛ بمزيج من الهدوء المهيب والمنطق المعقول اللطيف؛ مناهج التأمل؛ والمتع التي يزخر بها ما في الحياة من جمال ومن آمال الجنس البشري؛ التي لم ينسها حتى في ذلك الموقف، وهو يسرد ذلك كله في وقار ورباطة جأش كما لو كان لا يزال ذلك

الوزير القوي.

وظل كتباه يدرس طوال العصور المظلمة، وقد نقل إلى عهود أكثر سعادة آخر تراث نقي للعالم القديم.

وحكماء عصرنا عليهم واجب مماثل يؤدونه؛ إن من واجبهم نحو الأجيال المقبلة أن يبلوروا لها الأعمال والآمال والمثل التي جعلت عصرنا عظيمًا - أن يدرسوها ببساطة تخلدها على العصور حتى تظل تشع النور كنجوم هادية في الظلام المقبل.

فهناك مفهومان عن الحياة يختلف أحدهما عن الآخر تمام الاختلاف، وهما يتصارعان من أجل السيادة على العالم؛ فنحن في الغرب نرى عظمة الإنسان في الحياة الفردية، والمجتمع العظيم بالنسبة لنا هو ذلك الذي يتكوَّن من أفراد سعداء وأحرار وخلَّاقين في حدود الاستطاعة البشرية، ونحن لا نعتقد أن الأفراد يجب أن يكونوا متشابهين؛ فنحن نتصور المجتمع كجوقة موسيقية يقوم فيها اللاعبون بأدوار مختلفة لكل منهم آلته التي يستعملها ويتم فيها التعاون بواسطة هدف واع مشترك، ونحن نؤمن بأنه ينبغي أن يكون لكل فرد كرامته الخاصة به، وأن يكون له وعيه الخاص به وأهدافه الخاصة، وينبغي أن يكون حرًّا في تنميتها إلا إذا ثبت أنهما يسببان أضرارًا للآخرين، ونحن نعلق أهميةً على الإقلال من الشقاء والفقر والزيادة من المعرفة وإنتاج الأشياء الجميلة والفن. والدولة بالنسبة لنا أداة، وليست إلهًا يُعبد.

أما الحكومة الروسية فلديها مفهوم مختلف عن أهداف الحياة؛ فالفرد يعتبر غير ذي أهمية؛ إنه شيء يُتصرَّف فيه، والمهم هو الدولة؛ التي تُعتبر شيئًا يكاد يكون مقدسًا، وله رفاهيتها الخاصة بها التي لا تتكون من رفاهة المواطنين، ووجهة النظر هذه؛ التي أخذها «ماركس» عن «هيجل»، مضادة بصورة أساسية للأخلاق المسيحية؛ التي يقبلها في الغرب المفكرون الأحرار كما يقبلها المسيحيون؛ فالكرامة الإنسانية في الاتحاد السوفيتي لا تعني شيئًا إذ يعتقد القوم أنه أمر طبيعي لا خطأ فيه أن يتحول الناس عبيدًا يحنون هاماتهم أمام الكائنات شبه المقدسة التي تتمثل فيها عظمة الدولة؛ فعندما

يخون الرجل أقرب أصدقائه ويكون السبب في اختفائه في معسكرات العمل الخفية في سيبيريا؛ عقابًا للحظة من عدم التبصر؛ وعندما يتسبب طفل في الحكم على والديه بالموت؛ نتيجةً لما يغرسه في نفسه مُدرِّسه، وعندما يحاكم رجل ذو شجاعة غير عادية بعد صراع ضد الشرور، ويدان معترفًا في مذلة بأنه خاطئ إذ اعترض على قوة الطغيان المقدس للسلطات؛ فلا الخيانة ولا الاعتراف يجلبان أي إحساس بالعار على الفاعل؛ ألم يكن يعمل في خدمة معبوده؟

وهذا المفهوم هو ما لا بد لنا من محاربته؛ فهو مفهوم إذا ساد سيجرد الحياة؛ في نظري ونظر أولئك الذين يقدرون ما يمثله العالم الغربي؛ من كل ما يُضفي عليها قيمةً، ولا يترك إلا مجموعةً مدربةً من الحيوانات الذليلة، ولا أستطيع أن أتصور قضيةً يدافع عنها المرء أعمق ولا أعظم من هذه القضية.

بيد أننا إذا أردنا أن ننتصر -لا في ميدان القتال فقط، ولكن في قلوب الناس وفي الأنظمة التي يؤيدونها أيضًا- لا بد أن تكون عندنا فكرة واضحة فيما يتعلق بالأشياء التي نقدرها؛ ويجب علينا أن نحصن شجاعتنا؛ كما فعل «بوثيوس»، ضد ما يتهددنا من كوارث.

وبينما تبخس روسيا الفرد؛ هناك في الغرب من يغالون في انفصال الفرد؛ فهم يرون أنه ينبغي ألا تحد «ذات» أي إنسان بجدران من الجرانيت؛ إن حدودها يجب أن تكون شفافةً تنفذ أشعة الضوء خلالها، وأول خطوة تمليها الحكمة؛ كما تمليها الأخلاق أيضًا هي فتح نوافذ «الذات» بقدر المستطاع، ولا يجد كثير من الناس صعوبةً في ضم أولادهم داخل نطاق رغباتهم، وهم يضمون أصدقاءهم بدرجة أقل من ذلك قليلًا، وكذلك بلادهم في لحظات الخطر، وكثير منهم يحسبون أن ما يصيب بلادهم يصيبهم؛ فقد عرفت في سنة ١٩٤٠، فرنسيين يعيشون في رخاء في أمريكا تألموا لهزيمة بلادهم كما لو فقدوا ساقًا.

بيد أنه ليس بكاف أن نوسع نطاق عاطفتنا لتضم بلادنا وحدها؛ فإذا أُريد للعالم

أن يتمتع بالسلام في يوم من الأيام؛ فسيكون من الضروري أن نتعلم أن نضم الجنس البشري داخل نطاق ذلك النوع من العاطفة التي نحس بها نحو مواطنينا، وإذا أردنا أن نحتفظ بالهدوء والاتزان في الشدائد فسيساعدنا كثيرًا أن يضم نطاق تفكيرنا العصور الماضية والمستقبلية.

فليس هناك ما يُضفي على مفهومنا عن القيم نقاءً مثل تأمل نشأة الإنسان بالتدريج من بداياته العسيرة المغمورة إلى عظمته الحالية؛ إن الإنسان كان كما ذكرت في فصل سابق، نوعًا نادرًا تطارده المخاطر عندما ظهر في أول الأمر، ولم يكن سريعًا مثل الغزال أو خفيف الحركة مثل القرود؛ لا يحميه فراء دافئ ضد الأمطار والبرد، يحيا حياةً حافلةً بالمخاطر على ما يستطيع أن يجمعه من غذاء؛ بلا سلاح، ولا حيوانات أليفة، ولا زراعة.

وقد منحته الميزة الوحيدة لديه -الذكاء- الأمن في النهاية؛ فتعلم استعمال النار والأقواس والسهام واللغة والحيوانات الأليفة، وأخيرًا الزراعة، وتعلم أن يتعاون في المجتمعات، وأن يبني القصور والأهرامات، وأن يستكشف الدنيا في جميع الاتجاهات، وأخيرًا؛ أن يقوى على المرض والفقر؛ فدرس النجوم واخترع الهندسة، وتعلم أن يستخدم الآلات بدلًا من العضلات في الأعمال الضرورية، وما زالت بعض أهم ألوان التقدم هذه مقصورةً على الأمم الغربية.

وقد كنا نحن أهل الغرب؛ متواضعين أكثر مما ينبغي واتخذنا موقفًا دفاعيًّا أكثر مما ينبغي عندما واجهنا نقد الشيوعية العدائي؛ إن عملية التطور قد اقتضت طوال العصور؛ كما أشرنا من قبل؛ معاناةً قاسيةً وصراعًا لا نهاية له من أجل مجرد الحد لأدنى للكفاف، وفي النهاية؛ الموت جوعًا في أغلب الحالات، وهذا هو القانون في مملكة الحيوان، وقد ظل حتى القرن الحالي هو القانون بين الكائنات الآدمية أيضًا، والآن -أخيرًا- اكتشفت بعض الأمم كيف تمنع الفقر المهين، وكيف تمنع الألم والحزن وضياع مواليد لا فائدة فيهم حُكم عليهم بالموت قبل الأوان، وكيف تضع الذكاء والعناية محل قسوة الطبيعة الهوجاء.

والأمم التي اكتشفت ذلك يُعتبر مستقبل الجنس البشري وديعةً في يدها، ويجب أن تكون لديها شجاعة طريقتها الجديدة في الحياة، ولا تسمح لأنفسها بأن تخدعها شعارات أنصاف المتمدينين أو تضلها؛ إن لنا الحق في الآمال التي تقوم على أساس عقلي، والتي يمكن أن نصنفها ونعرضها على أسس إحصائية، وإذا سمحنا لأنفسنا بفقدان هذه الآمال من أجل أحلام لا عقلية؛ فسنكون قد خنا الجنس البشري.

وإذا كانت هناك أوقات عسر في انتظارنا؛ فينبغي أن نتذكر أثناءها ذلك الطريق الشاق الذي قطعه الإنسان في بطء، وما اعترض سبيله في الماضي من دمار وتأخر، ولكنه كان دائمًا يعاود سيره قدمًا نحو التقدم؛ إن «سبينوزا» الذي كان واحدًا من أكثر الناس حكمةً والذي عاش دائمًا طبقًا لحكمته الخاصة لا يحيد عنها، نصح الناس بأن ينظروا إلى أحداث الماضي «على ضوء الأبدية»، وأولئك الذي يستطيعون أن يتعلموا العمل بهذه النصيحة سيجدون الحاضر المؤلم محتملًا أكثر بكثير مما يكون من دون ذلك؛ إذ يكون في وسعهم أن يروا أن الحاضر لحظة عابرة - نشاز ينبغي إزالته أو نفق ينبغي عبوره؛ إن الطفل الصغير عندما يؤذي نفسه يبكي كما لو كانت الدنيا خلت من كل شيء سوى الحزن؛ لأن عقله قصر نفسه على الحاضر، والرجل الذي أخذ الحكمة عن «سبينوزا» يستطيع أن يرى عمر الإنسان كله -حتى إذا قضاه في حزن- مجرد لحظة عابرة في حياة البشرية، وحياة الجنس البشري نفسها؛ من بدايتها الغامضة إلى نهايتها غير المعروفة؛ ليست سوى لمحة خاطفة في حياة الكون.

إننا لا نعرف ما يحدث في مختلف أنحاء الكون. بيد أنه من غير المحتمل أن الكون لا يضم ما هو خير منا- ومع زيادة الحكمة عندنا يتسع نطاق فكرنا مكانًا وزمانًا؛ فالطفل يعيش ابن لحظته، والولد يعيش في يومه؛ والرجل بغريزته يعيش في سنته؛ بينما يعيش الشخص الذي تشبع بفكرة التاريخ في الحقبة، ولكن «سبينوزا» يريدنا أن نعيش في الأبدية، لا في لحظة أو يوم أو سنة حقبة، وأولئك الذين يتعلمون أن يفعلوا ذلك سيجدون أنه قد بدد ما تتسم به المدلهمات من ذعر ويمنع الاتجاه نحو الجنون الذي

يصحب الكوارث التي لا قِبَل للإنسان بها؛ إن «سبينوزا» قضى آخر يوم في حياته يقص قصصًا مرحة لمضيفه، وكان قد كتب قبل ذلك: «إن آخر ما يفكر فيه الرجل الحر هو الموت، وتنصب حكمته على تأمل الحياة لا الموت»، وقد عمل بهذه الوصية حينما وافاه الأجل.

ولا أعني أن الرجل الذي تحرر من وطأة عدم الحكمة يصبح بلا عواطف - إنه؛ على النقيض من ذلك؛ سيحس بالصداقة والأريحية والحنان بدرجة أسمى من الرجل الذي لم يحرر نفسه من مخاوفه الخاصة، إذ لن تقف «أناه» حاجزًا بينه وبين بقية الجنس البشري، وسيحس؛ كما أحس «بوذا»؛ بأن سعادته لا تكمل إذا كان هناك إنسان شقي، وسيحس بالألم -ألم أوسع نطاقًا وأكثر انتشارًا من ألم الأناني-، ولكنه لن يجد الألم غير محتمل، ولن يدفعه هذا الألم إلى ابتكار قصص خيالية مريحة تؤكد له أن آلام الآخرين ليست سوى وهم، ولن يفقد اتزانه وسيطرته على نفسه، وسيقول كما قال «شيطان ملتون»:

إن العقل في معقله يستطيع وحده،

أن يجعل من الجحيم نعيمًا ومن النعيم جحيمًا.

وسيتذكر فوق كل شيء أن كل جيل مسئول قبل الأجيال المقبلة عن الكنز الفكري والمعنوي الذي جمعه الإنسان طوال العصور؛ إن «الملك لير» وهو في طريقه للجنون يقابل «ادجار» الذي يتظاهر بأنه مجنون ولا يلبس سوى ملاءة بيضاء؛ فيقول «الملك لير» واعظًا: «إن الإنسان عندما يُجرد مما يكسوه، يصبح مجرد حيوان أشعث مسكين عار مثلك الآن».

بيد أن هذا ليس سوى نصف الحقيقة، أما النصف الآخر فنسمعه على لسان «هاملت».

أي مخلوق هذا الإنسان! كم هو نبيل في عقله! وكم هو لا نهائي في قدرته! وكم هو معبر وجميل في صورته وحركته! وكم هو شبيه بالملائكة في عمله، وبالآلهة في

بعد نظره!

إن الإنسان السوفيتي، الذي يعفر وجهه في التراب خائنًا أصدقاءه وعائلته، ويسلمهم إلى العذاب المميت البطيء، لا يمكن أن يكون جديرًا بكلمات «هاملت».

بيد أنه من الممكن أن يكون الإنسان جديرًا بها؛ فهو أمر ممكن لأي واحد منا؛ فكل واحد منا يستطيع أن يوسع عقله ويطلق لخياله العنان وينشر عطفه وكرمه على نطاق واسع، وأولئك الذين يفعلون ذلك هم من يبجلهم الجنس البشري في النهاية؛ فالشرق يبجل «بوذا»، والغرب يبجل «المسيح»، وكلاهما علم الحب باعتباره سر الحكمة؛ وقد كانت حياة المسيح على الأرض تعاصر حياة الإمبراطور «تيبيريوس» الذي قضى حياته في القسوة وفي فجور تشمئز منه النفوس. وكان «تيبيريوس» يتمتع بمظاهر السلطان وبالقوة؛ ففي عصره كانت الملايين ترتجف لإيماءة منه. بيد أن العالم نسيه، ولم يعد يذكره سوى المؤرخين.

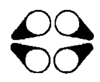
إن أولئك الذين يعيشون في نبل؛ حتى إن قضوا حياتهم مغمورين؛ لا حاجة بهم للخوف من أن تكون حياتهم هباءً؛ فهناك شيء يشع من حياتهم؛ ضوء ينير السبيل لأصدقائهم وجيرانهم؛ ربما على مدى أجيال طويلة في المستقبل؛ إني أرى كثيرًا من الناس اليوم يخيم فوق رؤوسهم إحساس بالعجز؛ شعور بأن الفرد إذا كانت ممتلئًا بالحب نحو الجنس البشري واتساع الأفق والشجاعة وقوة التحمل يستطيع أن يفعل الشيء الكثير.

إن حياة الجنس البشري ليست سوى لحظة بالنسبة للعصور الجيولوجية، وحياة فنون المدنية منذ اختراعها ليست سوى طرفة عين، ورغم ما ينذرنا به بعض المنذرين؛ ليس من المحتمل أن يقضي النوع الإنساني على نفسه تمامًا، ولنا أن نكون متأكدين تمامًا أنه ما بقي الإنسان فإنه سيخرج ربما أقوى مما كان، وقد تجدد نشاطه بواسطة فترة من النوم الذهني؛ مهما قاسى لفترة ما ومهما احتجب الضوء؛ إن الكون كبير والناس ليسوا سوى ذرة ضئيلة على كوكب تافه، ولكننا كلما زدنا إدراكًا لضآلتنا وعجزنا قبل

القوى الكونية؛ زاد عجبنا لما حققته الكائنات البشرية.

إن ولاءنا في النهاية هو لما يمكن أن يحققه الإنسان؛ وعلى ضوء هذه الفكرة تصبح المشاكل القصيرة في عصرنا القلق محتملةً، ولا يزال أمامنا قدر كبير من الحكمة نتعلمه، ولن نتعلمه إلا عن طريق الشدائد؛ فعلينا أن نتحمل المصائب بكل ما لدينا من جلد.

بيد أننا إذا استطعنا الحصول على الحكمة بسرعة كافية؛ لن تكون الشدائد ضرورية، ويكون مستقبل الإنسان أسعد من أي فترة في ماضيهِ.



الفصل التاسع عشر

حياة بلا خوف

إن الموضوع الذي كرست له اهتمامي أكثر من أي شيء آخر قلته في هذا الكتاب؛ هو أن الإنسان أخفق في الاستفادة من الأساليب الفنية الحديثة التي كانت تستطيع -لو أنه استعملها بحكمة- أن تجعله سعيدًا؛ وذلك بسبب مخاوف كان لها في وقت من الأوقات أساس عقلي؛ فالخوف يجعل الإنسان غير حكيم في الأنواع الثلاثة الكبرى من السلوك البشري؛ سلوكه تجاه الطبيعة، وسلوكه تجاه الآخرين، وسلوكه تجاه نفسه. وأريد في هذا الفصل أن أتحدث عن أوجه التحسين التي يحظى به العالم إذا تخلصنا من طغيان المخاوف العتيقة.

من الضروري أولًا أن نفرق بين الخوف بوصفة عاطفةً والتوجس العقلي من الخطر باعتباره جزءًا من المعرفة؛ فإنه يكون من السخف ألا ندرك الخطر عندما يكون هناك خطر؛ ولكن من النادر جدًّا أن يكون الخوف علاجًا للخطر أفضل من مواجهته بالتوجس العقلي؛ إن الخوف هو رد فعل نشترك فيه مع الحيوانات؛ فهو فج ويتسم بالاندفاع الفجائي؛ وهو يفيد أحيانًا في المحافظة على النفس، ولكنه في أحيان أخرى يودي إلى نتيجة عكسية؛ فالشخص الذي لا يسيطر عليه الخوف يكون أقدر بكثير على التفكير في نوع التصرفات التي تقلل الخطر، وكثيرًا ما يمنع الخوف الناس من الاعتراف بوجود الخطر الذي يخشونه في الواقع، ومن ثم يجعلهم لا يتخذون الاحتياطات التي تمليها

الحكمة، ويأخذ ذلك صورًا غريبةً جدًّا في بعض الأحيان؛ كما يحدث مثلًا عندما يمنع الخوف من الموت شخصًا من كتابة وصيته، ومن الأهمية بمكان أن نجلو هذه النقطة حيث إننا إذا لم نفعل ذلك قد يظن الناس أن حديثنا ضد الخوف هو حديث ضد النظر السليم إلى الأخطار الحقيقية.

تتطلب الأنواع المختلفة من الخطر أنواعًا مختلفةً من العلاج؛ فهناك حدود تخضع لها الكائنات البشرية بسبب الحقائق المادية في الطبيعة، وهذه الحدود، إلى حد ما؛ مما لا يمكن تجنبه، ومن ثم يجب قبولها إلى هذا الحد، ومن ناحية أخرى؛ إن تلك العقبات الناجمة عن علاقاتنا بالآخرين وبأنفسنا والتي تعترض سبيل رفاهتنا؛ ليست ضرورية إلى حد كبير؛ فليس هناك ما لا يمكن تجنبه في الشقاء الذي يسببه الناس بعضهم لبعض عن طريق الكراهية وسوء النيات، ولا في الشقاء الذي يسببونه لأنفسهم عن طريق الإحساس بالذنب، ولهذا السبب كانت أساليب علاج الأنواع المختلفة من الشرور مختلفةً تمام الاختلاف.

والحدود التي تفرضها الطبيعة تنصب على الغذاء والمواد الأولية وعلى تلك الحقيقة الفسيولوجية، وهي الموت، وليست هذه الحدود مطلقةً؛ فبواسطة قدر أكبر من العمل نستطيع إنتاج قدر أكبر من الغذاء، وباستعمال الأساليب الفنية بطريقة أفضل نستطيع الاقتصاد في المواد الأولية؛ أو نستغل موادًا أخرى كانت تعتبر عديمة الفائدة، ويمكن تأجيل الموت بالدواء والعيشة الحكيمة، ولكن على الرغم من أننا لا نستطيع أن نعين حدودًا دقيقةً عند نقطة معينة في هذه المجالات الثلاثة؛ فإن هناك حدودًا؛ فليس هناك أي قدر من الطب يجعل الإنسان خالدًا، وليس هناك أي قدر من العلم يستطيع توفير الغذاء إذا زاد عدد السكَّان بحيث لا يبقى موضع لقدم؛ وينبغي النظر في تلك الحدود التي تفرضها الطبيعة على أساس علمي؛ حتى يمكن مواجهتها بالطريقة التي تكفل أقل قدر ممكن من الشقاء؛ ففيما يتعلق بالغذاء يوجد الحل؛ كما أشرت آنفًا؛ في ضبط النسل؛ وفيما يتعلق بالمواد الأولية يكمن الحل جزئيًّا في استعمال أساليب فنية بطريقة

علمية أكثر؛ وجزئيًا في السيطرة الدولية التي تحول دون ضياع قسم منها هباءً وتكفل توزيعًا عادلًا لها، وتأجيل الموت موضوع يتعلق بالطب، ولكن الخضوع طواعيةً لما يميله الطب أمر سيكولوجي، وهو ما سأعود إليه فيما بعد.

وفي الماضي كانت الحدود التي تفرضها الطبيعة تُعالج بالخرافات؛ فقد كان هناك آلهة أو شياطين أو سحرة لديهم القدرة على إثارة الأرواح الشريرة، وإذا لم يعمل الإنسان على تهدئتها؛ تجلب طقسًا سيئًا.

وإلى يومنا هذا يعتقد الأساقفة أن الجفاف أو السيول يجب أن تُكافح بالصلاة، وكثيرًا جدًّا ما تؤدي الأساليب التي تُمليها الخرافات إلى زيادة الشر الذي يحاول الناس التخلص منه؛ ففي العصور الوسطى كان الناس يشجعون على التجمع في الكنائس للصلاة عندما يكون هناك وباء؛ وهذا كان يهيئ بطبيعة الحال وسيلةً مثلي لانتشار العدوى، وليس هناك من سبيل للقضاء على مثل هذه الشرور، في حدود استطاعتنا القضاء عليها؛ سوى العلم. ويتسم الاتجاه العلمي بميزتين؛ فهو يجعل الناس مستعدين للاعتراف بوجود الشر ويدفعهم إلى استعمال ذكائهم بحثًا عن وسائل التغلب عليه. وما زال هناك شرور كثيرة في العالم لعل أشدها خطرًا هو زيادة السكَّان أكثر مما ينبغي، وهو خطر يقف حياله قسم كبير حتى من أكثر الأمم مدنيةً موقفًا غير علمي بالمرة.

أما الخوف من الكائنات الآدمية الأخرى في العالم كما عرفناه، فكثيرًا ما يكون له ما يبرره؛ بمعنى أن هناك أشخاصًا سيعملون على إلحاق الأذى بنا إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولكن حتى عندما يكون الأمر كذلك فإن الخوف ليس؛ كقاعدة عامة؛ هو السبيل إلى منع أولئك الذين يضمرون لنا الشر من الإضرار بنا، وإذا كنت قد اقتنيت يومًا ما كلبًا يميل إلى مطاردة الخراف؛ فلا بد أنك لاحظت أنه قد يظل هادئًا طالما وقفت الخراف ساكنةً، ولكنه لا يستطيع مقاومة الإغراء بمجرد أن تبدأ الخراف في الجري، ومن هذه الناحية يشبه الكثيرون منا الكلب كما يشبه الكثيرون الخراف، وقد رأيت مرةً لقاءً سيكولوجيًا بين كلب ضخم وقطة صغيرة لم يتجاوز عمرها ثلاثة أسابيع، وقد وقفت

القطيطة صامدةً تزمجر وتموء، ولست أدري ما الذي دار بخلد الكلب الضخم، ولكنه تصرف كما لو كان يعتقد أن القطيطة تحميها قوة فوق الطبيعة؛ إذ إنه بعد أن ظل يحدق فيها برهةً، وضع ذيله بين ساقيه وانسحب، ولو كان لديك ما لدى هذه القطيطة من شجاعة لوجدت أنها تستطيع حمايتك ضد قدر كبير من الاعتداء كان يمكن أن تُعاني منه.

بيد أن هذا النوع كله من السلوك مما تقدر عليه الحيوانات؛ وما يهمني أكثر هو نوع السلوك الذي لا يستطيعه سوى الكائنات البشرية؛ إن جزءًا كبيرًا من الروح الاعتدائية في العالم وليد الخوف؛ فنحن ننبح في وجه جارنا خشية أن يعتدي علينا وهو ينبح في وجهنا لنفس السبب؛ وكثيرًا ما يحدث أن تستطيع أن تتغلب على الروح الاعتدائية بإظهارك الود؛ وهذا هو عنصر الحقيقة في مذهب المقاومة السلبية، وهو مذهب لا أستطيع الموافقة عليه في صورته النظرية المطلقة، ولكنه ينطوي بالتأكيد على قدر من الحكمة العملية أكثر مما قد يظن معظم الناس، واعتقادي أن كل شخص لا يبدي نزعات اعتدائيةً إنما يؤدي إلى الإقلال من هذه النزعات لدى الآخرين، وحتى مجرد اتباع قواعد للسلوك الخارجي المهذب يترك أثرًا طيبًا في هذا المجال، ولكن عندما يكون عدم الاعتداء متأصل الجذور في الشخص، فإنه يترك أثرًا أعمق بكثير مما يكون منبثقًا من مجرد قاعدة اجتماعية.

وعندما يكون للخطر ما يبرره بمعنى أنه خطر حقيقي؛ هناك أمراه مختلفان يتطلب الأمر القيام بهما، أحدهما: أنه نبت في الناس ذلك النوع من الجلد الذي يجعل في وسعهم أن يواجهوا الشدائد بهدوء، والآخر: العمل على تعديل النظام الاجتماعي بحيث ينتهي الأمر باختفاء الخطر. وهذا ينطبق؛ مثلًا؛ على الخوف من الحاجة المنتشر على نطاق واسع جدًّا في البلاد التي تأخذ بنظام المنافسة وتتأصل فيها جذوره بعمق شديد، وهناك عدد كبير من الناس تتسم تصرفاتهم بخلوها من الإدراك السليم فيما يتعلق بالنقود، وإن كانوا يتصرفون تصرفًا معقولًا في غير ذلك؛ فهناك مثلًا أشخاص لا يستطيعون أن يتحملوا الافتراق عن قروشهم ويؤثرون التعرض لنظرات الشذر

من أولئك الذين ينتظرون منهم «بقشيشًا»؛ رغم أنهم قد يكونون على استعداد لكتابة «شيكات» بمبالغ ضخمة؛ إن «كلايها نجر»؛ أحد شخصيات «أرنولد بنت»؛ يحس بشبح الفاقة محومًا فوقه باستمرار طوال حياة قضاها ناجحًا تمامًا في الأعمال، يقتضي منع مثل هذه المخاوف القيام بثلاثة أنواع مختلفة من الأشياء؛ فهناك أولًا الأسلوب الرواقي البحت من إقناع الشخص بأنه يجب أن يواجه الشدائد بهدوء؛ وألا يترك نفسه فريسة للاهتمام أكثر مما ينبغي عندما تقع الكوارث. وأعظم مثل على هذا الأسلوب هو «شيطان ميلتون»، وهناك بعد ذلك الأسلوب الذي ينطوي على إقناعه بأنه ليس من المحتمل أن يقع في براثن الحاجة، وفي الحالات الخفيفة يمكن تحقيق ذلك بواسطة حجج اقتصادية، ولكن في الحالات القصوى يتطلب الأمر عرضه على طبيب نفساني، وأخيرًا هناك الأسلوب السياسي من تناول مشكلة الحاجة كلها والقضاء عليها بوصفها أحد الشرور التي تصيب سيئي الحظ من الناس، ويجب اتباع هذه الأساليب الثلاثة كلها في مثل هذه الحالات؛ فالأسلوب الرواقي عظيم عندما لا يكون هناك أسلوب أفضل منه، ولكن على الرغم من أن المرء قد يواجه الخطوات بشجاعة؛ فإنه من الأفضل ألا تكون هناك ضرورة لأن يواجهها.

ومن الواضح أن الخوف عندما يكون موجودًا بدرجة شديدة هو نتاج مجتمع ليست الشدائد الحقيقية نادرةً فيه، ومن ثم فإن الأساليب التي تعالج حالة الفرد لا يمكن؛ مهما كانت مفيدةً؛ أن تكون بديلةً للأساليب التي تستأصل الشر جميعه بالوسائل السياسية. ومن الأهمية بمكان أن ندرك ذلك؛ لأن هناك من يولعون بالشجاعة إعجابًا إلى حد أنهم يبتهجون للفرص التي تتيح ممارستها، وهذا أمر سخيف؛ فأنت قد تُعجب برجل يتحمل مرضًا مؤلمًا طويلًا دون شكوى، ولكن واضح أنه من الأفضل أن يكون على صحة جيدة، وقد تُعجب بالجندي الذي يموت بنبل في ساحة القتال، ولكن من الأفضل جدًّا ألا يموت. ولا شك أن الرواقيين جديرون باللوم في هذا المجال؛ حيث

إنهم أشادوا بقوة التحمل إلى درجة تكاد تجعل القسوة أمرًا طيبًا؛ إذ إن القسوة وسيلة ضرورية لتحقيق ما يعتبرونه الخير الأسمى، وقد كان من المألوف الإشادة بقوة التحمل الصابر لدى الفقراء. بيد أن هذا كان قبل أن يحصلوا على حق الانتخاب.

والمعاملات الاجتماعية في الحياة الخاصة زاخرة بالخوف، وبخاصة في بريطانيا؛ فالناس تبذل جهدًا حتى لا تعرض نفسها للصد بسهولة؛ فيخيفون عواطفهم بقدر ما في استطاعتهم، ويتصرفون نحوك بنفس الطريقة تمامًا إذا مالوا إليك أو لم يميلوا إليك؛ هذا إذا لم يكن هناك دافع من مصلحة ذاتية يجعلهم يعاملونك بود، وفيهم جفاء وخجل وجمود، ويلبسون درعًا قُصِد بها إخفاء الطفل المذعور الذي بداخلهم، والنتيجة أن الاتصال الاجتماعي يصبح مملًّا وأن الصداقات لا تنطوي على قدر كبير من الحياة، وأن الحب ليس سوى شبح باهت لما كان يمكن أن يكون؛ إن الناس تردد محبذةً قول «براوننج»:

شكرًا لله الذي جعل لأحقر مخلوقاته،

أن يفخر بأن لروحه جانبين أحدهما يواجه به الدنيا،

والآخر يمنحه للمرأة عندما يحبها.

أنا لست محللًا نفسيًّا، ولكني لو كنت لوجدت شيئًا أقوله في شكر «براوننج» في هذه النقطة؛ إن الجانب الذي يواجه به العالم هو الذي يعتقد أنه يستطيع استغلاله دون خوف من أن يلحقه أذى؛ الجانب الذي لا يجعله عرضةً للسخرية، ولا يكون وسيلةً إلى معرفة قد تستخدم في إيلامه؛ والجانب الآخر «جانب الروح» وهو الذي يمنحه للمرأة عندما يحبها؛ يحتوي على كل الغرور والخيلاء والزهو التي لا يجرؤ على إظهارها أمام أعضاء ناديه؛ وهو نتاج الخوف مثل الجانب الآخر وبالدرجة نفسها تقريبًا؛ لأن الآخر يمنعه من السماح بدخول الهواء النقي في أغوار «أناه»، ولا يؤذن لأي شخص بدخول هذه الأغوار إلا على أساس علاقة من التملق المتبادل؛ فالعالم

الخارجي كئيب، والعالم الداخلي جاف، وليس هذا ما يجب أن تكون عليه العلاقات البشرية؛ فهي يجب أن تكون منطلقةً وتلقائيةً، ويجب ألا تكون خيلاء المرء بحيث تعرضه للإثارة لأقل الأسباب، وأن يكون الحسد أقل انتشارًا؛ فالتحفظ لا يؤدي إلى نمو خداع الذات خفيةً بسهولة فحسب؛ بل إنه يقلل إلى حد كبير أيضًا من الانطلاق المثمر للطاقة في المنافذ المفيدة؛ بسبب ما يضيع من طاقة في عملية سلبية بحتة هي الحيلولة دون التعبير عن الذات، وله ضرر آخر هو أن الناس يهتمون اهتمامًا خاصًّا بإخفاء نزعات الصداقة؛ حيث إن هذه النزعات بصفة خاصة إذا عرفت تجعلهم يشعرون بأنهم عرضة للإيذاء؛ إن نتيجة هذا الإرهاب الاجتماعي هي ساعات طوال يقضيها المرء في مشقة وسنوات من التحجر.

ولست أتخيل العالم دون خوف عالمًا تسوده الفوضى؛ بل ستكون هناك حرية في اتجاهات تعد الحرية فيها محدودة جدًّا في الوقت الحاضر، ولكن الاتجاهات الأخرى التي توجد فيها حرية الآن سيحل محلها القانون؛ فستكون هناك قوانين تنظم توفير الطعام وتوزيع المواد الأولية، وفوق كل شيء؛ ستكون هناك قوانين لمنع الحرب؛ وأعتقد أيضًا أنه من المستحيل أن يكون هناك عالم فيه قدر من الحرية ولا تسوده فوضى شديدة إلا إذا تعلم الأطفال أشياء معينةً في مراحل تربيتهم؛ ففيما يتصل بعلاقة الإنسان بالطبيعة المادية سيكون هناك نظام علمي مشدد؛ أي تتكون عادة محاولة التأكد من الوقائع والاعتراف بها متى تأكدت صحتها، والعالم اليوم مليء بالعاطفيين الذين يرفضون الاعتراف بالوقائع على أنها وقائع إذا كانت نتائجها مما لا تسرهم. إن هذه العادة العقلية قمينة بأن تؤدي إلى أضرار بليغة؛ لأن الوقائع التي لا تسر ستكون نتائجها مما لا يسر أكثر إذا رفضنا إدراكها. والتربية يجب أن تكون الوسيلة إلى خلق التدريب العقلي الذي يؤدي إلى الاستعداد للاعتراف بالوقائع؛ إذ إن عدم الاعتراف بقوة الطبيعة؛ في حدود وجود هذه القوة؛ مجرد [illegible]، وأي محاولة لفرض الذات في هذا المجال جنون.

[illegible] قوة الطبيعة هذه هناك عادات بذاتها مفيدة جدًّا في البقاء، وهي عادات لا

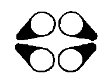
يحتمل تكوينها لدى الإنسان بطريق آخر سوى التربية؛ فأنا لا أعتقد أن أي طفل ينشأ دون تدريب سيستعمل فرشاة الأسنان؛ بل والواقع أنه لا يحتمل أن الطفل سيكون نظيفًا في عادته بدرجة تكفي لجعله خلوا من الحشرات؛ فالمحافظة على الصحة تتطلب نظامًا فيما يتعلق بالجسد، يغلب أن الطفل لن يكتسبه في سني حياته المتأخرة بمجرد النصح على أساس من مصلحته الذاتية، ومن ثم فاعتقادي أن التربية يجب أن تنطوي على قدر معين من التنظيم المفروض؛ لا لأسباب متعلقة بالصحة فحسب؛ بل أيضًا لتكوين تلك العادات من السلوك الاجتماعي التي تجعل العراك المستمر غير ضروري؛ فنحن لا نخطف الطعام من جارنا على مائدة الطعام، لكن السبب في أننا لا نفعل ذلك هو أننا تعلمنا في سن مبكرة جدًّا ألا نفعله، قد أصبحت العادة متأصلة الجذور فينا قبل أن نكبر بوقت طويل بحيث إننا لم نعد نشعر بها. والانتظام في الوجبات من الأهمية بمكان؛ رغم أنه خلة متعبة؛ لأنه يقلل إلى أقصى حد مقدار الخدمة المطلوبة. ولمثل هذه الأسباب أرى أن تكوين العادات لا بد أن يكون جزءًا مهمًّا من التربية الأولى.

ولعل بعض التربويين المحدثين قد غالوا فيما يتعلق بالحرية في التربية بعض الشيء في هذا المجال.

بيد أن هناك على أي الأحوال نوعًا من الحرية يجب على التربية أن تحافظ عليه، وهي لا تفعل ذلك إلا فيما ندر، وأقصد بذلك الحرية العاطفية، وهناك أسباب مختلفة تبرر الحرية العاطفية: فمن ناحية إذا زاد التحكم في العواطف فإنه يخمدها ويؤدي إلى فقدان الحيوية؛ ومن ناحية أخرى تتحول العواطف التي لا يُسمح لها بمتنفسات إلى ناحية الشر، وتجد متنفسات مضرةً أكثر من تلك التي حرمت عليها. وهناك أيضًا سبب ثالث، هو أنه حينما يكون المجتمع مقيدًا بشدة بالقواعد العرفية يعتبر كثيرًا من العواطف غير مرغوب فيها بينما هي في الواقع غير مؤذية، ومن ثم فإن رأيي هو أنه بينما أن النظام ضروري فيما يتعلق بالوقائع العلمية وببعض العادات المعينة التي من دونها تصير الحياة الاجتماعية صعبةً؛ فإنه يجب ألا تنطوي التربية إلا على أقل قدر ممكن من التنظيم للعواطف. وفوق

كل شيء؛ يجب ألا تكون هناك مطلقًا أي محاولة تؤدي إلى التعبير عن عواطف يحتمل ألا تكون غير صادقة.

إن التربويين في الماضي اتجهوا أكثر مما ينبغي إلى الاعتقاد في الخطيئة الأصلية، وإلى أنه ينبغي تحويل الطفل إلى شيء مختلف تمامًا عما يكونه لو تُرك للطبيعة. وأكثر الأمثلة تطرفًا في هذا المجال هو ما ذكره القديس «أوجستين» عن تعلمه اللاتينية واليونانية؛ فهو يقول إنه تعلم اللاتينية بلا صعوبة في أحضان أمه، وكانت النتيجة؛ بطبيعة الحال؛ أنه أجادها؛ أما الإغريقية فتعلمها على يد معلم قاس مصحوبةً بالضرب والمعاملة الخشنة، وكانت النتيجة؛ كما يقول؛ أنه لم يجدها قط، ومع ذلك فإنه يفضل الأسلوب الذي تعلم به اللغة اليونانية لأن هذا الأسلوب شفاه؛ كما يقول؛ من «المرح الشرير»، وذلك هو عكس ما ينبغي على التربوي أن يحس به على خط مستقيم؛ فينبغي على التربوي أن يفكر في الطفل كما يفكر البستاني في نبتة؛ شيء يعمل على نموه بتوفير التربة الصالحة والقدر الصالح من الماء؛ فإذا لم يتفتح وردك لا يخطر على بالك أن تضربه؛ بل إنك تحاول أن تعثر على ناحية النقص في معاملتك له، وإذا لم يتفتح طفلك؛ فعليك أن تعامله كما تعامل الورد. إن ما يتطلبه الأمر؛ باستثناءاتٍ قليلة؛ إيجابي وليس سلبيًّا؛ فالمهم هو ما يفعله الأطفال؛ لا ما لا يفعلونه. وإذا أُريد أن يكون ما يفعلونه ذا قيمة؛ فإنه يجب أن يكون تعبيرًا تلقائيًّا عن طاقاتهم الحيوية؛ إنك تستطيع إذا أردت ذلك؛ أن تعد الأطفال لحياة عسكرية بأن تعلمهم جميعًا أن يفعلوا نفس الشيء في نفس اللحظة عندما يسمعون كلمة الأمر؛ فإذا فعلت ذلك فإنهم سيكبرون مشوهين وهم يشعرون بالإخفاق وبغضب عميق الجذور ضد العالم – وهذه ولا شك عواطف مفيدة إذا أُريد لهم أن يكونوا جنودًا يُستخدمون في القتل، ولكن لن يكونوا مواطنين سعداء في عالم يعمه السلام.



الفصل العشرون

الإنسان السعيد

أريد أن أصف في هذا الفصل الطريقة التي أتخيل بها حياة الناس العاديين وأمزجتهم في المجتمع الذي نستطيع أن تخلقه لو شئنا؛ ففي العالم كما هو الآن لا يستطيع أن يعيش بالطريقة التي سأصفها إلا أولئك الذين يتمتعون بحظ حسن بصورة غير عادية؛ أما في وقت الحرب فلا يكاد يوجد من يستطيع أن يعيش بهذه الطريقة. بيد أن ما سأقوله لن أفترض فيه شيئًا تدعو الضرورة لأن يكون غير عادي في المستقبل.

فالإنسان السعيد سيكون له في طفولته أبوان يحبانه، وسيكون احتمال أن يتمتع بالعطف من جانب أبويه أكثر مما هو الحال في الوقت الحاضر؛ لأن عطفهما سيكون أقرب وقلقهما أقل، وكذلك لأنهما سيعتبران الأبوة مشاركةً في تنشئة الأطفال وليست سجنًا، وستكون بيئته في طفولته بحيث تجعل ضرورة إصدار النواهي إليه أقل مما هي الآن بكثير؛ فسيُمضي معظم ساعات النهار في غرف واسعة معدة للعب مع الأطفال الآخرين أو في الخلاء عندما يكون الجو ملائمًا، وينبغي ألا يُحاط خلال هذه الساعات بأشياء ثمينة قابلة للكسر يجب عليه ألا يقربها، وينبغي ألا يكون طلاء الجدران من نوع كثير التكلفة يجعل من الضروري ألا تلمسها أصابع الأطفال فتلوثها، وينبغي أن تكون حجرات اللعب بعيدةً عن الناس الآخرين بقدر كاف حتى لا تكون هناك ضرورة لمطالبة الأطفال بألا يحدثوا ضوضاء، ويجب أن يكون كل شيء فيها على مستوى

واحد حتى لا يتطلب الأمر وجود درجات يقع فوقها الأطفال ويؤذون أنفسهم، يجب بطبيعة الحال ألا تُترك مُدَى أو آلات حادة في متناول أيديهم، وفي مثل هذه البيئة ستصبح هذه النواهي؛ التي لا بد منها في أي منزل صغير؛ غير ضرورية، وسيكون من الضروري منع الأطفال من إيذاء بعضهم البعض؛ ولكن يجب أن يتم ذلك، بقدر الإمكان؛ بتوجيه اهتمامهم إلى ألوان تشغلهم من النشاط بدلًا من كبح نزعاتهم العدوانية بواسطة الأوامر المباشرة.

وينبغي أن يكون إطار الحياة في الطفولة رتيبًا لا يتغير إلا في المناسبات الكبيرة؛ مثل العطلات والرحلات؛ فالطفل يحتاج أكثر ما يحتاج إلى شيئين: أحدهما: حرية النمو، والآخر: الإحساس بالأمن، ويأتي الإحساس بالأمن للأطفال من العطف والرقابة؛ فهم لا يحسون بالأمن، إلا إذا عرفوا؛ إلى حد يزيد أو ينقص؛ ماذا يتوقعون، وعلى الرغم من أنه ينبغي ألا يُحاط الأطفال بالمحرمات؛ فإنه يجب ألا يتركوا وشأنهم تمامًا؛ بل ينبغي أن يكون هناك كبار أذكياء هؤلاء الكبار ممن يتمتعون بالقدرة على الاقتراح بطريقة تجعل الأطفال أميل إلى قول: «نعم» منهم إلى قول: «لا»، وأعتقد أن الطفل يستطيع أن يبلغ بهذه الطريقة سن المدرسة دون أن تتكون لديه عقد نفسية أو مخاوف أو ثورات غضب.

إن التربية المدرسية ضرورة من تلك الضرورات المزعجة، وأستطيع أن أتذكر أني أحسست بأسف عميق عندما بلغ أطفالي السن التي يجب أن يتعلموا فيها القراءة والكتابة بعد أن كانوا يمضون طوال نهارهم يلعبون على شاطئ البحر، وكنت أود لو تركتهم ينمون بحرية متمتعين بالبحر والشمس، ولكن المدنية تعتمد على عادات صعبة ومعقدة لا يمكن اكتسابها إلا بواسطة قدر معين من الجلوس الساكن، ولكن رغم أني لا أعتقد أن التربية المدرسية يمكن أن تخلو تمامًا من العبودية المزعجة؛ فإنها يمكن أن تكون أقرب إلى الحرية بكثير مما هي في ظل الأساليب التقليدية؛ إذ يستطيع الأطفال الأذكياء؛ إذا لم يُرغموا قبل الأوان؛ أن يتعلموا القراءة والكتابة بمحض رغبتهم.

أما بالنسبة للأطفال الذين ميولهم الطبيعة يدوية أكثر منها لغوية، فإن التربية التقليدية سلبية أكثر مما ينبغي بكثير.

لقد كان «الرجال المهذبون» في عهد الإغريق لا يفعلون شيئًا بأيديهم لأنهم كانوا يملكون رقيقًا، وكانوا من ناحية أخرى؛ يقضون قدرًا كبيرًا جدًّا من وقتهم في الكلام؛ إذ لم تكن منازلهم زاخرةً بالأجهزة الكهربائية؛ مثل منازلنا، ولا يكاد يكون هناك شيء في مدينتهم لا يهيئ موضوعًا مناسبًا للحديث على مائدة الطعام؛ ومن ذلك العهد اتخذهم حسب الظهور مثالًا يحتذيه المربون؛ فعندما يحصل الشاب على شهادة من جامعة «أكسفورد» يستطيع أن يتحدث وأن يكتب عن أي موضوع كان يهم «سوفوكليس» أو «أفلاطون»، ولكنه لا يعرف كيف يعمل التليفون أو النور الكهربائي، وهو لا يدرك شيئًا عن عملية الاحتراق، ويكاد الأساس المادي الذي تقوم عليه المدنية التي يتمتع بها يكون غير مفهوم لديه بأكمله؛ لأنها لم تكن موجودةً في عهد «بركليس».

وبسبب هذا الطابع الذي تتسم به التربية المدرسية لا يتفوق من الشبان إلا أولئك الذين لديهم ميول لغوية، أما الولد الذي ميوله يدويه؛ فعلى الرغم من أنه قد يكون أكثر قدرةً على القيام بعمل أفيد من مجرد كتابة مقال افتتاحي؛ فإنه يحظى باحترام أقل مما يفوز به معاصره الذي يتمتع بذوق أدبي أكثر منه؛ هذه هي الحالة في أوروبا؛ على الأقل؛ إذ إن الأمر في أمريكا مختلف بعض الشيء؛ إن الغالبية العظمى من الأولاد ميولهم يدويه أكثر منها لغوية، وينبغي أن تتم تربيته في «الورش» أكثر مما تكون على المكاتب، وليس من العسير إقناعهم بأن شيئًا من التربية المدرسية أداة ضرورية لبلوغ الكمال في العمل اليدوي، وكل تربية يمكن أن تكون مصدر بهجة إذا أحس الطفل بأنها ضرورية؛ فالتربية لا تصير عنتًا مرهقًا إلا عندما تبدو للطفل بلا هدف؛ وكثيرًا جدًّا ما يكون الطفل على صواب والمدرس على خطأ في مثل هذه الحالة، ومن ثم فاعتقادي أنه على الرغم من أن بعض العنت أمر لا غنى عنه في تكوين الرجل المثقف؛ فإن ما يتطلبه ذلك من العنت أقل بكثير جدًّا مما يعتقد الناس عادةً؛ خاصةً عندما يتكون لديهم مفهوم أحدث

عما ينبغي تعليمه.

ولا أقول إنه ينبغي إهمال الجانب الثقافي من التربية؛ بل على العكس، أعتقد أنه ضروري في تكوين نوع الرجال الذي يناسب العالم الحديث أكثر من غيره.

بيد أني أرى أنه يجب؛ في المراحل الأولى على الأقل؛ استعمال أساليب جذابة أكثر بكثير من تلك التي تُستعمل الآن في نقل الأشياء المهمة في التربية الثقافية؛ فينبغي تعليم التاريخ والجغرافيا في مبدأ الأمر بواسطة السينما، وعندما يُعلَّمان بهذه الطريقة يكونان مصدر سرور ويكون الانتباه تلقائيًّا وأثرهما أكثر دوامًا؛ إذ على الرغم من قيام عدة حركات للإصلاح في التربية ما زال يسود بين المربين قدر أكبر ما ينبغي من اتجاه القديس «أوجستين» إلى أن التربية يجب أن تشفي الطفل من «المرح الشرير»، وأن الأشياء الممتعة التي لا تتطلب مجهودًا لا يمكن أن تكون لها قيمة تربوية كبيرة، واعتقادي أن هذا نقيض الحقيقة؛ إني لأدعو إلى تعليم الأطفال التاريخ الإنساني منذ «الرجل القرد» حتى «البيت الأبيض» بواسطة السينما، وإلى تعريفهم؛ بنفس الطريقة؛ بأحوال وعادات القبائل والأمم البعيدة عن عاداتهم وأحوالهم كل البعد. وأجعلهم لا يشعرون؛ عندما يقابلون رجلًا من قبائل «الزولو»؛ أنه شيء غريب وبعيد؛ بل يقولون لأنفسهم: «آه، أنا أعرفه، لقد رأيت شريطًا سينمائيًّا عنه». إن التربية بهذه الطريقة تعمل أكثر من عدة كتب على القضاء على «الإقليمية» في الزمان والمكان، وتجعل الأطفال يدركون أن هناك آدميين يتكونون من المادة الآدمية نفسها، ويستطيع الأطفال الذين لديهم ميل إلى التاريخ أن يستمروا بعد ذلك في قراءة الكتب في موضوعهم؛ بينما أولئك الذين لا يتمتعون بهذا الميل الدراسي يكونون قد استفادوا فعلًا بما شاهدوه على الشاشة.

وتنطبق مبادئ مماثلة لهذه على الجانب الذي يتعلق بالفن في التربية. فيجب تهيئة الفرص في الأدب والموسيقى والتصوير لأولئك الذين يميلون إليها، ولكن يجب ألا تفرض قسرًا على أي شخص؛ فالغرض منها أن تكون مصدر سرور. ومن المناظر

المزعجة أن نراها وهي تتحول إلى أداة تعذيب على يد التربويين الذين يعتبرون شدة النظام هي لب التربية، فيرغمون الأطفال على أن يحفظوا قطعًا من «شكسبير» عن ظهر قلب، وتكون النتيجة أن يرتبط «شكسبير» في مخيلتهم إلى الأبد بالحذلقة المملة، ولو أنهم قابلوه مخلوقًا من لحم ودم يزخر بالبهجة والمرح كما هو لأدهشهم ذلك، وقد يدفعهم مرحه إلى رؤية ما كتبه لو لم يكونوا قد سمعوا به من قبل، ولكن إذا كانوا قد حقنوا ضده في المدرسة؛ فإنهم لن يستطيعوا أن يتمتعوا به أبدًا. وينطبق الشيء نفسه على دروس الموسيقى؛ فالكائنات الآدمية تتمتع بقدرات معينة من المتعة التلقائية، ولكن الأخلاقيين والمتحذلقين يستولون على وسائل هذه المتع وينزعون منها ما يعتبرونه سم السرور، ثم يتركونها جافةً ومظلمةً وخاليةً من كل ما يُضفي عليها قيمةً؛ إن «شكسبير» لم يكتب بقصد إشاعة الملل في نفوس تلاميذ المدارس؛ بل إنه كتب ليسر الناس؛ فإذا لم يكن مصدر سرور عندك فخير لك أن تتجاهله.

إن القلق والإرهاق في مسابقات الحصول على المنح الدراسية يدمران حياة الأولاد الأصغر استعدادًا وقابليةً للتعليم في أوروبا، وإن يكن الأمر مختلفًا عنه في أمريكا؛ فكثيرون منهم قد ينهارون أثناء دراستهم الجامعية؛ وكثيرون آخرون ينهارون بعد انتهائهم منها مباشرة.

وهذا النظام قاس، وهو يؤدي أيضًا ضياع مادة ثمينة، ولكن قلة المال في أوروبا تجعله ضروريًا، ويجب إيجاد طريقة ما لتحديد من يحصلون على التعليم الجامعي.

بيد أن طريقة المنح الدراسية خطأ فاحش؛ حيث إنها تؤدي؛ بما تنطوي عليه من شدة النضال؛ إلى دمار قسم كبير ممن ينجحون في الامتحانات.

وليس هذا النظام إلا جزءًا لا يتجزأ من العسر المالي الذي تمليه تلك الضرورة المفترضة من تفضيل المدافع على الزبد، ولن يتيسر لهذه الحالة علاج ناجح إلا بالسلام الوطيد في العالم.

إن الرجل السعيد؛ كما أتصوره في مجتمع المستقبل؛ سيحظى بالقدر الذي يريده

من التربية المدرسية دون اعتبار للقدرة في الامتحانات، ومعظم أولئك الذين لا يتمتعون بقدرات دراسية لا يميلون إلى الدراسة، ومن ثم فإن القليلين منهم سيرغبون في الاستمرار في الدراسة بعد سن الواحدة والعشرين.

والمنتظر من كل فرد صحيح الجسم في أي مجتمع مهما كان مثاليًّا أن يقوم ببعض العمل النافع، وأعتقد أنه يجب أن تهيأ الفرص لمن لديهم اتجاهات غير عادية ليعملوا نصف الوقت مقابل نصف الأجر، وذلك من الأهمية بمكان؛ لأن خير الأعمال يعتبر عادةً في نظر معاصريه عديم القيمة، وينبغي أن يكون في وسع الإنسان أن يكرس جزءًا من وقته لأشياء يراها الآخرون عديمة الجدوى.

بيد أن مثل هؤلاء الناس سيكونون قلةً غير عادية، أما بالنسبة للباقي فسيكون في حيز الإمكان؛ إذ توفر تنظيم اقتصادي معقول؛ أن يحصلوا على معاشهم مقابل عمل ست ساعات يوميًّا مثلًا، وليس ذلك في الواقع عسيرًا؛ لأن القعود بلا عمل ليس السبيل إلى السعادة، ويجب أن يُكفل الأمن الاقتصادي لجميع من يعملون؛ بل ولمن لا يعملون إذا لم يكن قعودهم بلا عمل نتيجةً لخطأ من جانبهم.

وسيكون الرجل السعيد؛ بعد أن ينجو في صباه من العقدتين التوأمتين: الإحساس بالخطيئة، والخوف، منطلقًا وكريمًا ومتفتحًا في علاقاته الشخصية ينظر إلى الناس باعتبارهم أشخاصًا يتعاون معهم لا بوصفهم منافسين؛ إلا إذا كان هناك سبب محدد يدعو لعكس ذلك.

ولن يعمل هذا الرجل على كبت نزعات الصداقة باستمرار خشية أن يستغل الآخرون صداقته أو لا يستجيبون إليها، ويتسم موقفه تجاه الآخرين بالاطمئنان إليهم أكثر مما يحدث الآن بكثير، وسيؤدي موقفه هذا في تسع حالات من كل عشر إلى استجابة تبرر سلامة هذا الموقف، ولما كان سيتعلم في صباه اقتصاديات التعاون وسياساته ويتعود على اعتبار الجنس البشري عائلةً واحدةً؛ فإنه لن يفكر بطريقة غريزية في أن الأمم الأجنبية أعداء، وسيرى الحرب على حقيقتها حماقةً سخيفةً.

إن أصحاب «المدن الفاضلة» يجعلونها عادةً كئيبةً بصورة لا تحمل؛ لأن شغلهم الشاغل هو تحقيق الأمن. بيد أن الرجل السعيد يحتاج إلى فرص من المغامرة بقدر ما يحتاج إلى الأمن تقريبًا؛ فهو يحتاج الأمن في الإطار العام لحياته، ولكنه يحتاج أيضًا إلى المغامرة التي تمنحه الإثارة وتجعل في مكنته أن يتذوق الأمن عندما يعود إليه؛ إن الحياة الحديثة لا تتيح سوى القليل من فرص المغامرة في حياة غالبية الجنس البشري، ويرجع بعض السبب في ذلك إلى الإنتاج الآلي، وبعضه إلى عدم الأمن الاقتصادي.

بيد أن ذلك غير ضروري؛ إذ ينبغي أن يكون في مكنة المرء أن يقتصد من أجره؛ إذا راق له ذلك؛ لكي يستطيع السفر إلى المناطق القطبية أو أن يقتل الأسود في أفريقيا؛ أو أن يعبر المحيط في قارب مفتوح؛ أو أن ينغمس في أي نزوة تتملكه؛ وإنما على شرط ألا ينطوي ذلك على ضرر للآخرين؛ وتوجد الآن رغم الأوضاع القائمة في الوقت الحاضر؛ فرص المغامرة أمام أولئك الذين تحدوهم الرغبة فيها بقدر كاف؛ ويتبين ذلك من كتابين ظهرا مؤخرًا، وهما: كتاب «رحلة كون تبكي» وكتاب «جون كالدريل» «الرحلة اليائسة».

بيد أن المرء يحتاج في الوقت الحاضر إلى قدر نادر من العزيمة ليمارس مثل هذه الرياضة الخطرة، ولو أن الحاجة إلى المغامرة حظيت بقدر أكبر من الاعتراف بها لأمكن بسهولة إتاحة فرص أكثر وأقرب إلى متناول الناس، وفي هذه الحالة قد يجد ذلك النوع من الناس الذي يصير خارجًا على القانون أو دكتاتورًا إشباعًا كافيًا لنزعاته المغامرة في نضال مع الطبيعة لا يضر أحدًا؛ بل وقد يكون مفيدًا، وإن كان ينبغي ألا تعتبر هذه الفائدة هدفًا.

وأود أن أكرر في إصرار أن الرجل السعيد؛ كما أتصوره؛ سيكون سعيدًا لا بسبب ظروف خارجية تحيط به وهو بالغ فحسب؛ بل أيضًا بسبب المزاج السعيد الذي سيكون مدينًا به لحكمة أولئك الذين قضى بينهم سني حياته الأولى وعطفهم. إن الإنسان السعيد إذا توفر له هذا المزاج وأُتيح له النظام الاقتصادي الذي يكفل له الأمن؛ سيكون في وسعه أن يجد في العمل متعةً، وأن يكون له كثير من الأصدقاء وأن يحنو على أطفاله؛ وأن يعبر

السنوات الوسطى من حياته بمنجى من ذلك الإحساس بالإخفاق والفشل الذي نراه عادةً منتشرًا على نطاق واسع جدًّا بين متوسطي العمر في العالم كما هو الآن، وعندما يصل في نهاية الأمر إلى مرحلة الشيخوخة سينظر إلى السنوات التي خلفها وراءه بلا ندم أو أسف لا داعي له.

وقد أرغمني مر السنين على الانتباه إلى فن التقدم في السن، وهناك من الناحية السيكولوجية خطران يجب الحذر منهما في الشيخوخة: أحدهما: هو الاستغراق الذي لا داعي له في الماضي؛ فليس بمجد أن يعيش المرء في ذكرياته آسفًا على الأيام الجميلة الخوالي؛ أو في حزن على أصدقائه الذين ذهبوا؛ إن أفكار الإنسان يجب أن تتجه نحو المستقبل ونحو أشياء تتطلب عملًا ما، وليس ذلك يسيرًا دائمًا؛ فماضي المرء عبء يزداد ثقلًا مع الأيام، ومن السهولة بمكان أن يفكر الإنسان بينه وبين نفسه في أن عواطفه كانت أكثر حدةً، وإذا كان ذلك صحيحًا فيجب أن ينسى؛ وإذا نسي فمن المحتمل أنه لن يكون صحيحًا.

والأمر الآخر الذي يجب تجنبه هو التمسك بأهداب الشباب بأمل استقاء النشاط من حيويته؛ إن أطفالك عندما يكبرون يحبون أن يعيشوا حياتهم الخاصة بهم؛ وإذا استمر اهتمامك بهم كما كنت تفعل عندما كانوا صغارًا فالغالب أنك ستصير عبئًا عليهم؛ اللهم إلا إذا كانوا جامدي الإحساس بصورة غير عادية، وأنا لا أعني أنه يجب على المرء ألا يهتم بهم؛ بل أعني أن اهتمامه ينبغي أن يكون تأمليًّا؛ بل وإنسانيًّا إن أمكن، ولكن يجب ألا يكون عاطفيًّا بصورة لا مبرر لها.

إن الحيوانات تفقد اهتمامها بصغارها بمجرد أن تستطيع الصغار تدبير أمر نفسها، ولكن الكائنات البشرية تجد في ذلك صعوبةً بسبب طول فترة الحضانة.

وأعتقد أن الشيخوخة الناجحة تكون أسهل على أولئك الذين لديهم اهتمامات لا شخصية قوية تنطوي على ألوان مناسبة من النشاط، وفي هذا المجال بالذات تكون التجربة الطويلة مثمرة حقًّا، وفي هذا المجال بالذات أيضًا يمكن ممارسة الحكمة المكتسبة من

التجربة دون أن تبدو تطاولًا؛ فليس من المجدى أن تقول للأطفال الصغار ألا يخطئوا؛ أولًا: لأنهم لن يطيعوك. وثانيًا: لأن الوقوع في الأخطاء جزء جوهري من التربية.

بيد أنك إذا كنت واحدًا ممن لا تتوفر لديهم القدرة على الاهتمام بالأمور اللا شخصية فإنك قد تجد حياتك خاوية إلا إذا شغلت نفسك بحفدتك، وفي هذه الحالة عليك أن تدرك أنك على حين ما زلت تستطيع أن تقدم لهم بعض الخدمات المادية؛ كأن تمنحهم مصروفًا أو أن تحيك لهم سترةً مما يرتدونها في ألعابهم؛ فإنك يجب أن تتوقع منهم أن يجدوا في صحبتك متعةً.

وبعض الشيوخ تزعجهم فكرة الموت؛ وهذا الإحساس له ما يبرره فيما يتعلق بالشبان؛ فالشبان الذين لديهم من الأسباب ما يدعوهم للخوف من الموت في ساحة القتال قد يحسون، وهم على حق في ذلك؛ بمرارة من فكرة حرمانهم من أجمل ما في الحياة، ولكن الخوف من الموت لدى الشيخ، الذي عرف المسرات والأحزان الإنسانية وحقق كل ما يستطيع تحقيقه في الحياة؛ فيه شيء من المهانة وعدم النبل، وأفضل وسيلة للتغلب عليه -على الأقل فيما يبدو لي- هي أن توسع نطاق اهتماماتك وتجعلها لا شخصيةً أكثر فأكثر حتى تنهار جدران «الأنا» شيئًا فشيئًا، وتندمج حياتك في حياة الكون بصورة متزايدة.

إن وجود الإنسان الفرد يجب أن يكون مثل نهر صغير في مبدأ الأمر، تضمه جوانب ضيقة، ويتدفق في عنف عبر السدود وفوق الشلالات، ويتسع النهر بالتدريج، وتتراجع جوانبه وتتدفق مياهه بهدوء أكثر، حتى يندمج في النهاية في البحر دون فاصل ملحوظ، ويفقد الفرد وجوده بلا ألم. إن الرجل الذي يستطيع في شيخوخته أن يرى حياته بهذه الطريقة لا يُعاني الخوف من الموت؛ حيث إن الأشياء التي يهتم بها ستبقى، وإذا ألح عليه الإحساس بالإرهاق، وقد أخذت حيويته في الذبول؛ فإن فكرة الراحة لن تكون مزعجةً. والرجل الحكيم من يرغب في الموت وهو ما زال يعمل؛ مدركًا أن هناك آخرين سيستمرون في عمل ما لم يعد في استطاعته أن يعمله، ويجد الرضا في فكرة أنه فعل كل ما كان في وسعه أن يفعله.

الفصل الحادي والعشرون

العالم السعيد

لقد عملت في هذا الكتاب على سرد بعض الوقائع المعينة وبعض آمال بذاتها تبررها تلك الوقائع عقليًّا، والوقائع متصلة بتوحيد الجنس البشري عن طريق الأساليب الفنية الحديثة، وبتحريره من أغلال الكدح المرهق الذي جعلته الأساليب الفنية في الماضي مما لا مندوحة عنه. أما الآمال التي بنيتها على هذه الوقائع فهي آمال تتعلق بالرفاهية العامة التي يمكن للجنس البشري أن يحققها إذا تعلم ذلك التعاون الذي تتطلبه الأساليب الفنية الحديثة، وصحيح أن هناك مخاوف مصاحبة، لعلَّ لها أساسًا في الحالة الحاضرة للعالم بقدر ما لتلك الآمال التي سردتها من أساس؛ إذ لا يقتصر التوحيد الفني للعالم؛ على أنه يجعل في حيز الإمكان تحقيق قدر من الرفاهية أكبر مما تحقق في أي عهد مضى - إذا صاحبه توحيد اقتصادي وسياسي؛ بل إنه يجعل في حيز الإمكان أيضًا وقوع كوارث أعظم من أي كوارث عُرفت حتى في أسوأ العصور الماضية؛ إذا استمر تكريس مهارتنا الفنية للتفرقة بدلاً من التوحيد.

وأيًّا كان الأمر فإني لم أتناول في هذا الكتاب أسباب الخوف باستفاضة؛ حيث إني لا أعتقد أننا سنستطيع تجنب الأخطار التي تحيق بنا عن طريق الخوف؛ فعالمنا زاخر بالخوف أكثر مما ينبغي، وقد يؤدي تأكيد أهمية الأخطار إلى يأس متبلد، وعكس ذلك ما يحتاجه عالمنا؛ فهو في حاجة إلى الأمل الخلَّاق الذي يقوم على أساس عقلي؛ إنه في

حاجة إلى شيء إيجابي يعيش المرء من أجله؛ إنه في حاجة إلى المشاعر التي تدعو إلى العمل؛ لا تلك التي تدعو إلى التقاعس البائس؛ فإذا كانت الأولى قويةً بقدر ما تسمح لها الاعتبارات العقلية البحتة؛ فإن المشاعر الثانية ستتبدد وتصبح غير ضرورية، ولكننا إذا استغرقنا أكثر مما يجب في مشاعر التقاعس فإننا لن نتخلص من اليأس أبدًا.

وسأفترض فيما يلي أن الجنس البشري سيكون قد وصل إلى فهم المصلحة المشتركة التي توجد بين أُسرة البشر؛ سواء كان هذا الفهم قد نشأ عن دروس حرب عالمية ثالثة أو عن عملية أقل ألمًا؛ وسأحاول تصوير نوع العالم الذي سيترتب على هذا الفهم؛ فسأتناول الأنظمة العامة التي تستطيع أن تؤدي إلى خاتمة سعيدة لصراعات الإنسان الثلاثة التي قدم به العهد؛ صراعه مع الطبيعة، وصراعه مع الآخرين، وصراعه مع نفسه.

ولنبدأ بالصراع مع الطبيعة:

يجب أن تكون هناك سلطة دولية تسيطر على إنتاج الطعام والمواد الأولية وعلى توزيعهما، ولا بد لهذه السلطة من أن تكون متمتعةً بالقدرة على الحيلولة دون استعمال الأساليب الزراعية المتلفة مثل تلك التي أدت إلى صحراوات شمال أفريقيا وصحراء «الدست باول» (Dust Bowl) في الولايات المتحدة؛ فالزرَّاع الحاليون يجب ألا يسمح لهم باكتناز المال مستغلين رأس المال الطبيعي؛ الذي لا بد للأجيال القادمة من أن تعتمد عليه للبقاء في المستقبل؛ استغلالًا متلافًا، ويجب أن يعم الإدراك بأن كل من يبدد خصوبة الأرض في أي منطقة إنما يلحق الضرر بالجنس البشري كوحدة، وأن هذا الضرر ليس مما يحق للأشخاص، أو حتى لأمم بأسرها؛ أن يلحقوه به، وسيكون على السلطة الزراعية؛ بالإضافة إلى المحافظة على التربة؛ أن تكفل الإرشاد الزراعي العلمي وأن توفر كل معرفة عن هذا الموضع بحيث تكون في متناول كل الزرَّاع.

بيد أني لا أعتقد أن الأمر يتطلب «إرغام» الزراع على اتباع أحدث الأساليب العلمية؛ إلا في حالة ما إذا كانت الأساليب القديمة متلفةً للخصوبة بصفة نهائية.

وتنطبق على المواد الأولية اعتبارات مماثلة لهذه بعض الشيء؛ إن هناك الآن، وأنا أكتب هذه السطور؛ نزاع خطر حول البترول الإيراني؛ فالفرس يقولون إنه ملكهم، ويقول البريطانيون والأمريكيون إنه ملكهم، والروس يتطلعون إلى الموقف يحدوهم الأمل في أنهم سرعان ما سيستولون عليه، ولكن بأي حق يكون هذا البترول ملكًا لأي من الأطراف المتنازعين؟ فهم لم يضعوه هناك وهم لن يستعملوه وحدهم، ومن ثم يجب اعتباره ملكًا مشتركًا لجميع أمم الأرض؛ إن الاشتراكيين أدركوا شرور الملكية الخاصة في الأرض عندما يكون المالك الخاص مواطنًا قد تتعارض مصالحه مع مصالح مواطنين آخرين في دولته. بيد أنهم لم يدركوا بعد شرور الملكية الخاصة القومية -وأعني بها الملكية التي تستأثر بها أمة واحدة دون بقية الأمم، ويصير هذا النوع من الملكية مضرًّا بصورة متزايدة مع توحيد الاقتصاد العالمي، وهو حافز دائم للحرب؛ فهذا النوع من الملكية هو الذي يحتم أن تكون حكومة تشيكوسلوفاكيا شيوعيةً، حيث إنه من دون ذلك لا تستطيع روسيا استخدام الأورانيوم التشيكوسلوفاكي في صنع القنابل الذرية، ولمثل هذه الأسباب لا يكفي تأميم المواد الأولية؛ بل يجب أن تصبح ملكيتها شائعةً بين الدول، وتحدد الكميات التي تستعمل طبقًا لنظام يسنده ضمان دولي.

وكما رأينا؛ لا يمكن حل مشكلة تغذية العائلة البشرية حلًا ناجحًا طالما ظل السكَّان يتزايدون بسرعة، وقد كانت المجاعات والأوبئة تحد من هذه السرعة في الماضي، ولكنهما وسائل مؤلمة؛ هذا بالإضافة إلى أن فعاليتهما تتضاءل؛ فالطب يقوى على الأوبئة والمشاعر الإنسانية أخرجت المجاعات من نطاقها المحلي وجعلتها ظواهر أقل محليةً بعض الشيء مما كانت فيما مضى، ومن ثم فإننا إذا أردنا للعالم أن يزدهر رغم الطب العلمي والعدالة الاجتماعية فإنه يجب علاج مشكلة السكَّان بواسطة ضبط النسل على نطاق عام، وأيًّا كان ما يتطلبه ذلك من تربية وتصنيع في الرخاء في المناطق الأشد فقرًا في العالم؛ فلا بد من تنفيذه مهما كان الثمن إذا أُريد للعالم الذي توحد اقتصاديًّا أن يكون مستقرًّا وألا يهوى باستمرار إلى مستويات أقل فيما يتعلق بالحد الأدنى للبقاء.

وأصل الآن إلى الصراع بين الإنسان والإنسان، وأول ما يجب مواجهته في هذا المجال هو الحرب؛ فما دام الجنس البشري خاضعًا لتهديد الحرب؛ خاصةً بواسطة الأساليب المهلكة التي يعمل العلم على البلوغ بها إلى الكمال؛ فإنه ما من شيء طيب يمكن أن يكون في أمان، وليس هناك سوى وسيلة واحدة لتأمين العالم ضد الحرب، وذلك ألا تكون هناك سوى قوة مسلحة واحدة في العالم، ولا مانع من وجود قوات بوليسية محلية مسلحة بأسلحة صغيرة مما يمكن أن يواجه به المدنيون غير المسلحين، ولكن لا بد من تركيز جميع أسلحة الحرب الخطيرة حقًّا في يد سلطة واحدة مفردة.

وعندما يتم ذلك؛ لن يعود هناك خطر من قيام حروب خطيرة؛ إلا إذا اتخذت صورة حروب أهلية بين الأجزاء المختلفة من القوة الدولية، وتتطلب الحيلولة دون حدوث ذلك إجراءات ليست عسكريةً بحتةً؛ فسيتطلب الأمر سيطرةً على التربية؛ بمعنى عدم السامح لأي بلد أن يعلم في مدارسه قوميةً عدوانيةً؛ فتعليم التاريخ في كل مكان يجب أن يركز على تقدم الإنسان أكثر مما يفعل على الانتصارات القومية أو الهزائم في معارك مع أمم أخرى، وينبغي أن تكون الكتب المستعملة في تعليم التاريخ في كل مكان قد حظيت بموافقة السلطة الدولية وثبت أنها خالية من الأكاذيب القومية، ويجب أن يكون هناك أيضًا تعليم على نطاق واسع جدًّا للمبادئ الاقتصادية السليمة - وأعني بها المبادئ الاقتصادية التي تؤكد أن الدور الذي يلعبه التعاون أكبر جدًّا من ذلك الذي تلعبه المنافسة في عالم تستخدم فيه الأساليب الفنية الحديثة بذكاء، وينبغي الاقتراب شيئًا فشيئًا من حرية التجارة على نطاق عام، ويجب أن تكون هناك حرية كاملة في السفر؛ كما كان الحال في معظم البلاد قبل سنة ١٩١٤م؛ كما يجب أن يكون هناك تبادل بين الطلبة بحيث يتاح الفرصة لكثير من الناس، وهم ما زالوا شبابًا لم تتصلب عاداتهم وميولهم؛ لأن يتصلوا اتصالًا وثيقًا بالناس من البلاد الأخرى وبطرق تفكيرهم وسلوكهم، وينبغي أن يكون على قمة صرح التربية الدولية جامعة دولية مفتوحة للطلبة الممتازين من جميع البلاد وتضم أساتذةً، يعد المثل الأعلى الدولي في نظرهم مهمًّا،

وتكون ملجأ للممتازين من الناس الذين لم يرتح لهم مواطنوهم، مثل «أينشتين»؛ لأسباب تشين هؤلاء المواطنين.

ولنا أن نأمل في أنه قد ينمو داخل هذه الجامعة مجتمع حر من الناس الذين يستطيعون لا مجرد التغلب على القومية في تفكيرهم بمجهود متعمد، ولكن أن يشعروا حقيقة بوحدة الجنس البشري وبالمهام المشتركة التي يجب على الإنسانية الحكيمة أن تكرس نفسها لها.

ونصل أخيرًا إلى حماية الفرد ضد كل من عداء القطيع ومخاوفه هو نفسه، وهذان الأمران متصلان ببعضيهما أكثر مما يظن أحيانًا؛ لأن عداء القطيع يكون عادةً نتيجةً للخوف؛ كما أن جذور الخوف الذي يعبر عنه هذا العداء متأصلة كقاعدة عامة؛ في الخوف الذي يحسه المتعصبون نحو جزء من أنفسهم رغم أنه موجه إلى الخارج في الظاهر. ولقد تحدثت في فصول سابقة عما تستطيع التربية في السنوات المبكرة جدًّا أن تفعله لمنع نمو ذلك النوع من المخاوف المدفونة الذي يكشف عنه التحليل النفسي، والشيئان الرئيسان اللذان تحتاجهما السنوات الأولى هما العطف والأمن، وأي جماعة من السكَّان عوملت في صغرها بطريقة حكيمة تكون أقل عرضةً للألوان العديدة من عداء القطيع مما هو شائع الآن في معظم أنحاء العالم، ومع ذلك فلا بد أن نتوقع أن يثار عداء القطيع أحيانًا في حالات تبدو للشخص الخارجي أن ليس فيها ما يبرر مثل هذا العداء، وخير وسيلة لعلاج مثل هذه الحالات هي توفير أماكن يلوذ بها من يتعرض لعداء مجتمعه؛ كما كان الحال في العصور الوسطى، ويجب أن تكون هناك هيئة محايدة تفحص حالات أولئك الذين يلجئون إلى مثل هذه الأماكن؛ فإذا قضت بأن لا لوم عليهم وجبت حمايتهم.

إن الجنوح إلى تماثل أفراد المجتمع وتطابقهم من الأخطار التي سيتعين على العالم الصناعي المنظم أن يخشاها، ويجب عليه أن يتخذ ضدها إجراءات متعمدةً؛ فينبغي أن تكون هناك فرص للأفراد الممتازين؛ مثل الشعراء والفنانين الذين يرجح أن يفشلوا في

أي محاولة من جانبهم للحصول على رضاء الجالسين إلى مكاتبهم من الموظفين الذين تقدم بهم العمر، ورأيي أن تكون هناك «أكاديميات» لمثل هؤلاء الرجال؛ لا باعتبارها مكافأةً على ما حققوه من تفوق؛ لأنه عندئذ يكون الوقت قد فات؛ بل بوصفهم يعبرون عما يُرضي رأي الشبان الذين يعملون في نفس الميدان، وكنت أجعل الانتخاب لهذه «الأكاديميات» مقصورًا على من هم دون الخامسة والعشرين، ولا أسمح بأن يقوم بعملية الانتخاب سوى من لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من أعضاء الأكاديمية، التي يتعلق بها الأمر.

ومثل هذه التنظيمات قد تتيح الفرصة «للأكاديميات» ألا تتحول إلى مجموعة متحجرة من الشيوخ الذين جمدت آراؤهم؛ كما هو الحال معظم الأكاديميات في الوقت الحاضر.

وسيظل هناك بعد كل ذلك بعض الأشخاص ممن ينطوي عملهم على فوضى أكثر مما ينبغي، أو يكون متعارضًا بصورة أشد مما ينبغي مع الأوضاع السائدة؛ فإن «بليك» مثلًا؛ ما كان ليحظى بأصوات معاصريه من الشعراء أو الرسامين، وسيكون لزامًا على مثل هؤلاء الأشخاص أن يحصلوا على معاشهم بواسطة عمل يترك لهم قدرًا معينًا من الفراغ، وإذا اكتفوا بحياة بسيطة فإن ذلك سيكون ممكنًا.

وينبغي أن تقل ساعات العمل بالنسبة لجميع الناس عما هو الحال الآن؛ وأن تكون هناك عطلات أطول مما يتمتع به أي إنسان في الوقت الحاضر؛ باستثناء أساتذة الجامعات، ويخشى بعض الناس أن الحياة في مثل هذا المجتمع ستكون لينةً وخاليةً من المغامرة أكثر مما ينبغي، ولكن ليس من الضروري أن يكون الحال هكذا؛ فهناك صور لا عداد لها من المغامرة يمكن أن تتاح لكل إنسان يرغب فيها؛ إذا كانت العطلات طويلةً إلى الحد الذي يمكن أن تصل إليه بسهولة؛ أما بالنسبة لأولئك الذين يحبون أن يعيشوا باستمرار في غير رتابة، والذين يشمئزون من الحياة اللينة؛ فينبغي أن يكون من الممكن توفير متنفس كاف في عمل صعب حقيقةً؛ سواء من الخلق الفني أو البحث

العلمي؛ فمثل هذا العمل يستثير في الناس أقصى ما لديهم من قدرات؛ وهو لا يقل أثرًا بطريقته الخاصة؛ عن تسلق «أفرست». أما أولئك الذين لا يجدون ذلك كافيًا؛ فما برحت أمامهم قمة «أفرست»؛ فليتقدموا لغزوها!

والأفراد غير العاديين الذين حظوا بتقدير الأجيال اللاحقة، ولكنهم لم يحظوا بتقدير مواطنيهم؛ كان وجودهم ممكنًا في الماضي لأن الحظ أسعدهم فورثوا مالًا؛ إننا مدينون «بميلتون» و«بيرون» و«شللي» و«داروين» جميعًا لهذا الضرب من حسن الحظ.

بيد أنه ليس هناك نظام اجتماعي يمكن تخيله يجعل في وسع كل فرد أن يرث ثروةً، وإذا أُريد في مجتمع المستقبل أن تُهيأ فرصة العمل للأشخاص غير العاديين الذين لا يُدرك تفوقهم في شبابهم؛ فيجب أن تكون هناك أنظمة محددة تُوضع لهذا الغرض؛ وإذا لم يتم ذلك فإن التقدم الأساسي سيتوقف، وسيجنح الناس إلى التطلع وراءهم نحو عمالقة الفن والفكر الذين أنتجتهم العصور الماضية بوصفهم شيئًا لا قبل للعصر الحاضر بهم.

فما من مجتمع يستطيع أن يكون عظيمًا دون أفراد عظماء، وما كان العالم الذي تحقق فيه الأمن للجميع على حساب تفاهة الجميع ليحظى بتقديري.

بيد أني أعتقد أن تحقيق الأمن للجميع؛ إذا تم بواسطة ذلك النوع من الوسائل الذي تحدثت عنه؛ سيؤدي إلى الإقلال كثيرًا من الحسد والخوف من وصمة الشذوذ بحيث إن الاعتراف باحتمال التفوق غير العادي؛ حتى لدى الشبان؛ لن يلقى تلك المقاومة السيكولوجية التي يلقاها الآن لدى الغالبية العظمى من الجنس البشري؛ فإذا صح ما أقوله فعلًا، وإذا أمكن قيام مثل تلك الأنظمة التي تحدثت عنها؛ فإن العالم السعيد الذي أصوره لن يكون سعيدًا فحسب، بل سيكون أيضًا عظيمًا.

ولست أصدق أن الجوانب المظلمة المخيفة المدمرة في أرواح الناس ضرورية لإنتاج الأعمال العظيمة التي تتطلب خيالًا؛ بل على النقيض من ذلك أعتقد أن في مكنة الإنسان أن يشيد صروحًا من البهاء الوضاء ينبثق منها شعاع من ذلك المجد وتلك

العظمة اللذين يستطيع الفكر البشري والمشاعر البشرية أن يخرجاهما إلى الوجود؛ شعاع مضيء لا يختلط به ظلام؛ يملأ قلوب الناس غبطةً، ويفيض على أفكارهم وضوحًا.

إن مثل هذا العالم ممكن التحقيق، والأمر للناس أن يختاروا، هل يخلقون هذا العالم، أو يسمحون للسلالة البشرية أن تنقرض في غضب أحمق وحقد مرير.

ولقد مر الإنسان؛ في عصور طويلة منذ أن هبط من الأشجار؛ بصحراء شاسعة وهو يعني مشاق الطريق ومخاطره تحيط به عظام من هلكوا فيه قبله، وتعرض لأهوال الجوع والعطش والخوف من الوحوش والأعداء من كل جانب؛ لا من أعداء أحياء فحسب؛ بل ومن أشباح خصوم أموات عكستها شدة مخاوفه هو على العالم المليء بالمخاطر، وأخيرًا خرج من الصحراء إلى أرض باسمة. بيد أنه نسي خلال الليل الطويل كيف يبتسم.

إننا لا نستطيع أن نصدق ضوء الصباح؛ إننا نعتقد أنه سراب تافه؛ ونحن نتعلق بالأوهام القديمة التي تسمح لنا بأن نستمر في الحياة خائفين ممتلئين كراهية -كراهية أنفسنا؛ قبل كل شيء آخر؛ الخاطئين الأشقياء. إن هذه حماقة، إن الإنسان لا يحتاج الآن إلا إلى شيء واحد يتيح له الخلاص؛ أن يفتح قلبه للبهجة ويترك الخوف يتخبط في دياجير الماضي المنسي، ويجب أن يرفع بصره ويقول: «كلا؛ لست خاطئًا تعسًا؛ إني مخلوق اكتشف؛ بعد عناء طويل قاس؛ كيف يستخدم الذكاء في التغلب على العقبات الطبيعية؛ كيف يعيش في حرية وغبطة؛ في سلام مع نفسي؛ ومن ثم في سلام مع البشر كلهم». وسيحدث هذا إذا اختار الناس البهجة، لا الحزن. وإلا فإن الموت الأبدي سيقضي على الإنسان بما يستحقه من فناء.

آمال جديدة
في عالم متغير

عندما تكون فرصة النصر مساوية لفرصة الهزيمة يؤدي التفاؤل إلى المبالغة في تقدير فرصة النصر، ويعد هذا من وجهة نظر من بقوا على قيد الحياة حسن طالع. أما وجهة نظر المهزوم فإنها تنسى.

يقول برتراند راسل

" إن أمرا من الأمور المؤلمة التي يتسم بها وقتنا أن أولئك الذين يحسون اليقين أغبياء، وأولئك الذين عندهم شئ من الخيال والإدراك يملؤهم الشك والتردد، ولست أعتقد أن هذا ضروري، بل أعتقد أن هناك وجهة نظر في الإنسان ومصيره في المشاكل الحالية تستطيع أن تكفل يقينا وأملا معا، إلى جانب فهم أكمل للحالات المزاجية وألوان اليأس والشكوك التي تدفع إلى الجنون مما يحيط بالناس في وقتنا الحاضر.

وأملي أن أعرض في الصفحات التالية مثل وجهة النظر هذه بطريقة مقنعة ومشجعة تماما، بطريقة تجعل في وسع الناس من ذوي النية الحسنة أن يعملوا بنفس تلك الهمة التي صارت مؤخرا احتكارا للمتعصبين القساة، وأن ننزع من عقليتنا الغريبة ما ترمي به من أنه ليس لدينا ما نقدمه ..."


ISBN 978-977-765-098-4

